تفسير من هدى القرآن

المرجع الديني آية الله العظمى

السيد محمد تقي المدرسي

الجزء الثالث

سورة الانعام

فضل السورة

1-قال ابو عبد الله (عليه السلام) : " نزلت سورة الانعام جملة واحدة شيعها سبعون ألف ملك حتى انزلت على محمد (صلى الله عليه وآله) فعظموها و بجلوها ، فان اسم الله فيها في سبعين موضعا ، ولو علم الناس ما فيها ما تركوها. "

2-أروي عن العالم (عليه السلام (أنه قال : " اذا بدأت بك علة تخوفت على نفسك منها ، فاقرأ الانعام فانه لا ينالك من العلة ما تكره. "

3-عن أبي بصير قال : كنت جالسا عند أبي جعفر (عليه السلام) وهو متك على فراشه ، اذ قرأ " : الايات المحكمات التي لم ينسخهن شيء من الانعام قال : شيعها سبعون ألف ملك [قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ان لا تشركوا به شيئا ."]

الاطار العام

ثلاث حقائق (الله - الانسان -الكون:)

في بداية هذه السورة امتزجت حقائق الكون ببعضها وفق البصيرة التوحيدية التي بالرغم من اهتمامها بالفواصل الواقعية بين الاشياء الا انها تعلق أهمية كبيرة على مدى علاقة الاشياء ببعضها ، و تذكرنا هذه السورة بطائفة من حقائق الكون كمثل لهذه الوحدة . تلك الحقائق هي:

أ - الانسان باعتباره عبدا مخلوقا لله ، و سيدا على الطبيعة ، ان عليه ان يقف امام عظمة الله و يقول : " الحمد لله " حامدا عظمة الله ، ليس لأنه قدير واسع الرحمة فحسب ، بل لأنه سبحانه أغدق عليه من رحمته الواسعة الشيء الكثير ، فلذلك يحمده.

ب - الله باعتباره سيدا مطاعا للخليقة و مهيمنا عليها.

ج -الكون أي السماوات و الارض ، و الظلمات و النور . باعتبارها مخلوقات لله ، و مدبرات بأمره ، و الرابطة الوثيقة بين الانسان و بين الكون هي أنهما معامخلوقان لله ، مدبران بأمره سبحانه.

ولكن الانسان يملك - باذن ربه - ميزة اساسية بين الخلائق هي انه سيدها الذي سخر الله له اياها ، و لذلك فهو يحمد ربه.

و اذا أراد الانسان ان يكرس في ذاته صفة السيادة على الكون فليس عليه سوى المزيد من الارتباط بربه الذي سخر الكون لأمره.

معرفة الله:

ان معرفة الطبيعة من دون إله لها يعني ان المادة بلا روح ، بلا قيم ، و بلا نظام ، و معرفة الله بعيدا عن الطبيعة يعني البحث في فراغ ، في التجريد ، في اللاشيء ، وسواء كانت هذه او تلك فهي تنتهي بالانسان الى اللامسؤولية و اللالتزام ، و بالتالي اللاوعي.

المادي الذي يختصر حياته في الاشياء ، ولا ينظر عبر المادة الى ما ورائها من هيمنة الله ، و قيامه و ملكه و سلطانه ، انه لا يشعر بالتزام تجاه المادة ، لان المادة لا حياة لها ولا عزة لها ولا حكمة.

المادة لا تراقبه ، ولا تحاسبه ، ولا تجازيه ، بل لا يشعر بها ، فلذلك فهو ينفلت عن التقيد بالمسؤوليات .

و كذلك الصوفي الذي يؤمن بالألفاظ و الكلمات ، و الخلسات و الهمسات ، و لا يؤمن باله الحياة و النظام ، و التدبير ، و الملك ، و الحساب و العقاب ، انه لا يؤمن بالطبيعة كمظهر سام من مظاهر الحياة التي وهبها الله ، والنظام الذي قام عليه و أجراه سبحانه ، و بالتالي لا يؤمن بالطبيعة كاسم من أسماء الله سبحانه ان هذا الصوفي هو الآخر لا يشعر بمسؤولية أمام الحياة التي فصلها عن الله.

و الحقيقة في معرفة المادة و الروح هي الايمان بواقع الطبيعة ، و بحقيقة القيم التي تهيمن عليها ، و الاعتقاد بوجود الطبيعة المدبرة بسلطان ربها ، و بالتالي الاهتداء الى الله عبر أسمائه و آياته المنتشرة في رحاب الطبيعة.

ان القرآن باعتباره كتاب الله الذي لاريب فيه يتحدث الينا عن الطبيعة باعتبارها جسرا يسير عبرها الفكر الى معرفة الله ، و باعتبارها مظهر ساميا لأسماء الله و آياته ، و باعتبارها أداة للانسان لاكتشاف نفسه ، و الاهتداء الى ربه ، و التكاملحتى يكون الى الله المنتهى.

عليك ان تنظر الى السماوات ولا تجلس في غرفة مظلمة تبحث عن الله ، و لكن إياك ان تنظر الى السماوات كأنها أشياء ثابتة جامدة جاهلة ؛ كلا بل باعتبارها حقائق تسبح بحمد خالقها و تسجد لهيمنة ربها.

لماذا إسم الأنعام ؟

ان سورة الانعام هي مثل كل سور القرآن التي تشع بنور التوحيد و تنساب في ضمير الانسان بضياء الايمان بالله ، ولكنها لم تسم باسم مجرد . فلم يكن اسمها مثلا : سورة الحي القيوم ، او سورة الصمد الأحد ، او سورة القدوس الأعلى ، او سورة الحمد و التسبيح ،كلا .. بل سميت بسورة الأنعام.

الأنعام التي يضرب الله بها مثل الغباء ، و يعتقد الانسان انها لا تعني شيئا في حقل الايمان و العرفان ، مع ذلك سمى الله هذه السورة باسم الانعام ليجعلنا نغير نظرتنا الى الانعام ، و نعرف انها نعمة من نعم الله ، وانها بالتالي تهدينا الى الله من جهة.
و تفرض علينا من جهة مسؤولية معينة، وهي تلك المسؤولية التي يشعر بها المؤمن أمام ربه ، و بذلك يخرج المادة) وهنا الانعام مثل لها) من النظر اليها بنظرة الشيئية دون الالتفات الى دور المادة في تكامل الروح و العلم و القيم ، كما يخرجبذلك ايضا الروح و العلم و القيم و الايمان من عالم التجريد و المثالية الى عالم الحقيقة.

و قد ذكرت كلمة الانعام في هذه السورة في الآيات بين (١٣٨ الى ١٤٨) كل هذه كانت في رأينا بعضا من فلسفة اسم الانعام في هذه السورة.

هكذا تجلى الرب
بينات من الآيات

بسم الله الرحمن الرحيم

[1]الحمد لله الذي خلق السموات و الارض[

ان الله سبحانه لم يهب السموات و الارض خلقهما فقط ، بل قدر لهما أمورهما ، و نظـم شؤونهما ، فكل شيء في السموات و الارض محدود بحدود معينة حددتها حكمة الله ، و علمه الواسع ، و قدرته المطلقة .

فالشمس لها وزنها و سعتها ، و حرارتها و كثافتها ، و مدارها و مجراها ، و نهايتها و بعدها عن سائر الشموس السابحة في الفضاء.

كذلك الأرض و القمر و الكواكب و النجوم ، و هكذا الحال لكل شيء موجود في الارض ، حتى الذرة لها حدودها التي لا تتجاوزها.

و عندما نقول : حدودها نعني : ان كل شيء ينتهي وجوده عند حد معين ، و بعدئذ لا يملك وجودا او بتعبير آخر : ينعدم في خارج حده ، مثلا : التفاحة موجودة في مساحة معينة وفي وقت محدود . اما فيما وراء تلك المساحة ، وذلك الوقت فلا وجود للتفاحة ، كذلك فان الله قدر - بحكمته وقدرته - الوجود والعدم ، فجعل كل شيء موجـــودا في حدود معينة ، وجعله معدوما فيما وراء ذلك . اذا فهو جاعل العدم و الوجود ، و مقدرهما ومدبرهما.

وربما يشير الى هذه الحقيقة قوله تعالى:

]وجعل الظلمات والنور[

ذلك لان الظلمات رمز لكل عدم ، بينما النور رمز لكل وجود.

أمام هذه القدرة والحكمة المطلقة ، لايسعنا الا الحمد ، والحمد هو ذلك الموقف الرشيد الذي لابد ان نتخذه من ربنا ، ولكن كم هو بعيد وشاذ موقف الكفار حيث يشركون بربهم ، ويضعون الله سبحانه عدلا للأنداد من دونه . تعالى ربنا عما يصفه المشركون!

]ثم الذين كفروا بربهم يعدلون[

الشك لماذا وكيف ؟

[2]ان الانسان في هذا الكون الواسع محاط بقدرة الله ، وما عليه الا ان يعرف هذه الحقيقة ، ويعترف بها ، ولا يرتاب فيها ولا يشكك نفسه في ذلك ، لان الشك قد يكون عفويا ، وقد يكون شكا نابعا من الهوى او الحساسية وما أشبه ، وفي قضية الايمان بالله لانجد ذلكالنوع من الشك ، ان الله أظهر من ان يشك فيه بشر (١) ، ان(١) جاء في دعاء عرفة للامام الحسين (عليه السلام " : (الهي ترددي في الآثار يوجب بعد المزار ، فاجمعنيهذا الشك هو الشك الذي مصدره إغماض العين عن الشواهد ، والأنصراف عن الأدلة و المجادلة في الحق بعد اليقين به.

]هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون]ان خلقة الانسان كانت من طين فلذلك هو ينزع اليه ويهوى الخلود اليه ، ومن الصعب عليه ان ينبعث الى الحق.

ولأن الانسان خلق من طين فأولى به ان يخشع لخالقه والا يستكبر.

ثم ان للانسان قدرا مقدورا . ذلك ان خلايا جسمه تتحلل ، وعظامه تهن وتضعف ، وينتهي بالتالي الى

الموت.

فقــد يأتيــه الموت بحادث سيارة او مرض سرطان ، او قتل في حرب او .. او..

الميتة الاولى قدر مقدور عليه ، كما هو قدر مقدور على كل حي وعلى كل مادة ، اما الميتة الثانية فهي قضاء يقدرها الله عليه ، ويكتبها في سجله الأسمى ، وذلك وفقا لاختيار الفرد نفسه.

اذا فهو إله السموات وإله الارض ، وهو ملكهما ومرجع أمورهما.

]وهو الله في السموات وفي الارض[

ولأنه يدبر أمور السموات والارض ، فهو عليم بهما لأنه من المستحيل ان يدبرعليك بخدمة توصلني اليك . كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر اليك ! أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ! متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدل عليك ؟! ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل اليك !؟ !عميت عين لاتراك عليها رقيبا ، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبا . مفاتيح الجنان / ٣٤٢ - دار الاضواء.

الكون دون ان يعلم بخفاياه.

]يعلم سركم وجهركم[

إنه يعلم السر كما يعلم الجهر . (بعكس الانسان) لان السر هو الذي يتكون اولا ، ثم يبرز امام الناس ، كالحبة تحت التراب ، تتحول عبر تفاعلات كيمياوية الى زرع قبل ان يراها الناس ، ثم اذا اخضرت الأرض أصبحت جهرا (والله يعلم سرها وجهرها. (

ولذلك فأن علمه بالسر يسبق علمه بالجهر (بالرغم من ان علم الله لا زمان له. (

والله يعلم خفايا الحبة التي تتفاعل مع أملاح الأرض ، ثم اذا تفاعلت يعلمها خبراء الزراعة ثم يراها المزارعون.

كذلك يعلم الله ارادة الانسان قبل ان تتحول الى عمل ، ويعلم العوامل المؤثرة فيها . عاملا عاملا ، ويعلم طبيعة الظروف ومدى استعداد الانسان لتحديها ، او إستسلامه لها . لذلك فهو يعلم ماذا يريد الانسان ان يعمله في المستقبل بالرغم من ان هذه الارادة لا يعلمها حتى الانسان نفسه " عرفت الله بفسخ العزائم ونقض الهمم. "

]ويعلم ما تكسبون[

ما تكسبون من خير او شر، الآن ومستقبلا ، وهكذا .. فعلى الانسان ان يصلح ما في نفسه من عقد ونزوات ، ويطهرها من صفاتها السيئة ، تلك التي يحاسبه عليها ربنا ، وهو عليم بكل تفاصيلها ومقاديرها ، كما عليه ان يصلح ظاهره ، ويراقب أعماله.

وهكذا يحتجب الخلق عن الرب

هدى من الآيات

تحقيقا للهدف العام لسورة الانعام الذي هو تنمية روح الايمان بالله في النفوس ، وجعله مصباحا يهدى الانسان في ظلمات الحياة ، تحقيقا لهذا الهدف العظيم جاءت آيات هذا الدرس لتفضح الدافع الأساسي لتكذيب آيات الله ورسالاته ، لعل الانسان يتذكر بنفسه ويحاول تطهيرها من شر هذا الدافع الأساسي الذي هو الاستهزاء بالحق ، والاعراض عن آياته ، وما دام البشر يستخف بالحق ولا يقدره حق قدره فانه لن يستمع الى آيات الحق ، ولن يحاول استيعاب هذه الايات.

و لكي يطهر البشر قلبه من هذا الدافع فعلينا ان نذكره) كما عليه هو ان يتذكر) بمصير المستهزئين بالحق ، المعرضين عن آياته كيف انهم دمروا شر تدمير.

و تبين آيات هذا الدرس انه ما دام الاستهزاء موجودا ، اي ما دام البشر غير مهتم بالحق . فانه لاينتفع بأية آية ، بل يحاول ان يتشبث ببعض الحجج الواهية حتى يرد الحق و آياته ، ومتى ما فشلت حجة من حججه ، فانه يسارع الى حجة واهيةاخرى.

فلو جاءته الآيات على شكل كتاب منزل من السماء ، فانه يقول : انها سحر ، ثم يطالب ربه بأن ينزل عليه الملائكة ، ولكن هل هذا ينفعه ؟ كلا ، لان الملك عندما يأتيه مثلا فانما يأتيه بصورة انسان او شبهه ، ولكن مادام يكفر بالرسل . فكيف لايكفر بالملائكة ؟!

ان الحل الوحيد للمعرض عن آيات الحق ، او المستهزئ بها هو ان يتذكر مصير المكذبين بها والمعرضين عنها ، وذلك بالسير في الارض ، لان الحق ينتصر مــن المكذبين والمعرضين.

بينات من الآيات

الاستعداد النفسي:

[4]لكي نعرف الحق نحتاج الى الانفتاح عليه والبحث الجدي عن آياته ، وإنك تحتاج الى البحث السليم عن طريقك وانت تسير في الصحراء او في الجبال حتى تكشفه من خلال المعالم الموجودة على الرمال ، او بين الصخور.

فاذا أراد الانسان ان يعرف طريقه في الحياة من أين جاء ، والى أين يسير ، و كيف ومتى ، وأين ينتهي به المطاف ، وكيف يسعد ، وكيف يمارس أعماله بشكل لا تتعارض و مصالحه الحقيقية و هكذا ؟

أفــلا يحتاج الى البحث ، وهل يمكن ان يكشف احدنا طريقه في الحياة بــلا تعب ؟! كلا..

و من حسن حظنا نحن البشر ان الله من علينا بتوضيح طرق الحياة ، و هدانا الأبلج الطرق ، و المطلوب منا ان نفتح أعيننا جيدا لنهتدي بهدى ربنا ، أما اذا أغمضنا أعيننا فحتى نور الشمس لا يستطيع ان ينفذ الى عين مغمضة ، اذا فالشرط الأول للهداية ، هو الاستعداد النفسي لتقبلها اذا توفرت آياتها ، اما اذا لم يكن عند الانسان هذا الاستعداد ، و قرر سلفا الكفر بالحق ، فانه سوف يعرض عن آيات الحق ، و مثلا على ذلك الذي ينتمي الى حزب ، ولا يفكر أبدا في ترك هذا الحزب لأنه قد اتخذ قراره سلفا لانكار الحق ، كذلك الكافرون يعرضون عن آيات الحق لأنهم قد اتخذوا قرارهم الخاطئ سلفا بالكفر.

]وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين]انهم لا يحضرون عند من يتلو الآيات ، و ان حضروا فهم لا يستمعون الى تلــك الآيات ، و ان استمعوا اليها فليس للاهتداء بها بل من أجل ردها.

عاقبة الاستهزاء بالحق:

[5]يستخف الكفار بآيات ربهم ، و الواقع أنهم يستخفون بالحق الذي تدل عليه تلك الآيات . ان من لا يحضر عند من يذكر بالله ، ويقول : من هذا حتى أحضر عنده ؟! أنه لا يستخف بهذا الرجل . بل بالحق الذي يحمله.

كذلك من لا يقرأ كتابا يهديه الى الحق ويقول مستخفا . به : ما هذا ؟! إنه يستخف بالحق لا بالكتاب.

كذلك من لا ينظر الى آيات الله في الكون نظرا عبريا ، و كذلك الذي لا يتدبر في القرآن.

]فقد كذبوا بالحق لما جاءهم[

ان فطرة الانسان تدفعه الى البحث عن الحق ، و لكن الذي دنس فطرته بوسخالشرك . ينكر الحق ، و يكذب به حتى وإن جاءه بدون بحث او صعوبة.

]فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون[

إن مثل هؤلاء لا يعرفون أهمية الحق و دوره في فلاحهم و سعادتهم ، و مدى حاجتهم اليه ، و هذا الجهل سيرديهم ، لأن الحق الذي يستخفون به ، و ينكرون دوره في حياتهم سوف ينتقم منهم غدا حين يخالفونه.

إنك اذا انكرت حقيقة الجاذبية في الأرض و أعرضت عمدا عن كل الآيات التي تدل عليها . و اذا قيل لك : إن سقوط التفاح من الشجر و انحدار السيل ، و تساقط المطر كل ذلك يدل على الجاذبية ، و انك لو قفزت من عل فسوف تسحبك الارض و تحطم عظامك ؛ قلت : كلا .. و لمتستمع الى الأدلة ، بل أعرضت عنها.

ماذا ستكون النتيجة ؟ بالطبع ان هذا الحق الذي أنكرته اليوم ، سيأتيك غدا لينتقم منك ، بأن تسقط في يوم من الايام فاذا بعظامك محطمة.

كذلك لو انكرت حقيقة ان السكوت على حكم الظالم سيحطم سعادة الشعب ، و لم تستمع الى آيات هذا الحق المتمثلة في مئات العبر التاريخية الغابرة ، و التجارب البشرية الحاضرة ، فسوف تسكت عن الظالم ، و تكون أنت اول من يحيط به ظلم الظالم ، و يحطم سعادته.

[6]هكــذا كان مصير كل اولئك الذين أعرضوا عن آيات الله ، و كذبوا بالحق ، و استهزؤوا به كتعبير عن إستخفافهم به ، و استهانتهم بدوره في سعادتهم.

سنة العذاب:

إننا إذا نظرنا الى تاريخ البشرية فأننا نرى حقيقة بارزة هي ان مصير كل المكذبين بالحق كانت المأساة.

]ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن[

هل أهلكوا لأنهم كانوا ضعفاء ؟ كلا بل بالعكس:

]مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم[

أي أنهم سيطروا على موارد الأرض ، و سخروها في مصلحتهم باذن الله ، و استقروا في الأرض ، و اطمأنوا بها حتى ليكاد يحسبهم الناظر انهم خالدون فيها.

]و أرسلنا السماء عليهم مدرارا و جعلنا الأنهار تجري من تحتهم]لقد استقروا في الأرض و تجاوزوا مرحلة البداوة ، و الارتحال من منطقة لأخرى طلبا للرزق ، خوفا من الوحوش ، أو من نكبات الطبيعة ، ثم كانت موارد الرزق عندهم كبيرة و سهلة و هذه هي اسباب قيام الحضارات البشرية.

و لكــن هذه الحضارة (التمكين) لم تشفع لهم . اذ أنهم حين أعرضوا عن آيات الحق ، و كذبوا بها و استهزؤوا . آنئذ خالفوا عمليا الحق ، و أكثروا من الذنوب التي هي تعبير ديني عن مخالفة الحق.

إنهــم ظلموا أنفسهم ، و طغوا على الآخرين ، و لم يستفيدوا من موارد الطبيعة ، بل أفسدوها ، و فعلوا مثلما فعل قوم عاد أو قوم لوط أو قوم شعيب ، و كانت النتيجة : ان تلك الذنوب تكاثرت حتى أحاطت بهم

، و أنهت حضاراتهم.

]فأهلكناهم بذنوبهم وأنشانا من بعدهم قرنا آخرين[

ان هذه عبرة كافية للبشر اذا أراد أن يعتبر.

[7]ولكن البشر قد يغلق على نفسه منافذ قلبه . فلا يقبل الحق و لو جاءهبطريقة إعجازية.

]ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم[

أي في أوراق ملموسة يرونها تهبط عليهم من السماء كما ينزل المطر إنهم لا يفكرون أن ذلك إعجاز ، فكيف ينزل من السماء قرطاس فيه هدى و نور ، إذا:

]لقال الذين كفروا إن هذا الا سحر مبين[

و كيف يمكن إقناع من يخلط المعجزة بالسحر ؟ هل بمعجزة أقوى و أكبر ؟! انه آنئذ سيزعم أنها سحر أكبر ؟!

إن إقناع هذا الشخص اصعب من إقناع من يخلط بين المتناقضات في تفكيره كالبدائي الذي يزعم : ان من الممكن ان يوجد شخص في مكانين في زمان واحد ، ذلك لان هذا يعاني من نقص في تفكيره . يمكن ازالته بالتعليم أما ذاك فهو مصمم على ألا يقتنع بالحق لأنه لا يرى أهمية لذلك أصلا.

[8]ان هذه الطائفة تطالب أبدا بمعاجز جديدة . تهربا من الاقتناع بالحق ، و ليس هدفهم من هذه المطالب بريئا .

]و قالوا لو لا انزل عليه ملك[

من السماء نراه بأعيننا حتى نصدق به ، و لكن إذا جاء هل يصدقون به أم يعودون و يقولون : إنه سحر مبين ؟!

إن لله سننا و أنظمة في الكون يجري عليها أمور الكون ، ولا يخرق هذه السنن بطلب كل احد.

و من تلك السنن : أنه قدر الا ينزل الملائكة الا في يوم المعاد . حيث يظهر الجزاء فورا و بصورة واضحة . في ذلك اليوم تظهر الملائكة لكي يجازوا الناس بأعمالهم ، و تظهر حقائق الكون للجميع . لذلك قال ربنا :

]و لو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لاينظرون[

في ذلك اليوم تنتهي فرصة الاختبار للانسان ، و يأتي يوم الجزاء العاجل الذي لا يمهل صاحبه ، اما الان فنحن في يوم المهلة.

[9]ثـــم ما الفرق بين ان ينزل الله ملكا او ينزل رجلا ، فما دام الفرد كافرا و جاحدا . لا فـرق بين أن يأتيه رجل رسول ، أو يأتيه ملك رسولا . انه سوف يكفر بهما جميعا.

]ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا و للبسنا عليهم ما يلبسون]إن الهدف من بعث الرسل ليس إكراه الناس على الالتزام بطريق الحق ، بل اتمام الحجة عليهم و ذلك بتوفير فرصة الهداية لهم كي لايقولوا يوم القيامة : لم نكن نعلم.

و لذلك لو بعث الله ملكا إذا لجعله الله يشبه الناس حتى في ملابسه حتى يستطيع أن يتفاهم معهم ،

و يهديهم.

[10]إن مشكلة الكافر هي إسخفافه بالحق و استهزائه به . و السبب هو : أن الكافر -كما قلنا سابقا - لا يعرف مدى أهمية الحق في حياته وأن علينا ان نبين له تلك الأهمية من خلال تجارب التاريخ.

]و لقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا بهيستهزؤون[

ان الحق الذي كفر به هؤلاء و استهزؤوا بمن هداهم اليه تحول الى واقع مر ، و دمر حياتهم.

[11]ان الرسل قالوا لهم : ان الاستسلام للطاغوت حرام ، وعلى البشر أن يثور ضده .فهذا هو الحق الذي حمله الرسل الى الناس ، و لكنهم كفروا بهم ، و استهــزؤوا بهذه الحقيقة . فماذا كانت النتيجة ؟

إن الحق تحول الى واقع فسيطر الطاغوت على البشر ، و افسد عليهم الحياة ، و جعلها جحيما لا تطاق .

و لكي نفهم هذه التجربة العظيمة علينا ان نراجع التاريخ:

]قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين]إن حياتهم انتهت الى جحيم بسبب تكذيبهم للحق ، و استهزائهم بالرسل.

يات الله بشائر رحمة و نذير عذاب

هدى من الآيات

أبسط فكرة تقفز الى ذهنك حين تلقي نظرة الى السموات و الأرض هي أنهما مسيرتان و ليستا مخيرتان ، فأذن هي مملوكة لله ، و لكن الله ذو المشيئة المطلقة ، المالك للسماوات و الارض يعطي عباده من خلال عطاياه و نعمه التي لا تحصى ثقة بأنه لن يقطع الحبل عنهم ، بل كتب على نفسه الرحمة لهم ، فما أفضل الالتجاء اليه ، و التمتع برحمته.

هذه فكرة الآية الاولى من هذا الدرس . الذي يعرفنا بربنا معرفة تجعلنا نكاد نراه بها سبحانه ، و الله هو المالك لكل ما سكن له واطمأن إلى رحمته في مسيرة الليل و النهار رغم تحركهما ، إذ أن رحمة الله تدع الخلق يسيرون وفق نظام يثقون به ، يسكنون إليه رغم تدفق الزمان الهائل القوة ، لأن الكون كله يستند الى القدرة المطلقة التي فطرت السموات و الأرض في البدء ، و التي لاتزال تغذي الوجود دون أن يتغذى بشيء سبحانه ، و في هذا الطوفان الهائل التغيير يسلم العبد لربه ليتخذمنه ركنا شديدا ، ثم لا تكونن - أيها العبد الضعيف من المشركين -لأن الشرك - و هو أعظم درجة - سيجعلك تواجه نهاية مأساوية في يوم أكبرهم كل إنسان فيه هو الخلاص من عذابه [فمن زحزح عن النار و أدخل الجنة فقد فاز] (آل عمران / ١٨٥)و تأتي هذه المجموعة التوحيدية من الآيات في سياق دروس إيمانية متتالية . هدفها التعريف الأعمق بآيات الله في الحياة.

بينات من الآيات

عالم الخلق دليل رحمة الله:

[12]ان للحياة التي نعيشها . لحظة بلحظة ، و دفعة بدفعة ، و موجة بعد موجة ، هذا المهرجان العظيم من النور ، و الدفىء ، و الانطلاق من العظمة و الروعة والجلال ، لهذه الحياة تنظيم بديع لطيف متين . اذا نظرت اليهــا ككل راعتك آيات التنسيق بين أجزائها ،و إذا أمعنت النظر في أصغر أجزائها أعجبتك متانة الصنع ، و مدى ما فيها من دقة التنظيم ، و عظمة الحركة ، كل ذلك يزيدك معرفة : بأن للسموات و الأرض ربا يملك ناصيتها ، و يدبر شؤونها ويسيرها ، ولو كانت حرة طليقة من دون مسير ، إذا لتحركت و سارت كل جزيئة منهافي اتجاه ، و لانهارت و تفتت و تلاشت ، فمن يملك ناصية الحياة غير ربها ، الله الذي خلقها.!!

]قل لمن ما في السموات والأرض قل لله[

إنها ليست الحقيقة التي نحتاج فيها الى إثبات ، بل نحتاج الى معايشتها و ملامسة أبعادها لنصبح كلما استطعنا أقرب اليها لأنها الحقيقة الام التي تتفجر الحقائق من خلالها تفجيرا ، ومن خلال معرفة حقيقة المالكية الالهية نعرف أن الله قد كتب على نفسه الرحمة لأنه لو لم يكتب على نفسه الرحمة (و نعترف بعدم دقةالتعبير) إذا فمن الذي يمسك السموات و الأرض أن تزولا . علما بان الله يجبر الكون على المسير وفق الأنظمة ، فمن يجبره سبحانه . انه هو الذي:

]كتب على نفسه الرحمة[

و لكن لرحمة الله حدود ، و حدود رحمة الله هي حكمته .. فكما أنه رحيم حين يضع السنن العادلة ، الا أنه شديد على من يخالفها ، فهو حين يحفظك - مثلا - من أن تسقط عليك حجارة ضخمة من السماء تدمر بيتك على من فيه ، فانه بعدئذ فرض عليك أن تلتزم بواجب العدالة، فلا تدمر بيوت الخلق بقنابل عنقودية ، فلو فعلت فان جزاءك سيأتيك عاجلا في الدنيا ، أم آجلا في الاخرة . هنالك لا تحاسب وحدك ، بل سوف تحاكم أمام الناس جميعا ، و سوف يؤتى بمن ظلمته لكي يستوفي كل جزائه العادل:

]ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه[

أويشك أحد : أن الله هو الذي أمسك كل شيء في حدود معينة عادلة حكيمة ، و ذلك برحمته التي كتبها على نفسه ، أو يشك أحد أنه سوف يترك الانسان حرا في تدمير نفسه ، و العالم من حوله دون جزاء عادل له ؟ كلا:

]الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون[

لأنهم يتصورون أن الحياة بلا بداية و لا نهاية ، و لا مالك ولا شيء .. انهم يخسرون أنفسهم ، و يفقدون ما من الله عليهم به من فرصة السعادة الأبدية ، الى الشقاء الأبدي الخالد.

السكون و الحركة في الكون:

[13]غدا حين تشرق الشمس ، و ينتشر الضوء و الحرارة . أذهب أنا و اولاديو سائر أبناء القرية جميعا للحصاد .. إذ أننا قبل أشهر كنا قد ملأنا الحقل بذورا ، و الآن أصبحت حقلا زاهرا و في العام القادم سننزوج الاولاد ، و نسافر الى الحج ، هذه الأفكار التي تراود ذهــن فلاح بسيط لدليل على أن هناك ثقة بالحياة يسكن اليها البشر - بل كلما في الحياة - تلك ثقة نابعة من أن سنن الله لا تتغير رغم تطور آياته ، فالشمس تطلع لتغرب ، و الليل يلاحق النهار ، والضوء يهزم الظلام ، ثم ينهزم أمام جيوشه ، و لكن كل ذلك يجري وفق نظام يطمئن اليه الانسان و سائر الأحياء لا فرق . من يملك النظام ؟ من ينفذه ؟ من يشرف عليه الا تخرقه الاهواء النزقة ؟ انه الله الذي يهيمن على السموات و الارض ، و هو يسمع و يعلم فلا يهرب من سوط عدالته و سلطان تدبيره شيء سبحانه:

]و له ما سكن في الليل و النهار و هو السميع العليم]و المقابلة المبدعة بين الليل و النهار من جهة ، و بين السكون من جهة ثانية مقابلة توضح بعدي السكون و الحركة في الحياة الواحدة التي يهيمن عليها الرب.

دوافع الايمان:

[14]قلنــا - و نكرر - إنك حين تعرف حقيقة أن لله ملك السموات و الارض ، تعطيك هذه المعرفة آفاقا جديدة من العلم ، و هذا واحد منها : إنك تجلس لتفكر . اذا كان الله هو مالك السموات و الارض . فلماذا لا نتخذه صديقنا و صاحبنا ، و قائدنا و ولينا . نحبه ويحبنا . أوليس هو الذي يملك - فيما يملك - رزقنا . وهو بذلك لا يطالبنا بثمن ، فنحن لا نطعمه . بل هو الذي يطعمنا ؟١ هناك توجه السؤال التالي الى

نفسك:

]قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم]و يأتيك الجواب و بكل بساطة :

]قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين]تقول نفسك ، و تقول لك كل حقائق الحياة : كلا . ان من الأفضل لك الخضوع لله ، و ليس لأحد سواه.

[15]و غدا حين يجازي الرب عباده المذنبين ، كيف نهرب من جزائه العادل و هو ذو القوة التي سخرت السموات والأرض ؟

]قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم[

[16]إن الرحمة التي شملتنا في الدنيا و التي ظهرت آثارها في كل مظاهر الحياة . هذه الرحمة كيف تفوتنا ، و تتحول في الآخرة بسبب أعمالنا الفاسدة الى عذاب ..أو ليس هذا جنون ؟

]من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه[

رحمه لأنه هداه الى الحق ، و ألزمه كلمة التقوى ، و رحمه لأنه غفر له ذنوبه البسيطة ، لأنه أطاع الله في أعظم العبادات:

]و ذلك الفوز المبين[

أن ترسو سفينة الانسان على شاطئ السعادة الأبدية برحمة الله.

بالله يفلح الانسان

هدى من الآيات

إن كنت تبحث عن المصالح الحقيقية لذاتك او لمجتمعك ، فان بيد الله سبحانه أزمة الكون كلــه ، فـاذا مسك الله بضر لا يستطيع الناس و لو اجتمعوا أن ينقذوك منه - إلا باذنه - و إن أنعم عليك نعمة ، فان الله وحده القادر على إبقاء أو إزالة النعم عنك..

و إن كنت تخشى طوفان الأحداث ، و تبحث عن ركن شديد تأوي اليه ، فان الله هو القاهر فوق عباده و يدبر شؤونهم بحكمته و خبرته..

و ان كنت تبحث عن الحقيقة ، فان الله هو الحق ، و هو أكبر شهيد..

بينات من الآيات

و هو القاهر فوق عباده:

[17]انك تحب نفسك و تبحث عن مأمن لها عن الشركاء ، و تبحث عن مصدر

الخير لها ، فاعلم بأن الله هو الذي يقدر لك الخير و الشر معا ، و انه لو قدر الله لك أمرا فانه لا أحد يملك تغيير أقدار الله.

]و ان يمسسك بضر فلا كاشف له الا هو[

حين يصيبك المرض و يشتد حتى تشعر بمسه . آنئذ يستيقظ ضميرك ، و يتــوجه الى الله القادر على

كشف المرض عنك ، بينما قد تكون قبل ذلك غافلا عن ربك.

]و ان يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير[

وحين تشعر بلذة الخير الذي يهبط عليك من دون جهد كاف ، هنالك لا تطغى . لأن الله الذي قدر لك الخير قادر على أن يسلبه منك ، كما أنه قادر على أن يزيدك خيرا ، أو حتى على أن يحوله الى سوء في النهاية..

و التعبير القرآني يؤكد على كلمة ، المساس للدلالة على الضر الذي يشعر بألمه الفرد ، و الخير الذي يحس بلذته ..

[18]و الله يقهر عباده ، و يخضعهم لمشيئته شاؤوا أم أبوا . إنه يقدر لهم السبات فلا أحد منهم يغلب النوم على ذاته الى ما لا نهاية ، و يقدر عليهم الموت و هم كارهون ، و يأخذهم على تطبيق أنظمة معينة في الحياة ، لا يستطيعون الفرار منها:

]و هو القاهر فوق عباده[

و لكن تقدير الله للبشر ليس عبثا ، بل وفق حكمة بالغة ، و خبرة أزلية.

]و هو الحكيم الخبير[

فـاذا علمت بأن الله القاهر ، فلا تخف ! لأن الله حكيم فاذا سلمت الأمور اليه ، فانه سيبلغك الى شاطىء الأمان ..

قل أي شيء أكبر شهادة :

[19]تتلاحق الأحداث ، و تترى الظواهر ، و تجري سفينة الحياة في بحر عالي الموج ، عاصف الريح ، و لكن وراء تلك الظواهر أنظمة حكيمة تمسكها ، و الله من وراء تلك الأنظمة يمسك زمامها و يوجهها ، فالله هو ضمير الكون - الذي لا يخلو منه مكان - تجد آثاره في قطرات المطر الزاخر ، فتجد وراء كل قطرة - قدرته . حكمته . هيمنته . سلطانه . نعمته . رحمته . و فضله - والأرض حين تهش لقطرات المطر تشربها ، و تحتضن حبات القمح تداعبها ، حتى يتفجر الحقل روعة و خضرة و نعيما ، ان هناك يتجلـى اللـه الحق .. في السماء ، و الارض و الدواب..

كل شيء شاهد على ذاته ، الشجر يشهد على ذاته بالمساحة التي يأخذها من الأرض ، و من الفراغ ، و بالثمر الذي يقدمه لك ، و لكن الله لا يغيب عنه شيء ، لأنه وراء كل شيء . انه الذي يمسك كل شيء بما أعطاه من الحركة و الفاعلية و السنن و الأقدار ، فالله شاهـد على كل شيء ، و حاضر عند كل شيء ، و كل شيء آية له لأنه منه و معه و اليه ، فالله إذا أكبر شهادة من أي شيء:

]قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم]انه يدل على ذاته بذاته ، و يدل على كل شيء ، انه يعطيك السمع و البصر و البصيرة ، و يتجلى بآياته في مهرجان الحياة حتى تعيش معه في كل لحظة و مع كل شيء . يبقى أنت الذي قد تغيب عن ربك (دون أن يغيب عنك (انه قريب المسافة ، بينك و بينه لحظة الالتفـاتو التوجه ، و لكي لا تغيب عنه ، و لكي تتكامل ذاتك الى مستوى العيش مع ربك . أرسل الانبياء ، و زودهم بالكتاب لينذرك لأن الانذار أقرب الطرق الى قلب البشر ان البشر غافل بطبعه ، و سلاح الخوف أفضل وسيلة لخرق حجب الغفلة عن قلبه.

]و أوحي الي هذا القرآن لانذركم به و من بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد و إنني بريء مما تشركون]إنني لا ارى أثرا يذكر لغير الله سبحانه ، فكيف يمكنني أن أشرك بالله ؟ إنني لا أشهد بغير الله ، و إني أحارب بكل صراحة ما تشركون.

القرآن عصمة البشر

هدى من الآيات

الحق -كالركن الشديد - تعتمد عليه إذا اعترفت به و صدقته ، أما الباطل فهو سراب ، لا وجود له الا في خيال من يؤمن به ، فهو الذي يعتمد عليك ، ويكلفك عناءه.

و القرآن حق تعرفه كما تعرف أبناءك ، فكما أن ابناءك امتداد لشخصيتك ، تستعين بهم في حياتك ، كذلك القرآن انه من يكذب بالقرآن ، أو يختلق لذاته كتابا كاذبا يفقد هذه القدرة الهائلة و لا ينال السعادة بتلك الاكذوبة.

و في الآخرة تتوضح الحقيقة كاملة . إذ يضل عن الكفار الشركاء فلا ترى لهم أثرا ، و آنئذ يتبرأ منهم المؤمنون و هم أيضا يحلفون بالله انهم لم يكونوا يؤمنون بهم ، و لكن هل ينفعهم ذلك اليوم هذا التبري .. كلا.

حول هذه النقاط - تتحدث آيات هذا الدرس.

بينات من الآيات

علاقة القرآن بالشخصية الانسانية:

[20]الكتاب نعمة من الله على المؤمنين ، و المؤمنون يعرفون قدر الكتاب . إذ أنه بالنسبة إليهم كما أبناءهم ، يعرفون انه حقيقة كما الأبناء حقيقة ، و أن - ملامحه ، بيناته و متشابهاته ، ناسخه و منسوخه ، بصائره و أحكامه - واضحة لهم ، كما هي ملامح أبنائهمالذين هم أقرب الخلق اليهم ، و أنه يزيدهم قوة و أملا ، كما الابناء يزيدون الآباء قوة في الحاضر ، و أملا في المستقبل ، و أهم من ذلك كله أن الابناء هم امتداد لشخصية الأب ، يجد الأب فيهم صورة ثانية من ذاته ، و مرآة لقدراته و قيمه ، و تحقيقا لارادته ، وكذلك القرآن يبلور شخصية المؤمن ، و يحقق ذاته ، و يصبح اذا عرفه الانسان صورة عن قيمه و تطلعاته و مستقبله.

من هنا فان الكفر بالقرآن يساوي الكفر بالشخصية الانسانية ، و بالتالي يعني خسران الذات و فقدانها ، انك حين تفقد - لا سمح الله - ابنك تشعر و كأنك قد خسرت جزءا من ذاتك ، بيد أنك حين تكفر بكتاب الله فأنك تخسر نفسك أيضا.

]الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذي خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون]ولكن كانوا أنفسهم يظلمون:

[21]حين يكذب المرء بأيات الله لا يعيش في فراغ ، بل يبحث عن أراجيف يؤمن بها و كأنها آيات من الله ، بل و يبدء المرء في خلق الاراجيف ، أو تقليد آبائه أو مجتمعه في الايمـــان بها ، و افترائها على الله ، ثم يكفر بآيات الله الصحيحة ، و بذلك يكون أظلم الناس ، اذ قد يكون مجمل سلوك الشخص صحيحا ، و لكنه ينحرف في جانب من حياته ، أو في بعض الاوقات فحسب ، أما من يتخذ مسيرة منحرفة و يؤمنبنهج خاطىء ، فانه لا يخطو خطوة الا و يبتعد عن الحق بقدرها ، و يظلم نفسه و الآخرين ، و اذا كان الظالم ل ايسعد بالظالم فكيف بهذا الذي يبني كل حياته على الظلم من بدايتها حتى نهايتها ؟!

]و من أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون [22][الحق تعيش عليه ، و الباطل يعيش عليك ، فانت الذي تصنع الباطل ، و تجهد نفسك في الدفاع عنه ، و لكنه يزول دون ان ينفعك في ساعة العسرة ، بينما الحق يبقى ينصرك دون عناء منك.

و عندما تبلى السرائر في يوم القيامة و تتعرى الحقائق . آنئذ تكتشف ان الباطل يضيع عنك ، فلا تجد له أمرا - و كذلك كان في الدنيا - إلا أن أهل الباطل يخلقون الباطل بأساطيرهم و بخيالاتهم ، فيزعمون : انه موجود فعلا ، كما لو أنك ترى سرابا في الصحراء تحسبهماء ، و انما هو سراب ، لا وجود له إلا في بؤبؤة عينيك.

]و يوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركآؤكم الذي كنتم تزعمون]فيلتفت المبطل يمنة و يسرة فلا يجد لهم أثرا..

[23]آنئذ يتراجع عن شركائه ، و يحلف بالله : انه لم يتخذهم بديلا عن اللـــه و عن الحــق!

]ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا و الله ربنا ما كنا مشركين]هكـــذا خدعوا و ضلوا و أضلوا . هذه كانت نتيجة ضلالتهم و فتنتهم و خداعهم . إنهم يتبرؤون من الشركاء . إذا لماذا لا يتبرؤون عنها اليوم . و قبل فوات الوقت ؟!

[24]و كانت عاقبة هؤلاء أنهم كفروا بالباطل الذي كانوا يؤمنون به ، و حلفوا الايمان المغلظــة أنهم لم يكونوا - حتى في السابق - يؤمنون به ، أما الباطل فقد ضل عنهم ، و لم يبق له أثر.

]أنظر كيف كذبوا على أنفسهم [

بالامس كانوا متحمسين للباطل ، و الآن ينكرونه ، و يكذبون على أنفسهم بهذه الافكار.

]و ضل عنهم ما كانوا يفترون [

دعنــا إذا لا نخلق أصناما نؤمن بها ، ولا نفتري على الله أفكارا باطلة ندان بها.

حينما تكون القلوب في أكنة

هدى من الآيات

في سياق الآيات التي توضح عوامل الكفر النفسية ، يأتي هذا الدرس ليبين : أن مجرد الاستماع الى الحق لا يكفي للايمان به ، اذ ان المهم هو قلب الانســـــان الــذي لو لم يزك من عوامل الانحراف فان أذنه تثقل ، و عينه لا تبصر ، و لسانه لا يـــلهج الا بالجدل و البهتان - فمثلا - لا يفرق صاحب القلب المريض بين الرسالة الجديدة ، و بين الاساطير القديمة ، و هؤلاء لا يبتعدون عن الحق فقط ، بل و ينهون الناس عنه و هم لا يعرفون قيمة الحق ، و أنه يساوي أنفسهم.

وفي يوم القيامة يدين هؤلاء أنفسهم على فعلتهم السابقة و التي تمثلت في الكفر بالحق بالرغم من وضوحه أمامهم ، ولو ردوا الى الدنيا لعادوا الى كفرهم ، و السبب هو ان الكفر ليس نتيجة غموض في الحق ، أو عدم صحة آياته ، بل هو نابع من مرض في قلوبهم وما دام المرض موجودا فان التوبة الظاهرية لا تكفي.

بينات من الآيات

العوامل النفسية للكفر:

[25]بالرغم من ان الانسان يملك العقل و السمع و البصر ، و بالرغم من أن آيات الحق و علاماته و دلائله واضحة للعقل ، فان ذلك لا يكفي في ايمان الشخص بالحقيقة ، اذ أن هناك إرادة حرة فوق العقل ، توجه العقل و الاحساس ، و في الطرف الآخر هناك النفس البشريةالمليئة بالعواطف و العقد و الأمراض . من حب الذات ، الى الاهتمام بالمجتمع ، الى الاسترسال مع التقاليد.

فاذا اختار البشر بارادته الحرة جانب النفس و أهوائها و عقدها و تقاليدها و امراضها ، فانها سوف تلغي دور العقل عنده ، و تسد منافذ الاحساس لديه ، و تغلف قلبه بكثافة حتى لا يتسرب اليه نور الحقيقة.

]و منهم من يستمع إليك و جعلنا على قلوبهم أكنة ان يفقهوه]اذ ان الاحساس وحده لا يكفي ، فقد تسمع آية ولكنك بحاجة الى قلب متفتح حتى تؤمن بها ، فمثلا انك بحاجة الى عدم الأيمان المسبق

بكذب الآية ، والا فانك لا ترى حاجة للتفكير فيها ، و بحاجة الى سكينة نفسية ، و هدوء داخلي يسمح لك بالتفكير في الآية ، و كل ذلكغير موجود عند الكافر.

بل قد يتسبب الكفر في أن يتبلد احساس الشخص ايضا ، فيشعر أن في اذنه وقر ، و في عينيه ضعف ، اذ ما دام القلب مغلق عن فهم الحقيقة ، فانه لا يشعر بحاجة الى استخدام الاحساس.

]و في اذانهم وقرا[

أي ثقلا لا يمكنهم ان يسمعوا بوضوح.

]وإن يروا كل أية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا إلا اساطير الأولين]ان القلب المغلق يجعل أحاسيسه في خدمة انغلاقه ، و أفكاره الميتة ، فالأذن تثقل عن سماع الحقيقة ، و العين تعمى عنها ، و اللسان يجادل و يغالط فيها.

[26]الحق هو ضمان حياة النفس ، و تحقيق الذات يتحول في عين هؤلاء الى بعبع ينهون الناس عنه ، و يبعدون عنه بأنفسهم ، و بذلك يخسرون ما به حياتهم و شخصيتهم و استمرار كيانهم.

]و هم ينهون عنه و ينأون عنه و إن يهلكون إلا أنفسهم و ما يشعرون]لا يشعرون أي خسارة كبرى تلحقهم بابتعادهم عن الحق.

على شفير الهاوية:

[27]و حين يمـــس المكذبون العذاب يدركون مدى الخسارة التي لحقتهم بترك الحق.

]و لو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا و نكـون من المؤمنين]حين يشتد المرض بابنك البكر ، و يشرف على الهلاك ، يعمل آنئذ فكرك بسلامة بعيدا عن مؤثرات الخطأ فمثلا : آنئذ لا تفكر في أن الدكتور القريب من بيتك صديقك ، و أنك تستحي منه ، و لهذا تفضله - مثل سائر الاوقات - على غيره من الأطباء ، ولا تزعم أن طبيب الأسرة الذي تعودت عليه خير من غيره ، ولا تنظر الى أقوال الناس فتتبعهم بالرغم من علمك بأنهم لا يعقلون ، بل تبحث عن طبيبحاذق يخرج مريضك من دائرة الخطر حتى ولو كان عدوك ، فأنك تذهب اليه صاغرا ذلك لانك آنئذ تبحث فقط و فقط عن الحقيقة .بعيدا عن أي اعتبار آخر.

[28]و حين يشافي الله ابنك من المرض الخطير ، فان كل تلك الاعتبارات السخيفة تعود اليك . لماذا ؟ لانها راسخة في ذهنك ، وما استطعت أن تنظف نفسك من آثارها ، كذلك حال الكفار حين يقفون على النار يتمنون لو يعودون الى الدنيا ، فيصححون أخطاءهم ، و لكن هل يفعلون ذلك . كلا.

]بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل[

أي ظهرت لهم الحقائق التي أخفوها عن أنفسهم و عن الناس تعمدا.

]و لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه و إنهم لكاذبون[

إذ ان نفوسهم مريضة و لا تزال تعاني من انغلاق ، فلا بد إذا من تطهيرها ، و فتح منافذها على نور الحقيقة.

حينما يقصر النظر

هدى من الآيات

إن النظرة القاصرة التي تحصر حياة الانسان بالدنيا . إنها مسؤولة الى حد بعيد عن كفر الانسان بالحق ، و فوق ذلك ان أمام عين البشر غشاوة من زينة و شهوات تمنعه عن الايمان بالآخرة ، و لكن ألا يتصور البشر انه غدا حين يواجه الحق بكل عنفه و قدرته و هيمنته ،فماذا يمكن ان يفعل حين يقف أمام الله ليرى النار اللاهبة ؟! حينها يندم على تكذيبه في الدنيا للقاء ربه في الآخرة ، و حينها يجر آهات الحسرة على ماضيــه الذي خسره ، و يثقل ظهره بذنوبه

بينات من الآيات

[29]دعنا نعقل الحقيقة قبل فوات الأوان . الحقيقة هي ان الدار الدنيا ليست سوى لعب و لهو و ما الحياة الحقيقية إلا في الآخرة لمن اتقى ربه من هنا قال ربنا سبحانه:

]و قالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا و ما نحن بمبعوثين]و هذه كما سبق - و ان قلنا - أصل الفساد الفكري عند الانسان..

كيف تستوعب الغيب ؟

[30]اذا قــدمت اليك تفاحة ، فـأردت أن تعرفها جيدا ، فلابد أنك تقلبها من أطرافها ، و اذا فكرت في شراء بيت فانك تتفقد جميع جوانبه ، أما إذا أردت التعرف على حادثة اجتماعية أو ظاهرة طبيعية ، فان عليك أن تبحث عن مبتدئها و نهايتها ، عن أولها وآخرها ، فلرب حادثة أولها خير وعاقبتها شر ، و لرب ظاهرة تبدء نافعة و تنتهي ضارة مفسدة ، و العكس صحيح ، كذلك الحياة لا تعرف بنيانها ، و مرسى سفينتها ، و ساعة قيامتها ، و كل حادثة أو ظاهرة تدخل ضمن اطار الحياة تقاس هي الاخرى بهذا الميزان . أي بنهاية الدنيا . ذلكان مصير ركاب السفينة متعلق بمصير السفينة . كذلك سفينة الحياة تتعلق بها كل الحوادث التي تقع ضمنها.

و القرآن الحكيم يدعنا أبدا نتصور نهاية الحياة لنعرف بدقة أكثر ذات الحياة ، وما بها من احداث ، و بالتالي ليكون لدينا مقياس نستطيع أن نحكم بسببه على الاحداث حكما سليما.

والسؤال : لماذا يستخدم القرآن أسلوب التصوير في هذا الجانب ؟.

الجواب :لأننا من الناحية العلمية قد نكون مقتنعين بالغيب و بالعاقبة أو حتى بالقيامة و لكن ثقل الشهود و حضور الأحداث و الظواهر التي نعايشها الآن تمنعنا عــن التوجه الى الآخرة ، و هنا نحتاج إلى قوة التصور لنعبر فوق جسره إلى شاطئ الغيب ، هناك حيث لايثقل أحاسيسنا حضوره الفعلي ، لذلك تجد القرآن يقول هنا:

]و لو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى و ربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون]انك حيــن تقف فوق تل مشرفا على رابية ، يمتد بصرك إلى ابعاد الرابية و أطرافها ، و تصبح و كأن الرابية ورقة في يدك.

و في يوم القيامة حين نشهد آيات ربنا ، هنا جهنم تلتهب نارا و عذابا ، و هنالك الجنة تنبسط بنعيمها و جمالها ، و هنا الميزان الحق ، و هناك الكتاب الذي أحصى كل شيء . آنئذ نقف على ربنا ، و تكرهنا القضايا الساخنة على الايمان به ، و يستشهدنا الله على نفسهتعالى : قال أليس هذا بالحق ؟! قالوا : بلى و ربنا . قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . إنه الحق الذي سوف نضطر الى الايمان به يوما ما ، فلماذا لا نؤمن به الآن حتى ينفعنا ايماننا ، لماذا نكفر به ، لنذوق العذاب اذا ؟

شيء من الواقع:

[31]ان التكذيب بالمعاد يشوش على البشر رؤية الحقائق في الدنيا ، و يدفعه الى التكذيب بالحقائق

جميعا ، و يكون مثله كمن يكذب بالموت و يرى أنه لن يموت ، فهو يكذب بآثار مرض السرطان ، يتورم جسمه فيقول : كلا انه لا يدل على الموت المرتقب ، .يتألم جسمه ويحرقه ، ولكنه يصر قائلا : ليس ذاك دليلا على الانتهاء ، فيؤكد له الدكتور و سائر العقلاء ذلك ، ولكنه يصر مستكبرا على قوله . ذلك لأنه لم ينظم زاوية فكره وفق الموت الحق ، فاختلطت عليه الحقائق جميعا . كذلك الذي لا يؤمن بلقاء الله يكفر بكل شيء حتى يخسر نفسه نهائيا.

]قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم]وزر التكذيب بالآخرة ، و وزر الاعمال السيئة التي ارتكبوها بهذا السبب.

]الا ساء ما يزرون. [

كيف تحدى الرسل اعراض الجاحدين ؟

هدى من الآيات

لكي يبقى المؤمن جبلا أشما يتحدى الصعاب ، لابد أن يعرف حقيقة الدنيا التي ما هي سوى لعب و لهو ، أما دار الاقامة الدائمة فهي الآخرة ، و من ذلك أن قلب الرسول يجب ألا يتأثر بسبب كفر المشركين الذي يجحدون بآيات الله حين يكذبون به ، و هــدفهم ليس الـرسولبقدر ما هو الحــق و الايمــان ، و كما يكذب الظالمــون اليـوم بالــرسول فأن رسل الله السابقين قد كذبوا ايضا ، و لكنهم صبروا حتى آتاهم نصر الله.

و هل هناك حيلة أخرى للرسول في الامر . هل يسلك نفقا في الارض ، أو يصعد بسلم الى السماء ليأتيهم بآية ، و لو فعل ذلك فهل ينفعهم ؟! علما بأن الله لا يريد أن يجبرهم على الهدى ، و لو شاء لفعل ذلك بقدرته التامة.

بينات من الآيات

واقع الحياة و حقيقة الآخرة :

[32]هل نستطيع ان نحدد هدفا معقولا للحياة الدنيا لو لم نجعلها مقدمةللآخرة ، و عموما هل نستطيع ان نخطط لهذه الحياة التي تنتهي في أية لحظة ، و ربما دون تحذير مسبق ، و تتفاعل فيها عوامل و مؤثرات غير محدودة ؟

ان كانت الحياة الدنيا تمهيدا للآخرة ، و دورة تدريبية لتكامل البشر ، لاعداده لدخول الجنة خالدا فيها ، فان كل ما فيها سوف يصبح معقولا و حكيما ، و تكون الآخرة لا الدنيا هي الدار الدائمة للاقامة ، و لكنها لا تكون الا لمن اتقى في الدنيا.

]و ما الحياة الدنيا إلا لعب و لهو[

اللعب هو العمل بوعي و هدف ، و لكن دون هدف حكيم ، اما اللهو فانه من دون وعي أو هدف.

]و للدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون[

العقل يحكم بان الدنيا ليست بدار الاقامة ، و أنها ليست هدفا نهائيا للبشرية.

لماذا الحزن ؟

[33]اذا كانت الدنيا قاعة امتحانات يتخرج منها المتقون بنجاح ، و يستلمون شهادة الايمان ، و بطاقة دخول الجنة ، فعلينا الا نحزن على الظالمين الذين يعادون الرسول ، و قبل الرسول يعادون الحق ، و يجحدون بآيات الله ، و بالتالي يظلمون أنفسهم فلماذا نحزن عليهم ؟!

]قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون[

من التكذيب بك و برسالتك ، و لكن مهلا.

]فأنهم لا يكذبونك و لكن الظالمين بآيات الله يجحدون]مع علم مسبق بانه حق ، فالحزن عليهم لماذا ؟!

[34]و للرسول في الرسل السابقين اسوة حسنة ، فكم قد كذبوا و كم أوذوا ، و لكنهم صبروا حتى جاءهم نصر الله ، و تلك هي سنة الله لا تبديل لها ، و تلك هي كلمته التي لا تبديل فيها و ها هي أنباء الرسل تذكر للرسول في القرآن ليتخذ منها عبرا كافية.

]و لقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا و أوذوا حتى آتاهم نصرنا و لا مبدل لكلمات الله]و منها هذه الكلمة أن صاحب الرسالة حين يتعرض للصعاب و يصبر ، فأن الله ينصره بالتالي.

]و لقد جاءك من نبإى المرسلين[

[35]و ماذا يمكن ان يفعله الرسول ما دام الظالمون يجحدون بآيات الله بعد اليقين بصدقها ظلما لانفسهم ، فهل يسلك طريقا في الارض خارقا للعادة ، أو يصعد الى السماء بسلم ، ثم يأتيهم بآية ، أو ليست الآيات الهابطة كافية لهم لو كانوا يريدون الايمان بالله وبرسالاته ؟!

]و ان كان كبر عليك إعراضهم [

و كان ذلك عظيما في عينك.

]فان استطعت ان تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية]اي تفتش عن طريق تحت الارض أو فوق السماء من أجل الحصول على آية خارقة لكي يؤمنوا بها ، فان استطعت أن تفعل ذلك فافعل ، فهل فيها فائدة ؟

نعم هناك سبيل واحد لهداية هؤلاء ، و هو أن يجبرهم ربهم على الهدى ، و لكن هل يفعل ربنا ذك ؟ كلا .. لأنه لو شاء لفعل ذلك بأهل الأرض جميعا..

]و لو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين]الذين يريدون تحقيق شيء معين بالرغم من سنن الله و حكمته ، و أنظمة الكون التي جعلها الله ، ان عليك ان تتحرك في حدود هذه السنن القائمة ، و الانظمة السائدة في الكون.

هكذا استجاب من سمع ، و ضل الصم البكم

هدى من الآيات

حين يعطب جهاز الاستقبال ، فان كثافة الامواج لا تزيده الا عطبا ، و حين يموت قلب الانسان فان المزيد من الدلائل لا تنفع صاحبها . انك ترى الكفار يطالبون بالمزيد من الآيات ، و المشكلة ليست في قدرة الله على أن ينزل المزيد منها ، و لكن المشكلة في فائدةالآيات للذين تعطل عندهم جهاز الفهم ، ان نظرة واحدة الى الحياة و ما فيها من دابة ، أو طائر في السماء لا فرق تكفينا دليلا على عظمة الخالق ، حيث أنها جميعا تسير وفق نظام اجتماعي معين ، و تنتهي الى الله ، ولكن هل تكفي هذه الآيات العظيمة لآولئك الذين فقدوا القدرة على التعبير لانهم فقدوا السماع و التفاعل مع الحياة الحقيقية ؟! انهم صم بكم يعيشون في ظلمات الجهل و الجهالة ، لان الله سلب منهم نعمة العلم و الهداية (بعد ان رفضوا الانتفاع بهما (فتاهوا في صحراء الضلالة ، أما الصالحون فقد هداهم الله الى الصراط المستقيم الذي يسير بهم الى أهدافهم السامية من أقرب الطرق.

بينات من الآيات

عندما يعطب جهاز الاستقبال:

[36]لقد زود الله عباده جميعا بالفهم ، فالكل زود مثلا بالسمع ، و لكن البعض منهم فقط هو الذي يسمع . أي ينتفع بوسيلة السمع ، لانه يريد ذلك ، و حين يسمع المرء نداء ربه الى الخير يستجيب لهذا النداء ، فيعمل بما يأمره الله ، أما حين يموت القلب و تسترخيالارادة ، و يتعطل جهاز السمع ، فأن الأمل مفقود في هداية الانسان آنئذ . الا اذا شاء الله ذلك بمشيئته الخارقة لسنن الطبيعة ، و لكن هل يفعل ذلك ربنا في الدنيا . أم أن الله إنما يهدي الناس للحقائق بهذه الصورة في الآخرة حين يحشرهم جميعا ليحاسبهم . آنئذ لاتنفع الهداية شيئا.

]إنما يستجيب الذين يسمعون و الموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون][٣٧] و لا يزال الكفار يطالبون بالمزيد من الآيات ، و الله قادر على أن يستجيب لطلبهم ، و لكن ماذا ينفعهم ما داموا فاقدين لجهاز العلم ؟!

]و قالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية]كما أنزل الآيات السابقة ، بيد أن المشكلة ليست في قلة أو كثرة الآيات ، بل في العلم بها ، فلو كانت عين الفرد عمياء .. فهل تنفع إضاءة المزيد من المصابيح.

]و لكن أكثرهم لا يعلمون[

[38]و الدليل على ان العبرة ليست في زيادة الآيات ، بل في العلم بها و ادراك ما وراءها من حقائق .. الدليل الأحياء الذين لو أمعنت النظر في حياتها لرأيت أمة مثل البشر ، لهم نظامهم و علاقاتهم و أهدافهم في الحياة ، ثم إنهم كما البشر يحشرون الى ربهم ، أفلا تكفي تلك الآيات العظيمة ، و لكن قليلا من الناس يفهمون هذهالآيات ؟! لذلك يقول ربنا:

]و ما من دابة في الأرض[

اي ما من متحرك من الأحياء ، النملة و أصغر منها ، و الفيل و الحوت و أكبر منهما.

]و لا طائر يطير بجناحيه[

اي كل طائر في السماء ، و انما ذكرت كلمة يطير بجناحيه هنا للدلالة على التعميم ، كما ذكرت كلمة في الارض هنا لنفس السبب.

]إلا أمم أمثالكم[

إلا أمم مثل سائر الأمم البشرية ، لها انظمتها و قوانينها ، و سيدها و مسودها.

]ما فرطنا في الكتاب من شيء [

ان الكتاب هو كتاب الله ، و الله لا يبالغ و لا يتطرف في كلامه ، بل ان كلامه تعبير دقيق عن الحق دون زيادة أبدا ، لان الحق الذي خلقه الله ، و يعلم أبعاده أكبر بكثير من المقدار المناسب لفهم الانسان ، على ان فهم الانسان عظيم ، و ان هذه الأمم تسير وفق نظام قدرة الله في الدنيا أما في الآخرة:

]ثم الى ربهم يحشرون[

و الذين كذبوا في الظلمات:

[39]هذه آيات الله منتشرة في الكون ، فمن ينكرها و من يكذب بها ؟

انما يكذب بها من فقد تفاعله مع الحياة . فهـــو أصم و أبكم يعيش في ظلمات لايرى شيئا.

]و الذين كذبوا بآياتنا صم و بكم في الظلمات[

الظلمات هنا هي : الجهل و الجهالة و الشهوات ، و كل واحدة منها حجاب بين الانسان و بين الحقيقة ، و الله سبحانه هو الذي يزود الأنسان بنور الهداية ، و مستحيل أن يصل الانسان الى الهداية من دون التوسل به.

]و من يشأ الله يضلله و من يشا يجعله على صراط مستقيم[

هكذا ترفع المآسي حجب الضلال

هدى من الآيات

في الدرس السابق ذكرنا الله بأن النقص ليس في آيات الله ، بل في فهم الآيات و الاهتداء عن طريقها الى الحقيقة ، و في هذا الدرس يبين القرآن : كيف أن البشر قد تتطور حالته ، فيصلح جهاز الاستقبال عنده ، فيهتدي بهذه الآيات التي كان يكفـر بها سابقا ، يهتديبها ذاتها الى الله مما يدل:

أولا : على أن الخلل كان من عند البشر نفسه.

ثانيا : على أن الانسان كان مخطئا تمام الخطأ حينما كفر بربه . و لكن متى تتطور حالة الانسان ؟

تتطور حالة الانسان عندما يواجه الحقيقة عارية ، و بلا غموض في حالات مواجهة شدائد الحياة ، هنالك يدعو الانسان ربه و ينسى كل أولئك الشركاء المزعومين ، و أساسا الحكمة من بعض الشدائد التي تصيب الناس هي كشفالحقائق لهم ، و إعادتهم الى فطرتهم التوحيدية النقية ، و لكن كثيرا من الأمم السابقة قست قلوبهم ، فلم تعد تتقبل حتى الصدمات القوية الاتية من الشدائد ، فلا يلبثون بعد انتهاء فترة المصيبة أن يعودوا الى عاداتهم السيئة ، و هناك يستدرجهم الله الجبار ببعض الرخاء حتى يفقدوا كل ما عندهم من وجدان و ايمان و هناك يأتيهم العذاب المدمر ، الذي يقطع دابرهم و ينهي حياتهم.

بينات من الآيات

و تنسون ما تشركون:

[40]جاء رجل الى الامام الصادق عليه السلام . يقول : يابن رسول الله دلني على ربي . فقال الامام : يا هذا هل ركبت البحر ؟ قال : نعم ، و هل انكســـرت بك السفينة ؟ قال : نعم قال : هل تعلق قلبك بشيء حيث لا سفينة تنجيك و لا سباحة تغنيك ؟ قال : نعم ، فقال له الامام : ذلك هو الله.

فـــي الحالات العادية ، تتراكم ظلمات الغفلة و التكبر و الجهل حول فطرة البشر ، اما حين يجد الجد ، و يواجه الخطر الحقيقي ، آنئذ تنحسر الظلمات من حول القلب ، و يتوسل الانسان بربه (الحق) دون غفلة أو تكبر أو جهل.

]قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين]عذاب الله المتمثل في الشدائد ، و الساعة المتمثلة في الخطر.

ان كل واحد منا يمر بمثل هذه اللحظات الصعبة التي يكتشف فيها ربه ، و لكن بعضنا فقط يبقى يتذكر تلك اللحظات بعدئذ.

[41]نعم هناك يدعو الانسان ربه ، و يستجيب الله دعاءه ، حينما تقتضيالحكمة ذلك.

]بل إياه تدعون[

يعني تدعون الله فقط دون غيره من الشركاء.

]فيكشف ما تدعون اليه[

حين تدعون الله و تتوسلون اليه لبلوغ الهدف.

]أن شاء[

الله حسب حكمته ينقذكم ، مما يدل على ان الله لا يحتم عليه الدعاء ، و لا يؤثر فيه ، بل برحمته و حسب حكمته يفعل ما يشاء.

]و تنسون ما تشركون[

ما تشركون به من أهواء ، و قوى مادية شريرة ، فالانسان يعبد أهواءه ، يعبد شهوة الراحة في ذاته ، شهوة النزوه ، و الجنس و الخلود ، ثم يزعم أن قوى الطاغوت توفر له هذه الشهوات ، فيعبد تلك القوى و يصنع لها رموزا مثل الاصنام و ما أشبه ، و ربما لذلك عبر القرآن الحكيم هنا بكلمة (ما (للدلالة على ان ما تشركون به الله هو من الأشياء التي لا تعقل ! و هي تعود بالتالي الى شهوات الانسان ، تلك الشهوات انما يخضع لها البشر ، و يخضع لمن يملكها لأنها - في زعمه - تنفعه ، و تحافظ على وجوده و كيانه ، و تحقق تطلعاته، فأذا جد الجد عرف أن كل تلك الشهوات لا تنفعه شيئا ، و انما خالق البشر و مقدر أموره و مدبر شؤونه هو الذي يكشف ضره ، فينسى كل تلك الشهوات و يتوب الى الله سبحانه.

حكمة الشدائد:

من الشدائد البسيطة و حتى الآلام ، التي تصيب البشر هي توعيته بحقائق الأمور بدءا من الشدائد البسيطة و حتى الآلام و إلى أن يصل إلى العذاب فالساعة ، فمثلا الحكمة من الأحساس بالجوع هو التفتيش عن مصدر الغذاء ، و التحرك إليه ، و من خلال الأحساس و التفتيش و التحرك تنفتح أمامك أبواب المعرفة ، و لو لم يكن البشر يحس بالجوع إذا لما كان يعرف جزء كبيرا من الحياة و لم يكن يعرف الزراعة و الري و الصيد .. الخ ، و كلما كان حصول البشر على الغذاء أسهل كلما كانت معرفته بالحياة أقل ، و الألم يجعلك تحس بالحياة بشكل أعمقمن ذي قبل إنك لا تعرف أساسا موقع كبدك أو كليتك أو حتى قلبك إلا بعد أن يتألم هذا العضو أو ذاك ، و عندئذ تتحسس ليس فقط بوجود العضو ، و إنما بأهميته أيضا ، و تتشبث به أكثر.

أن المريض أشد تعلقا بالحياة ، و أرهف أحساسا بأهميتها من غيره ، و الشدائد في الحياة تكشف نقاط ضعف الانسان . سواء الفرد أو الامة ، مثلا . الهزيمة تكشف عيوب الامة اكثر مما يكشفه ألف كتاب وكتاب.

و لذلك يذكرنا القرآن هنا ، بأن الهدف من اصابة الانسان بالمشاكل ، هو نفس الهدف من بعث الرسالات و الرسل ، ان الهدف من الرسالة هي توعية الانسان بحقيقة العبودية المطلقة التي يعيشها ، و التي هي في الواقع مفتاح صلاح الانسان و قدرته و رفضه الخضوع للجبت والطاغوت ، و كذلك الهدف من الشدائد.

]و لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأسآء]بالشدائد الآتية من ظلم الناس لبعضهم.

]و الضرآء[

بالشدائد التي مصدرها غضب الطبيعة . إنما أخذهم الله بذلك بعد بعث الرسل ،و ربما بسبب عدم انتفاعهم بالرسالات.

أما الهدف فقد كان:

]لعلهم يتضرعون[

[43]و بالرغم مما أخذهم الله به من العذاب فأن أولئك الذين قست قلوبهم ، و لم تستوعب دروس التجربة المرة ، عادوا بعد النكبة الى سابق أعمالهم و عاداتهم السيئة.

]فلو لا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا[

اي لماذا لم تلن قلوبهم ، و لم تعد الى حالتها العادية ، حيث تتأثر بالتجارب بعيدا عن نزوة الغرور ، و ظلام التكبر.

]و لكن قست قلوبهم[

و لم تتفاعل مع الحياة ، و انغلقت على مفاهيم ثابتة جامدة و صخرية ، و السبب قد يكون هو التمحور حول الذات ، و عدم الالتفات الى الحق ، و حين تكون النقطة المركزية في حياة الانسان هي ذاته ، تصبح حياته بعيدة عن التطور ذلك لأن كل عمل يقوم به الشخص يصبح حسنا لا بشيء ، و انما لأنه هو الذي عمله ، و حتى لو عمل هذا الشخص عملا من دون وعي ، فأنه سوف يقدسه لأنه صدر منه ، و نسب الى ذاته ، و هذا هو الذي يجعلك تحتفظ بالعادات السيئة ، فاذا بك متعصب لها لانها من صنع ذاتك .

]و زين لهم الشيطان ما كانوا يعملون[

و لكن على البشر أن يعرف : أن الاعمال السيئة ليست جزءا من ذاته ، و لاتصبح كـذلك حتى و لو صدرت هذه الاعمال منه ، لان الانسان قد خلق في أحسن تقويم ، و انما الاعمال السيئة هي من عمل الشيطان و من وحيه ، و مما يزينه للانسان.

اشراط العذاب:

[44]لقد أتم الله حجته على هذه الفئة ، أرسل اليهم رسالة و رسولا ، و اخذهم بالبأساء و الضراء ليكون ذلك رسالة واقعية وعملية لهم ، و لكنهم لم ينتفعوا بواحدة من الحجتين .. و ها هي ساعة العذاب ، فكيف يعذبهم الله ؟

إن الله يمهد للانتقام بفتح أبواب الرزق عليهم من كل صوب ، ثم حين يصلون الى مرحلة الاشباع التام ، و لا تبقى في قلوبهم ذرة من ايمان يأتيهم العذاب فجأة.

]فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء]مما تصوروا انه خير لهم ، ولم يكن خيرا ، بل هو شر عظيم ، ففتح الله عليهم أبواب الطعام ، و الجنس و الشهرة ، لانهم لم يتقيدوا بشيء اسمه دين أو ضمير أو نظام ، بل أخذوا يتمتعون بما في الحياة من دون قيد أو شرط . أسرفوا في كل ما هو لذيذ . طيبا كان أو خبيثا ، وأسرفوا في الجنس مشروعا كان أو شذوذا ، و أسرفوا في التظاهر بالصلاح أو الفساد ، و لكن الى متى تبقى موارد الطعام و الجنس و الشهرة ، و كم هي قدرة البشر على استيعابها ؟! بالطبع أن هناك حدودا تنفذ عندها موارد الطبيعة ، و تنهك قدرة البشر على استيعابها، و هي التي نسميها مرحلة الاشباع ، و التي تنعكس على النفس في حالة (الفرح) أي الشعور بالكمال و الغنى و الاشباع ، و عندها يكون السقوط المفاجئ.

]حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون]و يكون السقوط المفاجئ نتيجة تراكمات الاسراف الدائم ، و لكن لحظةالسقوط لا يشعر بها المغرور الفرح الا بعدئذ . لذلك عبر القرآن عن حالتهم : بأنهم كانوا آنئذ مبلسين ، و كانوا في ظلام دامس.

أن مثل الامة مثل الشاب الذي يسرف في - الطعام و الشراب و الجنس و البطش و الفساد - و يستمر لفترة من الوقت حتى يشعر بأن كل لذائذ الدنيا في متناول يده ، و هو لا يدري أن أنواعا من المرض قد احاطت بجسده ، و أن سحبا داكنة من حقد المظلومين ، و أنصار الحقتقترب منه ، و في لحظة سوداء ، و ربما و هو جالس على مائدة الشراب ، و لذائذ الطعام ، و الى جانبه فتيات الحب ، و غلمان الشذوذ ، و هو في غمرة من الفرح و الاشباع ، فاذا بالشرطة تداهم بيته ، و اذا به يشعر بأنواع الألم و هو في غياهب السجون ، و إذا به في موقعلعنة الناس جميعا ، وأخيرا يسلم الى حبل المشنقة غير مأسوف عليه.

كذلك الامة التي تنفلت من قيود الدين و الاخلاق ، و تعمل بالظلم و البطش و تسرف في كل شيء ، انها تشعر بالغرور و الكبرياء ، و لكن في لحظة واحدة يهجم عليها عدوها فيهزمها شر هزيمة ويذيقها الأمرين.

[45]و حيـــن تنتهي هذه الجولة ينحسر غبار المعركة عن أمة سادت ثم بادت ، و لم يبق منها سوى الذكر السيء.

]فقطع دابر القوم الذين ظلموا و الحمد لله رب العالمين]و هذا الحمد ، هو حمد الناس حين يشعرون بأن كابوسا عظيما ارتفع عنهم ، و هو حمد الناس حين يعرفون أن رحمة الله هي التي أنقذتهم من هذا الكابوس بفضله العظيم.

و لولا رحمة الله الذي أجرى هذه السنة الحكيمة إذا لبقيت الجماهير ترزح تحت نير الطغاة.

هل يستوي الأعمى و البصير
هدى من الآيات

ان اللـــه سبحانه خلق الحياة و جعل فيها الظلمات و النور ، و العذاب و المغفرة ، و الشقاء و الرفاه ، ثم اعطى البشر مصباح العقل ليهتدي به الى سبيل النور و المغفرة ، و الرفاه ، و في وسع ربنا القدير أن يسلب نعمة العقل ، فيتخبط البشر في سبـــل الحياة ،كما أنه قادر على أن ينزل عليه العذاب جهرة دون أن يملك البشر له ردا.

و لكن الله برحمته الواسعة لم يكتف بنعمة العقل ، بل بعث انبياء مبشرين و منذرين و وعدوه بأنه ان آمن فان مصيبات الحياة لا تصيبه ، و إلا فان عذاب الله سوف يمسه و يشبع أحاسيسه ألما و رعبا.

و عند هذه النقطة تنتهي وظائف الانبياء ، فأنهم لم يأتوا ليتخذوا قرارات بديلا عن الناس ، أو يكرهوا الناس على اتباع الحق ، أو ليوفروا لهم الخير ، كلا . بل انما جاؤوا ليساعدوا الانسان على الرؤية السليمة ، ثم يكون هو المسؤول عن ذاته . و علاقة هذا الدرسبما مضى هو بيان أن : الضراعة الى الله لا تختص بحين نزول المصيبة ،

بل نحن بحاجة الى الضراعة الى الله في كل حال.
بينات من الآيات

اسباب الهداية:

[46]لكي نصل الى الغاية - أية غاية - لابد ان يتوفر لدينا شرطان:

الاول : أن يكون أمامنا سبيل معبد ينتهي الى تلك الغاية.

و الثاني : ان نملك الرؤية الكافية التي نكشف بها ذلك السبيل ، و الله هو الذي سن السنن ، وعبد السبل أمام البشر للوصول الى اهدافه النبيلة ، و هو الذي زود الانسان بالرؤية الكافية ، اما لو سلبه هذه الرؤية فأنه سوف يصطدم بالعقبات أو يقع في واد سحيق ، وليس فقط يضل الطريق.

]قل أرأيتم أن أخذ الله سمعكم و ابصاركم و ختم على قلوبكم من آله غيــر الله يأتيكم به]السمع جاء مفردا في آيات القرآن . ربما لان ما يسمعه الانسان أقرب الى العقل ، و أنسب الى المجردات و الكليات . خصوصا اذا فسرنا السمع بـ (الاقوال) التي نسمعها من الآخرين حول الحقائق ، بينما الابصار جاء جمعا في القرآن ، ربما لان ما يراه الانسان متنوعو مختلف ، و أقرب الى الواقعيات الخارجية.

و سواء ما يسمعه البشر و ينقل اليه من تجارب الآخرين و علومهم ، أو ما يراه بنفسه و يحصل عليه من علم و خبرة بصورة مباشرة ، فانهما نافذتان الى القلب أو (الدماغ) فلو ختم الله على قلب البشر ، و أزال عنه مقاييسه العقلية ، و مسبقاته الفطرية ، فماذا يبقعنده ؟ انه سوف يفقد القدرة على تعقل الاحاسيس ، و يتجمد على ما يسمعه أو يراه دون أن يستنبط منهما حقائق جديدة ، أو يستدل بهما الى ماورائهما من حقائق و واقعيات . انه آنئذ يرى شعلة النار دون أن يعقل أن الشعلة نذير الحرارة و الحرارة سبيل الاحتراق و الانتشار ، و انها لا تنشأ بلا سبب ، و ان الذي اشعل النار كانت له دوافعه و أهدافه . كلا .. إنه يرى الشعلة فقط ، و قد يقع فيها و يحترق . كذلك الذي يختم الله على قلبه . يقف في فهم الحقائق عند حد معين دون أن يصل الى الجذور البعيدة لها . يرى الفقر دون أن يعرف ان النظام الاقتصادي هو وراء الفقر . يرى المرض دون أن يعرف أن اللامبالاة في الوقاية هي السبب . يرى العجز الحضاري دون أن يهتدي الى انالطاغوت هو السبب المباشر أو غير المباشر له ، و هكذا يبقى في العذاب أبدا.

]أنظر كيف نصرف الآيات[

ان الله يبين الآيات بصورة تفصيلية و واضحة و مع ذلك:

]ثم هم يصدفون[

أي انهم بعد تصريف الآيات و بيانها تراهم يعرضون عنها كأنها لا تهمهم.

بينما لو فكروا قليلا لأدركوا أن الاله الذي يتضرعون اليه عندما تضرب سفينتهم الامواج العاتية التي تحمل في طياتها الموت ، أو عندما يلفهم التيه في الصحراء و يستبــد بهم خوف الموت ، ان هذا الاله هو الذي وفر لهم هذه الحياة الآمنة ، و أنه لو شاء لسلب الامان من حياتهم ، بل أن كل لحظة تمر بهم هي لحظة رعب ، و لولا أمان الله القادر لسلب منهم رحمته ، و آنئذ يكون أبسط شيء في الحياة سببا في هلاكهم فلماذا لا يتضرعون إلى ربهم في هذه الأوقات التي يزعمون إنها عادية ؟!

[47]أو تكون للانسان أوقات عادية ، و أخرى استثنائية ، أو لا يحتمل البشر فيكل لحظة - أن يأتيه الموت -أو ينزل عليه عذاب المرض أو المسكنة ؟! و لماذا لا ؟ أو ليست الحياة مليئة بهذه المفاجآت ، كم لحظة حملت معها رعبا و دمارا . و نحن لم نكن نحسب لها حسابا ، أو كنا نعرفها و لكن دون ان نستطيع مقاومتها ، فلماذا الغرور اذا ؟

]قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة[

بغتــة اي : مفاجأة ، مما يدل على ان علم الانسان بالحياة علما محدودا اما (جهرة (فتدل على العلن ، مما يدل على ان قدرة الانسان محدودة حتى و لو كان بالغا و شاملا.

]هل يهلك إلا القوم الظالمون[

اذا كــان عذاب الله لا مرد له ، بقدرتنا المحدودة ، اذن كيف نحصل على الامان ؟

يجيــب القــرآن على هذا السؤال و يقول : ان الله حكيم لا يعذب عباده بلا سبب .. إنما يعذب الظالمين . فأذا أحببت تجنب عذاب الله ، فبأمكانك أن تعدل و تستقيم ، و لا تظلم نفسك و لا الآخرين ، حتى تحصل على الأمان.

مهمات الرسل و واجب الناس:

[48]ثم ان الله لا يعذب الظالم مباشرة و دون أن ينذره مسبقا برسالة و رسول ، بيدأن البشر قد يخطأ في فهم دور الرسول ، فيزعم أن الرسول إنما يأتي ليكون مسؤولا بدلا عنهم ، او ليجبرهم على الهدى ، أو حتى ليؤمن لهم عمليا كل وسائل السعادة ، بيد أن الله سبحانه يفند هذا الزعم قائلا:

]و ما نرسل المرسلين الا مبشرين و منذرين[

و الهدف من بعثهم هو توفير وسيلة الامان في النفوس و في الواقع.

]فمن آمن و أصلح فلا خوف عليهم و لا هم يحزنون[

لا خوف لهم من المستقبل . مما يدل على وجود حالة السلام في أنفس الذين يملكون الايمان و العمل الصالح ، و لا هم يحزنون من الماضي مما يدل على وجود السلام في الواقع الخارجي ، حيث لا يصيبهم ما يحزنون بسببه.

[49]تعرضنا للبشارة ، أما الانذار فيتلخص في عاقبة الذين يكذبون بآياتالله ، و لا يهتدون الى الحقائق بالرغم من وجود دلائل واضحة تدل عليها ، و هؤلاء مصيرهم العذاب.

]و الذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون]و لم يقل القرآن بما كانوا يكذبون ربما لأن التكذيب قد لايكون وحده سببا للعذاب ، بل الفسق الذي ينتهي اليه التكذيب هو السبب المباشر للعذاب ، و الفســق هو تجاوز احكام الله.

حكمة الرسالات:

[50]الهدف من بعث الرسل ليس سلب المسؤولية عن الناس ، و إلقائها على عاتق الرسل ، كما كان يزعم البعض ، و قد تطرف فريق من الناس فزعموا أن أنبياء الله مكلفون بتوفير السعادة لهم و الرفاه ، و أنه لو لم يكن النبي مالكا للذهب و الفضة فسوف لا تكتمل نبوته ،بينما القرآن بين أن الهدف من بعث الرسل هو توفير الرؤية للانسان ، وعن طريق الرؤية الواضحة يكون البشر قادرا على معرفة الطريق السليم ، و حين يسير فيه يصل الى الفلاح:

]قل لا أقول لكم عندي خزائن الله[

ان خزائن الله موجودة في الارض و في الانسان نفسه.

]و لا أعلم الغيب[

إلا بقدر ما يعلمني الله بحكمته ، بل العلم يحصل لكم بالتعلم و تزكية النفس.

]و لا أقول لكم إني ملك[

حتى أقوم بالخارق للعادة الا في حدود تبليغ الرسالة ، فأنا بدوري محتاج الى الطعام و الشراب و سوف أموت.

]إن أتبع إلا ما يوحى إلي[

فما عندي هو من عند الله ، و ذلك عن طريق الوحي ، فلو كنتم أنتم أيضا تستفيدون من ذلك الوحي . إذن لاصبحتم سعداء . و لإني اتبع ما يوحى إلي فإني أسير في الحياة بصيرا ، فأعرف سنن الحياة و أتبعها ، فأسعد في الحياة.

]قل هل يستوى الأعمى و البصير أفلا تتفكرون[

و لانه لا يستوي الأعمى و البصير ، فان نعمة البصر هي أفضل نعمة ، و من أراد البصر فليتفكر ، فأن الفكر مرآة صافية.

حقيقة الايمان و ميزات المؤمنين
هدى من الآيات

من الذي يتقي ربه فيصبح صالحا ؟ إنه الذي يوجه خوفه نحو المصدر الحقيقي للخوف و هو الله . حيث يحشر إليه الانسان و حيدا ، دون أن ينفعه هنالك ما يتخذه من دونه أولياء ، أو شفعاء.

الا أن هناك رجالا يحجبهم عن الحقيقة التفاف البسطاء و الفقراء حولها ، يقولون : إما أن يطرد هؤلاء أو لا نقبل بالحقيقة ، و القرآن نهى عن طرد أهل الحق لان ذلك ظلم ، علما بأن حساب كل واحد على نفسه .

ان الله امتحن الناس في الدنيا بانواع التنافس و منها أنه امتحنهم ببعضهم فاذا بالمؤمنين المسارعين الى الحق ينافسهم المستكبرون الذين يعادون الفقراء بصفة دائمة ، و بما أن المؤمنين يبادرون الى الايمان ، فان المستكبرين يتخذون ذلك ذريعة لعدم الايمان بالله ، و على الرسول أن يخفض جناح الرحمة للمؤمنين ، و يعدهم بالمغفرة.

هذه هي الآيات التي يفصلها الله سبحانه لكي يتميز طريق المؤمنين عن طريـــق الكافرين.
بينات من الآيات

أصحاب الرسالة:

[51]ان هناك شريحة خاصة في المجتمع هي التي تستجيب لرسالة السماء ، و هم الذين يخافون من العاقبة ، فعلى الرسول أن يفتش عنهم و ينذرهم من عاقبة الضلالة دون النظر الى طبقتهم ، أو لونهم أو مستوى ثقافتهم.

]و أنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع]هؤلاء الأولياء الذين يتخذهم البشر في الدنيا قادة ، و يحتمون الى ظلالهم لا ينفعونه في الآخرة شيئا ، كما أنه في الآخرة ليس هناك من يستطيع ان يفرض على الله سبحانه ارادته ، فلا شفيع من دون إذنه ، و ما دام الله حكما مطلقا ، فيجب أن يخشاه البشر من بعد أن ينذر ، و الهدف من الخوف ليس الجمود و الانسحاب بل الهدف هو التقوى.

]لعلهم يتقون[

و هو العمل الايجابي في سبيل الخلاص من العاقبة السوء في الآخرة.

[52]و المؤمنون يشكلون حزبا و احدا مقياسه العمل الصالح ، من دون أثر اللفوارق المادية فيه ، و على الرسول ان يكون علاقات مبدئية مع افراد هذا الحزب ، و الا يطرد واحدا منهم بأي اسم كان.

]و لا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة و العشي يريدون وجهه]فما داموا متوجهين الى ربهم فان الاخطاء الصغيرة التي يرتكبونها بسبب عدم وضوح الرؤية عندهم ، أو عدم علمهم بالأحكام الشرعية فانها سوف .. تغتفر.

]ما عليك من حسابهم من شيء و ما من حسابك عليهم من شيء]ان هذه الاخطاء البسيطة لا تسجل في حسابك انت ، و ليس لأحد ان يحاسبك عليها بمجرد أنك تقربهم اليك.

]فتطردهم فتكون من الظالمين [

ان طرد هؤلاء يعتبر ظلما لهم ، و لا يبرر هذا الطرد أن بعض المؤمنين القدماء أو بعض المتكبرين ينتقدونك أو حتى يبتعدون عن الدين بهذا السبب.

حقيقة الانتماء:

[53]و التنافس بين الناس متجذر في فطرتهم حتى في الدين ، حيث يسعى كل فريق أن يكون هو الأقرب الى صاحب الرسالة ، و أن يكون الفريق الثاني الأبعد ، و لذلك فان كثير من الناس يبتعدون عن الدين فقط لهذا السبب ، لذلك حذر القرآن الحكيم من هذا الأمر و قال:

]و كذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا]فكانوا هم السابقين الى اعتناق الدين الجديد ؟!

و يجيب الله على هذا السؤال الذي يطفح بالاستنكار.

]أليس الله بأعلم بالشاكرين [

نعم ان الله من على هؤلاء بأن وفقهم لقبول الرسالة ، و لكن ليس عبثا ، بل لانهعرف أنهم أشكر من غيرهم لنعمة الرسالة ، و أي فرد كان شاكرا لله و عارفا بحق الرسالة فسوف يوفقه الله سبحانه ايضا.

[54]ان انتماء البسطاء الى الرسالة لا يعني الغض عن سيئاتهم ، بل الاغماض عن تلك السوابق ، التي ارتكبوها بجهالة ، و قبل أن يصل مستوى وعيهم و ايمانهم و تربيتهم حدا كافيا يردعهم عنها ، أما في المستقبل فليس عليهم التوبة فقط ، و انما اصلاح أنفسهم ايضا.

]و اذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم]أي انكم في أمان ، لا خوف عليكم.

]كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده و أصلح فأنه غفور رحيم]و هذه هي الرحمة التي كتبها الله على نفسه ، و هذا هو السلام ، فالاسلام يجب ما قبله ، و يبدأ الفرد معه حياة جديدة.

[55]و مع العفو العام الذي تقتضيه هذه الرحمة الربانية الشاملة ، يتميز المجرمون المعاندون عن الجاهلين . حيث أن الفرد الذي يستمر في الخيانة و الظلم ، و لا يصلح نفسه بعد العفو العام فليستعد للعقوبة.

]و كذلك نفصل الأيات و لتستبين سبيل المجرمين[

الذين يختارون طريقا غير طريق الله بعمد و سبق إصرار.

دور الرسل في مسيرة التوحيد
هدى من الآيات

لكي لا يحجب التنافس الشخصي طائفة من الناس عن الايمان بالله ، اوضح الدرس السابق ، ان استقبال الرسول للمؤمنين المبادرين لا يجب ان يكون متأثرا بانتماءاتهم السابقة أو طبقتهم أو ما اشبه ، إنما بسبب الايمان وحده ، و لذلك فلا داعي للقلق ، و في هذه الآياتبين في القرآن الحكيم : إن الدعوة إلـى الرسالة ليست دعوة إلى شخص الرسول . إذ ان القيمة إنما هي للمبدء و حتى شخص الرسـول شملته الدعوة كأي فرد آخر ، فهو قد نهي عن عبادة الشركاء ، و أنه لو اتبع أهواء الناس لأصبح ضالا ، و ما عند الرسول إنما هو من عند الله ، و العقوبة التي يهدد بها الرسـول أعداء الدين قادمة من عند الله ، و الحاكم فيها هو الله الذي يوضح الحق ، و يفصل أهله عن أهل الباطل ، و ذلك بحكمه الحاسم ، أما الرسول ذاته فهو ان كان مالكا للعقوبة ملكا ذاتيا و كان بشرا متفوقا على سائر البشر . إذا لأنزل العقوبة بأعدائه . كلا أن الله هو الذي يحكم و هو أعلم بالظالمين من سائر البشر.

بينات من الآيات

من هو الرسول:

[56]كأي بشر آخر نهاه الله عن عبادة الشركاء من دونه.

]قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله[

و النهي عن عبادة هؤلاء يعني التمرد على سلطات الطاغوت المتمثلة في السلطان الجائر ، أو شيخ العشيرة الفاسد ، أو رئيس الحزب المتجبر ، و هكذا.

]قل لا أتبع أهواءكم[

اي لا اتبع الجبت ايضا.

]قد ضللت اذا[

حين أعبد الطاغوت أو أتبع الجبت.

]و ما أنا من المهتدين[

آنئذ ، ذلك أن هداية الله للرسول ليست ذاتية ، بل قائمة بالله ، و هي تزول إذا انحرف الرسول - حاشا لله - عن الخط المستقيم.

اطار التحرك الرسالي:

[57]و يتميز الرسول عن الكفار ، بأنه على بينة واضحة من ربه ، انه يعرف الطريق جيدا بينما اولئك ليس فقط لا يعرفون الطريق بل و يكذبون بذلك تكذيبا.

]قل إني على بينة من ربي و كذبتم به[

اما العقوبة فهي عند الله و انتم تستعجلونها ، و الله هو الذي يحكم بها لانه يقص سبحانه الحق ، و يعلم لمن هو.

]مـا عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق و هو خير الفاصلين [ان الله يقص الحق ربما معناه : ان الله سبحانه يقسم الحق الكلي العام على أقسام الحياة ، أو الموضوعات الخاصة المنفصلة عن بعضها ، و الله سبحانه) خير الفاصلين) ربما معناه أن الله خير من يقضي لتطبيق الحق على

الشخص المعين.

و لنضرب مثلا يقرب الى اذهاننا معنى الآية فالحق الكلي مثلا هو أن العدالة قيمة صحيحة و لكننا بحاجة الى قص هذا الحق ، و ذلك بتقسيمه الى مختلف الموضوعات . مثل أن العدالة تقتضي انزال العقوبة على من يظلم صاحبه ، و لكن من الذي ظلم صاحبه ؟ هذا الأمر بحاجة الى فصل (يسمى بالقضاء) و الله هو الذي يفصل و يحدد بالضبط من الذي ظلم ، و من الذي وقع عليه الظلم.

[58]إذا فالله هو الذي يملك العقوبة ، و يعلم الحكم ، و هو خير من يقضي ، أما الرسول فهو بشر لو لم يكن رسولا من الله ، و كان يملك العقوبات التي يهدد بهـــا الاعداء . إذا كان يستخدمها عمليا في دحر الاعداء.

و هو حين لا يفعل فان ذلك يدل على أنه رسول متصل بالله ، و أنه لا يقول و لا يعمل شيئا إلا بأذنه ، بل هو لا يملك شيئا من دون الله سبحانه.

]قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني و بينكم و الله أعلم بالظالمين]فهو الذي يقضي بين العباد و يعاقب المتجاوزين على القانون و لست أنا.

مفتاح الغيب بين العلم و القدرة

هدى من الآيات

المستقبل عند الله ، و ما ينفتح اليه عنده ، فهو الذي يخلقه حسب ما يشاء ، و يجري عليه سننه و لذلك فهو يعلم ماذا سيكون ، فاذا تحقق علم بأصوله و قواعده العامة و الحكيمة ، كما علم بجزئياته الصغيرة ، فمن الورقة التي تذبل و تسقط ، الى الحبة التي تدفن فيباطن الارض يعلمها الله سبحانه ، بل كل شيء حي أو ميت . مسجل في كتاب مبين.

و علم الله محيط بالحياة ، فهو الذي يسترد في الليالي روح الانسان ، ويراقبه على أعماله في النهار حيث يبعثه ليستمر الى فترة محدودة ، فاذا انتهت يعود البشر الى الله حيث يخبره بما فعل.

و كما علم الله فكذلك قدرته محيطة بالعباد . انك من دون هذه القدرة التي تحيط بك و تحفظك من المهالك تتعرض لألف مشكلة و مشكلة . اما الموت فهو لا يحدث بعيدا عن قدرة الله بل عبرها ، فرسل الله هم الذين يتوفونك دون أن يخرجواعن حدود الطاعة لله ، و تعود الى الله حيث يحاسبك على أعمالك و هو أســـــرع الحاسبين.

عند لحظات الخطر حجة الله

هدى من الآيات

في الدروس السابقة بين القرآن جوانب من هيمنة الله على الكون ، و البشر بالذات ليزداد الانسان معرفة بربه ، و حبا له ، و تقربا اليه ، و يستجيب بارادته الحرة لواقع الولاية الحق التي تنتشر في الحياة و في أنفسنا آياتها و علائمها.

و تتابع الآيات في هذا الدرس في ذات الموضوع من زاوية فطرية يعيشها كل منا في حياته ، و ذلك عندما ترتفع غشاوة الكبر و الغفلة ، و يتحسس الانسان بالخطر فيصبح آنئذ اقرب الى الحقيقة.

و لكن متى نشعر بالأمان المطلق . أولسنا في لحظة الأمان يساورنا الخوف من تجدد ظروف الخطر ، أوليس الله الذي ندعوه عندما تحيط بنا ظلمات البر والبحر ، و ندعوه تضرعا و خفية ، و دون رياء قادرا على ان ينزل علينا عذابا من السماء أو الأرض ، أو حتى من أفرادالبشر أذا لماذا ندعوا الله فقط في أوقات الكرب الظاهر ، و لا ندعوه في كل حالة ما دامت كل لحظة تحمل في طياتها مخاوف كروبعظيمة ؟!

و لكن فهم هذه الحقيقة بحاجة الى فقه و معرفة عميقة بالحقيقة.

بينات من الآيات

مع الله:

[63]اصطدمت سيارتنا بأخرى في طريق صحراوي بعيد .. و الوقت بعد منتصف الليل و السحب المتراكمة حجبت ومضات النور المنبعثة عن النجوم ، و أخي قطعـــت ذراعه ، و أخذ الدم يتفجر منه كالميزاب ، بعضنا أخذ يحاول إيقاف الدم النازف ، و البعض الآخر أخذ يتطلع في الظلام لعله يبشر بمرور سيارة . و لكن لا شيء نستطيع فعله و لا ندري هل تأتي سيارة . أم لا ؟ الكل حبس أنفاسه في صدره ، و يكاد لا يتكلم إلا همسا . القلوب تحلق في فضاء آخر ، اتصلت بعالم آخر بالله القادر على أن يرسل من عالم الغيب سيارة أو يلهمنا طريقة ما لوقف الدم.

فجأة يعلو صراخ : حبل . حبل . صاحب الجرح النازف يدعو رفاقه بجلب الحبل ، ثم يأمر بشده فوق جرحه .. بشدة ، ثم ينقطع الدم الا قليلا ، و من وراء الأكمة يشع الفضاء بنور خافت ، ثم ينكشف هذا النور عن سيارة ، و سرعان ما نحمل جريحنا الى اقرب مركز للطوارئ ، وتنتهي الأزمة ، و يتبين بعدئذ أن خبرا خاطئا دعا سيارة النجدة التي قدمت ان تسرع الى المنطقة ، و لولاها لما جاءت ، و بالتالي تبين أن يدا غيبية هي التي دفعتها الى هذا الطريق . ترى كيف كنا نعيش في تلك اللحظة ، ما الذي كنا نقوله لله في مناجاتنا الخفية ؟

كما نقول لربنا : فرج كربنا يا ربنا . فسوف تجد اي عباد شاكرين سنكون نحن ، سنترك الذنوب مرة واحدة ، و لا نظلم الناس ، و نتصدق بأموالنا في سبيلك . يا رب يا رب يا رب ! كنا نشعر آنئذ بأننا عباد ضعفاء لا نملك لأنفسنا شيئا ، و الله ربقوي رحيم ، مالك لكل شيء.

ان هذه القصة غير الواقعية هي حقيقة تقع بأشكال مختلفة لكل واحد منا ، و لكنه سرعان ما ينساها ، و الله سبحانه يذكرنا بها في هذه الآية قائلا:

]قل من ينجيكم من ظلمات البر و البحر[

حيــن تكاد الأمواج العاتية ابتلاع قارب الصيد الذي نمتطيه .. و لا أمل الا بالله.

]تدعونه تضرعا و خفية[

بسبب شدة الخوف نقول لربنا آنئذ:

]لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين[

] [64]قل الله ينجيكم منها و من كل كرب ثم أنتم تشركون]حيث اننا متسعدون بعدئذ لأن ننسب خلاصنا حتى الى الصدفة دون أن نذكر أن الله هو الذي أنقذنا ، و سوف نشكر سيارة النجدة ، و نشكر الطريق المعبد ، و نشكر حتى مبضع الجراح دون أن نشكر ربنا الذي كان المنقذ الحقيقي ، و الذي توسلنا إليه حين اشتد بنا الكرب.

احتمال عودة الخطر:

[65]و لكن هل انتهى الخطر .. افلا نعود الى ذات المشكلة ، أو لا يمكن ان يهبط علينا عذاب ، من السماء أو الارض .. فمثلا هل نأمن ان ينفجر البركان قريبا من قريتنا فيقذفنا بحمم ، أو يزلزل الارض بنا فتخسف بنا و بما نملكه.

]قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم]و هناك خطر آخر و أشد هو خطر الناس بعضهم ضد بعض ، حيث يختلفون على بعضهم.

]أو يلبسكم شيعا و يذيق بعضكم بأس بعض[

كم دمرت الحروب البلاد ، و أجرت أنهر الدم . هل كان يستطيع هذا الفريق او ذاك النجاة من ويلاتها ؟! ان الله هو القادر على اقامة الصلح العادل أو القاء الرعب المتبادل في نفوس المتخاصمين لئلا يبادر أحدهما بالهجوم على الآخرين حتى يأذن الله بغير ذلك.

]أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون[

ان الله يوضح آياته حتى لا يكون البشر سطحيا ينظر الى ظواهر الحوادث بل يتعمق الى أغوارها البعيدة ، و يبقى على البشر أن يتذكر بتلك الآيات.

مواقف الناس من آيات الله

هدى من الآيات

في الدروس السابقة حدثنا القرآن الحكيم عن مجموعة من الآيات ، و في هذا الدرس يبين اختلاف الناس في مواقفهم من هذه الآيات ، و هو موقف الرفض أو اللامبالاة أو الاستجابة ، فهناك من يكذب بالحق من قوم الرسول ، بيد أن الرسول لن يغني عنهم شيئا بحجة أنهم قومه، أما الحق فأنه اذا جاء موعد تطبيقه في المستقبل فسوف يعلم الناس ماذا يعني و ما هي أهميته.

و من الناس من يتخذ آيات الله هزوا يتسلى بها دون أن يتخذها و يعمل بها . هؤلاء يجب التباعد عنهم لأنهم قوم ظالمون ، وقد ينخدع الانسان الساذج بمظهرهم حيث يتظاهرون بأنهم لا يخالفون الحق ، و آنئذ يجب أن يقرر ألا يعود الى القعود معهم.

و منهم من يستجيب للحق ، و يتقي الله و هم السعداء الذين سوف يغفر اللـه لهم.

بينات من الآيات

التكذيب و المسؤولية:

[66]للانسان امام الحق ثلاثة مواقف . موقف الاستجابة أو الرفض أو اللامبالاة ، و في هذه الآية يناقش القرآن الموقف الثاني فيقول:

]و كذب به قومك و هو الحق قل لست عليكم بوكيل[

فالانسان نفسه هو المسؤول المباشر عن قبوله أو رفضه للحق و ليس مبلغ رسالة الحق ، و الواقع أن علم الانسان بمسؤوليته أمام تصرفاته سوف يساعده كثيرا على اتخاذ الموقف السليم ، أما لو زعم أن بأمكانه أن يبرر موقفه ، و يلقي بمسؤوليته على هذا أو ذاك ، فأنه سيكون سببا لعدم الاهتمام بالحق.

[67]و القرآن يهدد المكذبين بما يرونه في المستقبل . حيث يتجلى الحق في شكل واقع قائم و يقول : ان النبأ الذي عبر عنه الله و هو الحق سيتحقق في الوقت المحدد له سلفا ، و آنئذ يعلم الانسان كم خسر بتكذيبه بالنبأ . ان الدكتور يخبرك بوجود خلية فاسدة في رجلك و يأمرك بالاسراع في العلاج ، و لكنك قد تكذبه فيتخذ المرض خطه المتصاعد ، فينتشر السرطان في الجسد في الوقت المحدد له حسب سنة الحياة ، و أنظمة الجسم و آنئذ يعلم الانسان مدى خطئه عندما كذب بالنبأ ، كذلك رسالة الله مجموعة أنباء صادقة ، و لها أوقاتها المحددة (مستقرها) التي تتحقق فيها ، و آنئذ يعلم المكذب حقيقة الأمر.

]لكل نبأ مستقر و سوف تعلمون[

تمييع الأحكام:

[68]و الموقف الثاني من الحق و هو موقف اللامبالاة ، و استخدام الآيات مادةللحديث اللامسؤول ، أو حتى للتسلية.

و هؤلاء أخطر من المكذبين إذ أنهم يميعون الحق ، و يفرغون الحديث من محتواه الحقيقي ، و يحولونه الى مادة للجدل ، و قضاء للوقت ، و المباراة و اظهار الوجود ، و بذلك يغيرون نظرة الانسان الى الكلام من نظرة عبرية هدفها العمل ، الى نظرة ذاتية هدفها التسلية، و لذلك يجب مقاطعة مجالس هؤلاء و عدم الخوض معهم في جدلياتهم الفارغة ، و تركهم و حدهم يأكل بعضهم بعضا.

]و إذا رأيــت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتــى يخوضوا في حديـــث غيره]و لكن كثيرا ما ينسى الانسان هذا الحكم بسبب تظاهر هذه الفئة بالعلمانية و أنهم إنمــا يبحثون عن الحقيقة بهذه الجدليات . لذلك ذكرنا القرآن بخطورة النسيان قال:

]و إما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين]لقد سمى الله هؤلاء بالظالمين بالرغم من تظاهرهم بالبحث عن الحقيقة . لأن من يبحث عن الحق فعلا سيجده من دون تعب ولا حاجة إلى الجدال.

الموقف السليم:

[69]أما الموقف السليم من الحق فهو : الاستجابة له عمليا ، و هي التقوى ، و احترام الحق الذي نبأ به الله ، و حينئذ يكون خط المتقي سليما في اتجاهه العام بالرغم من بعض الانحرافات البسيطة ، أو بعض الأخطاء التكتيكية ، و مع سلامة الخط العام لا يحاسب الشخص بشيء من الأخطاء البسيطة.

]و ما على الذين يتقون من حسابهم من شيء[

و هدف الوحي من هؤلاء هو إيصالهم الى مستوى التقوى ، و ابقاؤهم على هذا المستوى ، و ذلك عن طريق تذكرهم المستمر حتى لا يغلبهم نعاس النسيان ، أو سكر الغفلة.

]و لكن ذكرى لعلهم يتقون[

اسباب حيرة المبلسين

هدى من الآيات

فيما مضى سبق القول في ان وجود الآيات في الكون و ظهورها لايكفي لهداية البشر ، إذ لابد أن يكون جهاز الادراك عنده سليما فمثلا لو اتخذ الفرد دينه لعبا ولهوا فكم تستطيع الآيات ان تكون نافعة له .. لا شيء ، هؤلاء هم الذين أبسلت أنفسهم ، بما كسبت من سيئات، و حجبت الشهوات نور عقولهم ، فلا تنفعهم الموعظة بل يجب تركهم الى حين بلوغهم جزائهم عند الله . حيث يعذبون بشراب من حميم ، وعذاب أليم . جزاء ما طعموا من الشهوات الحرام ، و بما كفروا بالرسالة.

وقد يبلغ حال الواحد منهم وضعا مزريا حيث يتخذ من دون الله أربابا - هم أصحاب المال و الزينة - و يترك هدى الله ، و يكون مثله كمن اخترق الصحراء مع أصحابه ، و لكنه ابتلي بالشياطين ، و فقد وعيه ، وأخذ يدور من دون فهم ويتبع الشياطين و يترك الصراط المستقيم ، و التسليم لله رب العالمين.

بينات من الآيات

موقفنا منهم:

[70]اننا كبشر نشعر بفطرتنا النقية . أن الطعام و الجنس و الراحة كلها وسائل للأبقاء على الحياة ، أما

هدف الحياة فهو شيء آخر ، قد نختلف في تحديده تبعا لاختلاف ثقافتنا ، ولكننا نكاد لا نختلف في أصله ، بيد أن هناك من يتخذ دينه و هدفه الشهوات ، ويزعم أن اللذة هي الهدف الأساسي من الحياة ، أما الدين الحق فيتخذه لعبا يفسره كيف تشاء شهواته ، و لهوا يتسلى بطقوسه ، أو بالحديث حوله ، أما إذا جد الجد فانه يتبرء من الدين ، و موقف المؤمن من هؤلاء هو المقاطعة.

]وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا]وإنما يهبط البشر الى هذا الحضيض بسبب تورطه في الشهوات ، و تعوده على اللذات و الراحة و الكسل ، حيث ابسلت نفسه.

و الخلاص الوحيد من ظلمات الجهل و العادة هو التذكر المستمر الذي هو بمثابة حزمة نور ، تخرق حجاب العادة الى القلب.

]وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت[

أما إذا ابسلت النفس فأن الله سبحانه سوف يلعنها ، ولا يقبل منها شفيعا ، و ليس لها ولي من دونه.

]ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع و إن تعدل كل عدل لايؤخذ منها]ان العدل لا يقبل من هذه النفس التي أبسلت ، وهذا هو مصير الذين أحاطت بهم ذنوبهم التي اكتسبوها.

]اولئك الذين أبسلوا بما كسبوا[

مصيرهم في الدنيا ظلمات في قلوبهم ، أما في الآخرة فـ:

]لهم شراب من حميم و عذاب أليم بما كانوا يكفرون]بآيات الله ، و يتخذونها لعبا و لهوا . إذ أن الذنوب سبب ظلمات القلب ، و هي سبب الكفر ، و الكفر يؤدي الى النار.

[71]و هناك فئة ضالة قد اتخذت أربابا من دون الله ، و التزمت بطقوس لم ينزل الله بها سلطانا ، و ربما تكون هذه الفئة هي امتداد نوعي للفئة الاولى ، اذ حين يكتسب الفرد السيئات ، ويحتجب عنه نور العقل تتحول فطرة التدين عند هذا الشخص الى الأرباب التي تعبدمن دون الله ، فيزعم صاحبها أن تلك الأرباب هي تطبيق لفطرة الايمان التي يشعر بها ، و ربما لذلك ذكر القرآن هذه الفئة بعد تلك الفئة قائلا :

]قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا[

لماذا يعبد البشر شيئا لا يضر ولا ينفع ما دام لا يمثل الحق ، ولماذا يتقيد به اذا ، و يخضع له ؟!

وما هي المنفعة من وراء ذلك ؟! انه ليس إلا ردة في مسيرة البشر ، و مسخ لطبيعته الحرة الكريمة.

]ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله[

وهداية الله تتمثل:

أولا : في الهداية الفطرية.

ثانيا : في هداية الرسل.

وكثيرا من الناس ينحرفون بعد الهداية الفطرية ، أما بعد الهداية الرسالية فان الانحراف ضلالة كبرى يشبهها القرآن الحكيم بالذي يسير في الصحراء ، ثم يضل السبيل بسبب تضليل الشياطين له ، حيث يدلونه على الطرق المنحرفة ، وفي هذا الوقت يجد الرجل من يدعوه البالهدى ، متمثلا في أصحابه

الذين يدعونه الى السبيل القويم الذي يسيرون فيه ، فانه لو لم يقبل نصيحة أصحابه فسوف لاتكون لديه أية حجة في البقاء في الضلالة ، إذ أن أصحابه قد أتموا عليه الحجة ووفروا له فرصة الخلاص من استهواء الشياطين.

]كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه الى الهدى ائتنا]هذا الرجل يشبه الانسان في تيه الحياة ، وقد أحاطت به شياطين الشهوات ، وأضلوه عن سواء السبيل ، و حجبوا فطرته النقية بركام من الخرافات الباطلة ، ثم جاءه هدى الله مساعدا لفطرته ، موضحا له سبيل الهداية.

]قل ان هدى الله هو الهدى[

وعلينا ان نتبع سبيل الله ، و نسلم له الذي أسلمت له السموات و الارض.

]وأمرنا لنسلم لرب العالمين [

الصلاة معراج المؤمن:

[72]ولكي نتبعه ، ونخضع له ونسلم ، فعلينا ان نقيم الصلاة نصليها بخضوع و خشوع ، و نديم عليها مع العمل بضروراتها ، في حياتنا الاجتماعية ، و من ضروراتهاالتقوى إذ ان الصلاة معراج المؤمن وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر ، و من شروط اقامتها الانتهاء فعلا عن الفحشاء و المنكر ، كما أن الخوف من الآخرة حين يحشر الفرد الى ربه واحدة من فوائد الصلاة المهمة.

]وأن اقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي اليه تحشرون]ارادة الله بين الكاف و النون:

[73]والله الذي يجب التسليم له ، هو الذي يمثل الحق ، و الحق يعني ان هناك واقعيات قائمة خارج الفكر ، وأنها تدار بأنظمة ثابتة ، و أن على الانسان أن يسعى من أجل توفيق نفسه ، وتطبيق أعماله على أساس الحق ، ولكن دون أن يزعم أن هذه الانظمة هي آلهة ، فيعبدها كما يعبد الغرب اليوم أنظمة الحياة القائمة .. كلا .. عليه أن يعرف : أن فوق الحق إرادة الله التي تخلق ما تشاء بكلمة واحدة هي (كن) فليعبـــد الله الذي له ملك الحياة الآن و مستقبلا ، وهو الذي يجازي الناس على أعمالهم ، وهو العالم بالغيب) المستقبل والماضي) و العالم بالشهادة ، فعلمه بالحقائق القائمة ، علم شامل ماذا كانت سابقا ، وماذا تكون عليه مستقبلا.

]و هو الذي خلق السموات و الارض بالحق و يوم يقول كن فيكون قوله الحق]لانه بقوله هذا خلق الاشياء ، وأجرى فيها الأنظمة ، وبقوله تطمئن الحياة ، و تستمر وفق الأنظمة.

]وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير]فمن أولى به معبودا نسلم له الأمور .؟

الشك المنهجي طريق الى اليقين
هدى من الآيات
كيف يتدرج الانسان في مراحل الايمان ؟

يبدء الانسان رحلته الايمانية ابتداءا من نقطة الشك ، و عدم الثقة المطلقة بما يتخيله هذا أو ذاك من أفكار أو أهواء.

و الشك يرفع عن بصيرة الفرد حجاب الأفكار المسبقة ، و يحرك فكره و يضيء عقله ، فيرى بذاته ما وراء السموات والارض من علم وقدرة وحكمة ، و بذلك يهتدي بأذن الله الى الحق فيصبح موفقا.

العقل يهدي الفرد الى أن الاله لن يكون متغيرا ، و أنه فوق القوى ، وأن لا سلطان على سلطانه ، وحين يرى الفرد الكواكب و القمر و الشمس كل يأفل عندما يصل وقت أفوله يتيقن أن كل اولئك ليسوا بألهة.

و من خلال التطلع الى الظواهر الكونية والايمان بأنها لا تصلح أن تكون آلهةعرف ابراهيم حقائق أخرى منها : أن الذي يهديك الى الله هو الله ذاته ، وأن ما لا يصلح أن يكون إلها لا يصلح أن يكون نصف اله ، وأن يشرك به شيئا ، ولذلك يجب رفض جميع الآلهة إلا الله .

بينات من الآيات

نعم للاحترام لا للعبودية:

[74]من دون تضحية لا تبلغ الحقائق ، و العلم كأي مكسب آخر بحاجة الى جهد بـل الى جهاد و تحد ، أن البشر معرض لأن تستعبده القوى الطاغوتية أو الطبيعية ، لذلك يبدء البشر تحرره بالتحرر العقائدي ، و ابراهيم كأي شخص آخر في مجتمع الجاهلية قد عرض لعبودية الطاغوت ، و لكنه رفضها وتحداها ، ان الطاغوت يصنع جوا فكريا في المجتمع ، يؤيده و يبرر اخطاءه ، و هذا الجو يضغط على الانسان من خلال تعامله مع أقرب الناس اليه ، أي من والديه و مربيه الذين يغذونه بالأفكار الباطلة ، و يدعون أنهم محترمون ، ولذلك فأن أفكارهميجب أن تحترم هي الاخرى ، وابراهيم كمثل أعلى للثوري الرسالي رفض هذه الافكار ، و صرخ هاتفا الاحترام للوالد نعم . اما للعبودية فلا..

]وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة[

لم يقل هذا الكلام الفض لأخيه الأصغر منه ، أو لرفيقه أو لزميله ، كلا .. لأن الضغط الذي كان يمارسه عليه المجتمع انما كان بسبب أبيه آزر.

وآزر لم يلد ابراهيم ، بل هو عمه الذي رباه ، فخاطبه ابراهيم بالابوه ، وذكره القرآن ليذكرنا بأن الايمان يبدء من رفض الخضوع لاقوى سلطة اجتماعية على الفرد ، وهي سلطة المربي و الكفيل ، ثم أعقب ابراهيم رفضه لأبيه برفضه لسلطة المجتمع الجاهلي و قال:

]إني أراك وقومك في ضلال مبين[

ان الخوف من المجتمع لا يدعك تفهم الحقائق ، لانك آنئذ لا تشكك نفسك بتلك الافكار الباطلة ، فتستمر عليها ، و لذلك تجد الناس عادة يؤمنون بأفكار مجتمعهم ، حتى قيل : بأن المجتمع صنم الفرد ، حتى أن بعضهم آمن بالحتمية الاجتماعية ، لذلك فعليك ان تتشبع بالثقة بذاتك حتى تتحدى الناس جميعا.

كيف نحصل على اليقين ؟

[75]حين تخلص ابراهيم من ضغط مجتمعه أراه الله ملكوت السموات والارض المتمثلة في فهم تلك القوة التي تملكها وتدبرها.

]وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين]اي ليخرج من الشك الى اليقين . ان الذي أوتي قدرة الشك قادر على أن يصل بأذن الله الى ذروة اليقين ، والشك لا يختص بالمجتمع ، أو بالمربي ، بل وأيضا بالافكار السابقة والخاطئة التي يزعم الفرد انها صحيحة في بعض مراحل حياته ، كما نري ابراهيم عليه السلامكانت له الشجاعة الكافية برفض أفكار مجتمعه السابقة كما نرى لاحقا.

[76]حين يهيمن الظلام على الكون يبحث الفرد عن أي نور ، فيرى الكوكب فيزعم أنه اله لانه أنقذه من ظلام دامس ، وهذه العقيدة العاجلة قد تكون نتيجة هيبة الظلام ، والخشية منه.

]فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي[

و قد يكون هذا رمزا لحالة الشك ، التي تزعج البشر ، فيبحث عن مخلص له منه ،فيتعجل بقبول أي

وممضة نور تخلصه من حالة الشك ، فاذا به يعتقد بأول فرضية تطرء على ذهنه أو تبرق أمام عينه ، و لكن وجود الفرضيات الباطلة عند الفرد ليس عيبا ، انما العيب هو أن يستمر عليها بعد أن تثبت عنده أنها باطلة ، وابراهيم عليه السلام كانت له هذه الشجاعة أن يكفر بأفكاره السابقة.

الفطرة هي الدليل:

ان الفرضيات الباطلة قد يكون بطلانها واضح بدرجة أن ردها لا يحتاج الى دليل ، بل يكفي أن تراجع فطرتك لتوضح لك بطلانها ، لذلك قال ابراهيم عليه السلام بعد أن افل الكوكب أني لا أحبه.

]فلما أفل قال لا أحب الآفلين[

الحب هو الفطرة النقية قبل ان يصبح فكرة مستدلة متكاملة ، و حين تكون علاقة البشر بربه علاقة الحب ، حيث يحب البشر ربه بصورة طبيعية . ما دام ربه سبحانه قد أغدق عليه نعمه ظاهرة و باطنة فيكون عدم وجود هذا الحب بالنسبة الى الكوكب دليلا على أنه ليس بآلهةحتما ! لان الله ينعم على البشر ليلا نهارا ، أما الكوكب فانه يأفل نهارا.

ومن المعلوم ان بعض الناس لا يزالون يعبدون النجوم ، ويزعمون انها ذات أثر فعال في مصير الانسان ، و قد كان عمل ابراهيم ردا صارخا لمثل هؤلاء الذين كانوا موجودين آنئذ.

[77]و انتظر ابراهيم على مضض من شكه ، و توتر من قلبه ، ثم انتظر هذه المرة فترة أطول حتى بزغ القمر ، و أعجبه ذلك النور الهادئ الذي ينساب على الطبيعة بعفوية و سخاء . فقال : هذا ربي.

]فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي[

وربما كان بزوغ القمر هو السبب في عدم رفضه للقمر ، و قد يكون تعلق ابراهيـــم ظاهرا بالقمر رمزا للفرضية الباطلة التي هي ليست إلا مجرد ضغط حالة الشك ، و عذاب الفراغ الفكري.

]فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضآلين]بعد فشله الثاني في فهم الحقيقة قلل ابراهيم (ع) من ثقته المطلقة بفكره ، و توكل على الله ، ذلك أن هذه الثقة مفيدة في مرحلة الشك ، و رفض الافكار التي يريد الآخرون فرضها عليه . أما بعدئذ فقد يكون لها مردود سلبي.

بك عرفتك:

اما كيف أدرك ابراهيم عليه السلام أن القوة التي يجب انتظار دعمها للانسان و هو يبحث عن الحقيقة هي قوة الله ، وهذه قضية هامة ؟

ان فطرة الانسان تهديه الى وجود سنن ونظم في هذا الكون المهيب ، وأن الطبيعة تسير وفق نظام . الشمس والقمر والنجوم كلها تسير وفق خطة مرسومة . من الذي يهـدي الشمس الى مسيرتها ، و القمر الى فلكه ، والنجوم الى مراسيها ؟ انه الله . انه خالقها ، إذا فعلينا نحن أيضا ان نبحث عن الهدى هنالك عند الله ، لا سيما في وضوع الاله . إذ قد يكون (وهذا واقع فعلا) البشر عاجزا عن معرفة ربه ، و لكن ربه سبحانه ليس بعاجز عن تعريف ذاته له.

و مـن جهة أخرى : حين تكرر تجربة الانسان الفاشلة في الوصول الى الحقيقة ، تعتريه حالة اليأس ويقول : أنا اقل من أن أعرف الحقيقة ، فلماذا البحث ؟!

وهذا اليأس هو أخطر عدو للبحث ، وهو وراء اكثر من نصف الجهل الموجود لدى الناس ، واليأس لا يزول

الا بالتوكل على الله ، لذلك قال ابراهيم (ع) وهو يعاني من صدمة الفشل:

]لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين[

[78]اذا كان جمال القمر قد دفع ابراهيم (ع) الى اتخاذه إلها مؤقتا فأن كبر الشمس وضخامتها ، بالاضافة الى جمالها دفعه هذه المرة الى مثل ذلك.

]فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر[

و كانت صدمة الفشل الهائلة والمتكررة حيث اختفت الشمس العملاقة وراء الافق . هذه الصدمة نقلت ابراهيم من واد لواد آخر ، من وادي مجتمعه الى رحاب الحقيقة.

]فلما أفلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون[

فتجعلون الشمس و هي خلق مما خلق الله شريكة لرب العالمين ، بينما شريك الألوهية يجب أن يكون قادرا حرا مريدا ما يشاء ، والشمس مسخرة بأمر ربها ، لا تستطيع ان تخالف أمر الله في الطلوع و الغروب.

التسليم المطلق .. المرحلة الاخيرة:

[79]ترك ابراهيم (ع) الخلق واستقبل بوجهه الخالق ، ترك الطبيعة الى مسخرها ومدبر أمرها ، وقال:

]إني وجهت وجهي[

اي اتخذت الله طريقا ، ومرضاته هدفا.

]للذي فطر السموات والارض[

خلقها و حدد مسارها ، و رسم حدودها ، وأظهر بذلك هيمنته التامة عليها.

و حين عبد ابراهيم ربه كفر بكل الشركاء ، و رفض الانداد جميعا و كان : -[حنيفا[

مائلا عما اعتمده الناس متمردا على عاداتهم وتقاليدهم ، وسلم أموره جميعا الى الله رافضا الانتماء الى المجتمع الكافر و قال : -[و ما أنا من المشركين[

هكذا يتحدى الايمان الخالص

هدى من الآيات

بعد المعاناة الشخصية ، وبعد الشك البريء الذي انتهى بابراهيم عليه السلام الى الاهتداء الى ربه بدء الصراع بينه وبين قومه حيث حذروه مغبة الكفر بالآلهة ، فردهم ببساطة : إن الخوف انما هو من الله ، لا من القوى المخلوقة له سبحانه . اذ أن تلك القوى تقع ضمن دائرة إذن الله و علمه ، و أمرهم بأن يعودوا الى فطرتهم ليتذكروا الحقيقة ، و بين لهم أن حذرهم و احتياطهم من الآلهة لا معنى له . إذ لو لم ينزل الله حجة واضحة بالسماح بطاعة أحد ، فانه سيعاقب من يطيع غيره ، و عقابه أشد و أبقى مما يخافه الانسان على نفسهمن ضرر الآلهة ، إذا الحذر من الآلهة يقابل بحذر أكبر من الله لو قبلنا بها من دون اذنه.

و انما الأمن لمن أرضى ربه و لم يخلط ايمانه بشرك ، لأن هذا الشخص قد اهتدى الى الطريق السليم ،

بيد أن فهم هذه الحقيقة ليس في وسع البشر . إنما الله سبحانه هو الذي يهدي إليها من يشاء ليرفع درجته ، و هو الذي لا يفعل ذلك الا حسب علمهبالفرد وحكمته البالغة بأنه يصلح للهداية ويستحقها.

بينات من الآيات

مسؤولية الهداية:

[80]بعد رحلة الايمان ، تبدء رحلة الرسالة . اذ فور ما يتنور قلبك بنور الايمان . تجد نفسك أمام مسؤولية هي تنوير قلوب الآخرين ، ولا يمكنك الا أن تفعل ذلك . اذ أن الدنيا صراع فلو لم تذهب الى الناس لهدايتهم جاءوا اليك لاضلالك ، وبالتالي سوف يبدء الصراع ، من هنا قال ربنا عن ابراهيم)ع) بعد ان وحد الله ونزهه عن الشرك به.

]و حاجه قومه[

يبدو أنهم قالوا له:

أولا : اين الله ؟ و كيف آمنت به ؟ و بأي دليل ؟ و بالتالي أخذوا يشككونه في ربه ، فأجابهم ببساطة:

أنتم لا تعرفون الله . أليس كذلك ؟ أما انا فأعرف الله لأنه قد هداني إليه ، ومن لا يعرف لا يستطيع ان يحاج من يعرف ، لانه هو الجاهل ، و هذا عالم ، و هو الضال ، و هذا المهتدي.

ثانيا : قالوا له : لماذا تشرك بالالهة هذه وهي قوية ، وقد تضر بك ، انك تكفر بالقوى الاجتماعية التي يمثلها الطاغوت ، وبالقوى الثقافية التي تمثلها قيم المجتمع ، و كهنة المعابد ، وبالقوى الاقتصادية التي تمثلها الرأسمالية والاقطاع ، وآلهة البركة .. و.
.و .. ، افلا تخشى هذه القوى ؟!

فأجابهم ابراهيم عليه السلام : كلا .. أنا لا أخاف كل أولئك ، لأن مشيئة الله هي الحاكمة عليها ، صحيح أن الطاغوت قد يؤذيني ، ولكن أذى الطاغوت انما هو ضمن دائرة ارادة الله واذنه ، فلو لم يرد شيئا لا يمكن ان يقع ، و الله محيط علمه بالجبت و الطاغوت و من فيفلكهما ، فهم أضعف من الله ، و أضاف ابراهيم قائلا:

عودوا الى فطرتكم النقية و تذكروا ان الله أقوى من خلقه ، وأن علينا أن نخشاه ولا نخشى خلقه.

]قال أتحاجوني في الله و قد هدان ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون][٨١] للآلهة رموز و ان ما يخافه البشر هو القوى الطبيعية أو الاجتماعية التي ترمز اليها الآلهة ، و الخضوع لهذه الآلهة انما هو رمز الخضوع لتلك القوى ، ولا يمكن أن يتحرر البشر من هذا الخوف الا بخوف أقوى ، وهو الخوف من رب القوى الموجودة في الكون ، لذلكحذر ابراهيم قومه من غضب الله ، وقال:

]وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا]و ربما يتصور البعض منا أن الله رحيم بعباده ، إذا لا خوف منه ، أما الطبيعة فهي قاسية فعلينا الخضوع لها لنتجنب ضررها ، هذه الفكرة هي التي دفعت بعض الناس لعبادة الشيطان حيث قالوا : ان الله رحيم بنا لأن طبيعته الخير ، أما الشيطان فان طبيعته الشر فعلينا عبادته.

و لكن ابراهيم بين ان الله لا يرضى بطاعة أحد من دون أن يأذن هو بذلك ، و لن يأذن والا فهو ينزل غضبه ولعنته على البشر ، وانه لو أرادت الآلهة أو الذين يطاعون من دون الله الفتك بالناس و التجأ الناس الى الله - رب الآلهة والناس - لتخلصوامن شرورهم ، إذا فالأمن الحقيقي لمن يخشى الله.

]فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون[

مضار الشرك:

[82]وعاد ابراهيم وأضاف دليلا جديدا على ضرورة التوحيد الخالص وهو : ان الشرك ظلم ، بينما الخضوع لله هو العدل ، وأن للظلم ضررين:

الاول : الابتعاد عن الأمن.

الثاني : الابتعاد عن الهدى بينما المؤمن الموحد يملك الأمن والهدى.

]الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون]دعنا نتصور : مجتمعا يسوده الطاغوت ، و يخشى الطبيعة ، و يقدم قرابينه لاله البحر وإله الحرب وإله الربيع ، كما كان يفعل أهل مصر ، ومجتمعا تسوده حكومة عادلة ، و يتحدى الطبيعة ويقهرها . أيهما سيكون المجتمع الآمن ؟ هل الظلم الطاغوتي و الخضوع للطبيعة يوفر الأمن ، أم العدالة والحضارة (قهر الطبيعة و تسخيرها) ؟! ثم ان التحرر من خوف الطاغوت و خوف الطبيعة يجعلنا نفكر بحريتنا ، نبحث عن الحقيقة بكل أمان ، ولا نخشى من الحقيقة ، ولا تسودنا دعاية الطاغوت ، و مخاوف الطبيعة لنقتحم كل أسوار الطبيعة ، لنكتشفهاونسخرها ، و آنئذ نحصل على الهداية . ان بداية كل علم هو الشعور بالأمن . لذلك جاء الهدى بعد الأمن في الآية الكريمة.

[83]لقد حاج ابراهيم قومه فانتصر عليهم ، والسؤال هو من آتاه هذه الحجة ؟ انه الله ، اذ أن ابراهيم عليه السلام كشخص يعيش ضمن حدود المجتمع ، و تقهرهالطبيعة لابد ان يتقولب حسب أفكار المجتمع وحتميات الطبيعة ، إلا أن الله سبحانه يرسل رسالته على الانسان لكي ينقذه من الحتميات الاجتماعية و الطبيعية التي تحيط به.

]وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم]و لحكمته و لعلمه لا يرفع كل شخص الى رفيع الدرجات عبثا ، انما يرفع من يكون مؤهلا لذلك بجده واجتهاده ، و بحثه عن الحقيقة ، وعدم خوفه من الحتميات الباطلة.

خط ابراهيم (ع) في سلسلة الانبياء (ع(

هدى من الآيات

تلك الرسالة التي أهبطها الله على قلب ابراهيم (ع) ، بعد ان وجده أهلا لها ، ثم بعد ان دخلت مرحلة الصراع المرير ، أصبحت اليوم تيارا يهدي به الله ، مجموعة من الانبيـاء العظام ، وقبلهم جميعا نوح (ع) حيث هداه الله ، و داود و سليمان و .. و..

ولم يكن هؤلاء وحدهم في الساحة ، لقد كان معهم الآباء و الذرية و الأخوة الذين اجتباهم الله على علم منه بهم ، نظرا لصلاحيتهم للعمل الرسالي.

و إذا كان هؤلاء على صراط مستقيم فانما باذن الله و بهداه ، و لم يكن باستطاعتهم الوصول الى هذا المستوى من دون التوحيد الخالص ، إذ أنهم لو اشركوا لأحبط الله أعمالهم.

بينات من الآيات

انتصار ابراهيم:

[84]ماذا كان عاقبة الصراع بين ابراهيم وقومه الذين أبطل ابراهيم حجتهم.

ان العاقبــة كانت انتصارا ساحقا لأبراهيم حيث أن الله أمد ابراهيم بأبناء و ذرية و أنصار.

]و وهبنا له إسحاق و يعقوب و كلا هدينا[

حيث كون اسحاق و يعقوب - بني اسرائيل - تلك الامة المؤمنة الصبورة.

]و نوحا هدينا من قبل[

فلم يكن اهتداء ابراهيم بدعا جديدا ، بل كان سنة قائمة منذ مدة طويلة.

]ومن ذريته داود و سليمان و أيوب و يوسف و موسى و هارون]هذه الاسماء التي تحولت في تاريخ البشرية الى رموز لكل قيم الخير ، ان نقطة البداية عندهم كانت الهداية الى الله ، و الهداية بدورها جاءت نتيجة احسانهم ، و فعلهم الخير.

]و كذلك نجزي المحسنين[

و نحن بدورنا لو فعلنا الخير لهدانا الله ، و لأصبحنا بأذنه رموزا لقيم الخير في التاريخ.

خط ابراهيم (ع: (

[58]و هناك رموز اخرى اتبعت ذات الطريقة القويمة و المنهج السليم ، و كانت النتيجة أنهم أصبحوا صالحين . أفكارهم سليمة ، وأخلاقهم قويمة ، وأعمالهم خيرة ، وأهدافهم نبيلة ، وبالتالي كلما يراه الضمير السليم للانسان ، أنه صلاح يتمثل فيهم.

]و زكريا و يحيى و عيسى و الياس كل من الصالحين[

[86]و آخريــن اتبعــوهم على الهدى - و فضلهم الله على الناس لهذا السبب. -

]واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين]بعلمهم وجهادهم.

ان هذه الاسماء اللامعة في سماء الانسانية معروفة لمن يتلو آيات القرآن ، حيث ذكرها الله أكثر من مرة ، وفصل كثيرا من قصص حياتهم ، وعبر تاريخهم ، و انما فعل ذلك ليصبحوا قدوات للبشر ، وليقول لهم : أيها الناس أن هؤلاء كانوا بشرا مثلكم و لكنهم أحسنوا فهداهم الله ، و أصبحوا ثناء على كل لسان ، و مثلا لكل فضيلة أفلا تقتدوا بهم و تتبعوا منهجهم ؟!

و يلاحظ المتدبر في نهايات هذه الآيات الثلاث ان الله سبحانه ذكر صفات ثلاث لهؤلاء الصفوة (الاحسان ، والاصلاح ، والتفضيل) و يبدوا أنها صفات متدرجة ، فالاحسان هو العطاء ، و الخروج عن سجن الذات ، وقوقعة الانانية الى رحاب الحق ، و خدمة الآخرين ، انه سبب الهداية ، بل سبب كل خير ، اما الهداية فهي من الله سبحانه ، و بالاسلوب الذي ذكره ربنا سبحانه بالنسبة الى ابراهيم - عليه السلام - و الصفة الثانية هي الصلاح ، وهي عاقبة الهداية ، وأثرها في حياة البشر ، حيث تجعل منه إنسانا متكاملا ، اما الصفة الاخيرة، فهي نتيجة الهداية في الواقع الاجتماعي . حيث يصبح البشر أفضل العالمين.

[87]لم تكن هذه الاسماء التي ذكرت سوى رموز ، ولن تكون هي الوحيدة في هذا الطريق بالرغم من أنها كانت ابرزها ، لذلك يذكرنا القرآن ببقية الذين ساروا على ذات النهج.

]ومن آبائهم و ذرياتهم وإخوانهم و اجتبيناهم و هديناهم الى صراط مستقيم]قانون الهداية:

] [88]ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده[

ولكن الهدى لن يجتمع مع الشرك ، إذ أن الشرك بالله يعني سلب الالوهية من الله ، ونسبة الضعف والعجز اليه سبحانه ، وتحديد قدرته ومشيئته ، و كل هذه الصفات بعيدة عن صفات الله ، و بالتالي من يؤمن بها لابد أن يكفر بالله ، لأنه ليس بإله من هو خاضع لخلقه ، وغير قادر على أن يقهر صنما حجريا منحوتا ، أو صنما بشريا يتمثل في المجتمع الفاسد ، أو في طاغوت جبار.

]ولو اشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون[

من خير و احسان و صلاح لأن الصلاة مثلا : تعني الايمان بالله ، و الايمان بالله يعني بدوره الكفر بالطاغوت ، اذ أنه لا إله ذلك الذي لا يستطيع قهر الطاغوت ، و لذلك اذا خضع المصلي للطاغوت لم يكن لصلاته اي معنى ، فلذلك فهي تحبط حبطا.

اولئك هم قدوة المؤمنين

هدى من الآيات

في الدرس السابق ذكر القرآن اسماء الانبياء العظام ، وفي هذا الدرس يذكرنا بحقائق عنهم : فهم يشكلون خط الرسالة الذي لا انحراف فيه أبدا ، حتى وان انحرفت الخطوط الاخرى ، وقد حافظ الله على سلامته واستقامته ليكون قدوة للناس من دون ان يحملهم أجرا ، بل ليذكرهم بالحقيقة فقط.

وهناك من يشكك في بعث الانبياء ، وهم الذين لم يعرفوا ربهم ، وماله من حكمة و قدرة ، وأنهم لم يشكروا ربهم على تلك الرسالات النيرة التي أنزلها على البشر على يد موسى عليه السلام.

ثم هذا الكتاب الذي أنزله لكي يكون منهجا للنمو و الرشد و التكامل وهو في ذات الخط الرسالي المستقيم ، والهدف منه أن ينذر به أم القرى ومن حولها.

و من يؤمن بالله و اليوم الآخر لابد أن يؤمن بالرسالة ، اذ أن الرسالة هي نتيجةالاعتقاد بهما.

بينات من الآيات

فبهداهم اقتده:

[89]تلك كانت رسالات الله بينها الله في الآيات السابقة ، ورسله كانوا دعاة لتلك الرسالة.

]اولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة[

الكتاب هو الرسالة ، و الحكم هو القضاء و السلطة باسم الرسالة ، اما النبوة فهي تحمل الرسالة لدعوة الناس اليها .

]فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين]فلا خوف على الرسالة - ان تبقى غريبة - اذ سوف يقيض الله لها رجالا يؤمنون بها ، ويفدونها بأوراحهم ، و انما الخوف على هؤلاء الذين لا يؤمنون بها .

و على امتداد التاريخ هناك رجال يؤمنون بخط الرسالة المستقيم دون أن يخالط ايمانهم شك أو وهن أو ارتداد.

[90]و الله سبحانه يبارك هذا الخط السليم بهدف ان يكون قدوة في الهدى.

]اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده[

وهذه الهداية انما هي للناس جميعا وهؤلاء لا يتقاضون أجرا على تبليغها.

]قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين]الايمان بالرسالات جوهر الايمان:

[91]الايمان بالله ، ومعرفته سبحانه هي النقطة المركزية للايمان بسائر الحقائق و معرفتها ، وأن أبرز هذه الحقائق الايمان برسالات الله التي من ينكرها فانما ينكر الله أو لا يعرفه حق معرفته ، فالله الذي خلق السموات و الارض وكل شيء فيهما إنما خلقه بهدف وحكمة ، و خلق الانسان ولم يتركه سدى ، بل بعث اليه رسلا يوضحون له درب السعادة ، فمن أراد السعادة اتبعهم ، ومن لم يرد ، فمصيره النار و ساءت سبيلا.

]وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء]ثم ان ابسط دليل على اي شيء هو وجوده العيني الخارجي ، والله قد انزل رسالته على البشر متمثلة في كتاب موسى عليه السلام الذي يستحيل عقلا أن يكون من غير الله ، فاذا هو من الله.

]قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا و هدى للناس]انه من الله بدليل أنه نور يستجلي العقل ، و يوقظ الضمير ، و ينبه الفطرة البشرية ، و لأنه نور فهو كاشف للحقائق سواء تلك التي تمت الى الدنيا أو الآخرة ، و الكتاب بالاضافة الى ذلك هدى للناس يهدي به الله الى سواء السبيل في الآخرة ، والهدى أخص من النور، لأنه يهدي صاحبه حتى ولو لم يؤت نورا شاملا.

ان الانبياء و الصديقون و العلماء يؤيدون بنور العقل فيكشفون بأنفسهم الحقائق .أما الناس فأنهم قد لا يؤتون النور و لكن يهديهم الله الى الصراط المستقيم عن طريق توضيح السبل لهم كالاعمى الذي يأخذ بيده البصير و يقوده في مسيرته.

]تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا[

لانكم خشيتم منه على مصالحكم والآن تنكرون البقية رأسا ، أو ليس في هذا التناقض دليلا على بطلان كلامكم.

]وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم[

فجاءت الافكار بعيدة عن الجو الثقافي الذي كان سائدا عليكم ، مما يدل على أنها كانت أفكارا غيبية.

و اخيرا : ان جدل هؤلاء في رسالة النبي نابع من مرض قلبي دفين ، لا ينفع معه اقامة الحجج ، لذلك يجب أن يتركوا لشأنهم حتى يأتيهم جزاء أفعالهم.

]قل الله[

الله هو الحاكم بيني و بينكم ، و الله هو الشاهد و الشهيد عليكم ، والله هو الذي لو آمنا به حقا لآمنا بالرسالات ، ولأصلحنا عقد أنفسنا.

]ثم ذرهم في خوضهم يلعبون[

اي يلعبون فيما يخوضون فيه ، ويناقشون فيه من أفكار خاطئة و أهواء . انهم لا يتبعون العلم ، بل يتلاعبون بالألفاظ و الاهواء.

خصائص رسالتنا وأهدافها:

[92]الايمان بالرسالات عموما ، ركن من أركان الايمان بالله ، الا أن ذلك لا يكفي . اذ يجب ان نؤمن بالرسالة التي تخص حياتنا بالذات ، والرسالة الاسلامية هي تلك الرسالة التي لابد ان نؤمن بها لعدة أسباب.

اولا : لأنها مباركة تحفز البشرية نحو التقدم و الرقي ، و النمو و الخير ، و هذا هو تطلع البشر الاسمى .

ثانيا : لأنها تتفق في أصولها مع سائر رسالات السماء ، مما يدل على وحدة المشكاة التي انبعثت منها .

ثالثا : لأنها جاءت لتحقيق يقظة في عالم يغط في سبات الجاهلية ، و ذلك في شبه الجزيرة العربية.

رابعـا :ان الهدف من اعتناقها ليس هدفا ماديا كالوصول الى السلطة أو الغنى ، بل هدف معنوي بدليل أن حملة الرسالة هم رجال الله ، فهم يحافظون على صلواتهم ، و عموما المؤمنون بهذه الرسالة هم المؤمنون باليوم الآخر الذين لا يهـدفون من ورائه الدنيا و زينتها.

]و هذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى و من حولها و الذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به و هم على صلواتهم يحافظون[

الأفتراء على الله أشد الظلم

هدى من الآيات

الظلم ظلمان ، فقد يغتصب الفرد حق صاحبه المادي ، و هذا الظلم قد ينتهي بالتوبة وأداء الحق ، و لكن قد يغتصب الفرد فكر الناس ، ويضلهم و يضل نفسه عن الحق ، ويحرف مسيرة البشرية ، وهذا أكبر خيانة وأخطر ضررا.

فأذا قال أحد : ان الله يقول هذا . كذبا و افتراء ، أو ادعى النبوة و هو ليس بنبي أو ادعى قدرته على ابداع أفكار ، و مناهج مثيلة لأفكار و مناهج الرسالات ، فانه آنئذ أظلم الناس ، وجزاءه عذاب الهون الذي يأتيه عندما تهبط عليه ملائكة الغضب بكل عنف وخشونة، ينتزعون منه نفسه ، لأنه كذب على الله ، ولأنه استكبر على الحق.

و إنما يعتمد الظالم على قدرته الجسدية أو المادية أو الاجتماعية ، ولكن حين تنتزع الملائكة نفسه ، تتبخر هذه القدرات ، فالجسد خائر القوى ، والأموال و الممتلكات تنتظر الورثة ، أما الناس الذين زعم أنهم وراءه فهم غير موجودين هناك ، أو غير نافعين له ، أما الأفكار الباطلة التي ا خترعها فقد أصبحت كالسراب الزائل.

بينات من الآيات

الجريمة المنظمة:

[93]في عالم الجريمة السارق الوحيد عقوبته محدود ة ، بينما على العصابة عقوبات مشددة ، لأن جريمتهم أخطر ، وأخطر من تلك السرقات الكبيرة التي تتستر تحت قناع الايدلوجية الباطلة ، كسرقة الاقطاعيين والمترفين من المحرومين ، أو سرقة الطواغيت و الامبرياليةمن الشعوب المستضعفة ، وأكثر ما عانت البشرية في تاريخ الجريمة انما كانت بسبب هذا الطراز من المجرمين.

أن هؤلاء يخترعون أولا أفكارا باطلة تساعدهم على استثمار الجماهير ، و استغلال بساطتهم ، ثم يبدؤون بامتصاص جهودهم الى أخر قطرة دم في عروقهم.

و كثيرا ما ينسبون افكارهم الى الله لأعطائها المزيد من الشرعية ، و لاتاحة الفرصة لأنفسهم للمزيد من الابتزاز ، وقد يستخدمون رجال الدين المزيفين لهذا الغرض البشع.

و أخطر من ذلك أنهم قد يدعون النبوة ، و أن الله يوحي لهم ، أو حتى يكابرون على ربهم ، و يزعمون أن خرافاتهم وضلالاتهم مثيلة لبصائر رسالات الله و هداها.

هذا الفريق أظلم الناس جميعا .

]ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا[

ولعل هذه الكلمة تشمل كل من يدعي كذبا أنه قد فهم الحقيقة حتى ولو لم ينسب كلامه الى الله مباشرة ، إذ أن مجرد هذا الا دعاء يجعل هذا العمل مرتبطا بالله سبحانه.

]أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله]عندما تنتزع الروح:

اما جزاء هؤلاء فيصوره القرآن الحكيم ، في لحظة مفارقة الدنيا ، تلك التي من أجل متــاعها الزائل تسبب هذا الفريق المجرم في حرمان الألوف من البشر حقوقهم ، أو حتى في هلاكهم ، عندما تهبط عليهم ملائكة العذاب وهم في أشد لحظات الفزع والاحتضار ، حيث تغمرهمأمواج الموت موجة بعد أخرى ، و الملائكة واقفون على رؤوسهــم ، وقد بسطوا أيديهم الغليظة ، وهم يقولون بكل عنف : أخرجوا أنفسكم ، و ينتظرون انتزاعها لتعذيبها بعذاب الهون.

]ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم]ان تصور هذه اللحظات الحاسمة ينفع كل واحد منا في الا نتورط في ظلم الآخرين.

]اليوم تجزون عذاب الهون[

اما العذاب فـ..

]بما كنتم تقولون على الله غير الحق[

اما الهون و الخزي و العار فانه جزاء الاستكبار.

]و كنتم عن آياته تستكبرون [

من الضعف الى الضعف:

[94]لمــاذا يستكبر الانسان عن الحق ، و يخترع أفكــارا باطلة ، و ينشرها بينالناس ، و يمنع الجماهير من نعمة الله ؟ هل لأنه يريد جاها أو مالا أو قوة ، واين تذهب أمواله وشفعاؤه عندما تأتيه ملائكة الموت ؟!

]ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة[

انتم ضعفاء ، بدليل أن خلقكم الاول ، مبني على الضعف و الانفراد ، وانما بسبب نعم الله عليكم التي لم تصبح جزء من كيانكم ، بل لم تصبح ملككم اصبحتم كذلك وانتم تحسبون انكم اقوياء ، لقد خول الله لكم هذه النعم . أي اعطاكم إذنا باستخدامها في طرق معينة ، وسوف تذهب عنكم حينما يشاء الله.

]وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم[

أما المجتمع الفاسد الذي اعتمدتم عليه في اختراع هذه الافكار و ترويجها ، اما الطبقة المترفة و المفسدة ، كالرأسماليين الكبار ، ورجال الأمن الفاسدين ، فهــم الآن غائبون عنكم ، فأين هم ؟!

]وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم]اي انفصلت القوى الرابطة بينكم وبينهم ، أما الأفكار الجامعة بينكم و بينهم كفكرة الطبقة الحاكمة أو الحزب الطليعي ، أو النخبة

المثقفة ، هذه الخرافات التي اخترعتموها لاستثمار الجماهير قد تلاشت و غاصت في الرمال.

]و ضل عنكم ما كنتم تزعمون [

من الشرك بالله و اعتقادكم بأفكار باطلة.

الطريق الى معرفة الله

هدى من الآيات

كيف يختـــار لنا الشيطان طريق الضلالة والافك والانحراف عن مسيرة التوحيد ، والله هو الذي خلق الحب والنوى ، وهو الذي يحيي الموتى ويميت الاحياء ، وهو الذي يخرج الاصباح من رحم الظلام ، و يجعل الليل مأوى للأحياء حيث يسكنون الى ظلامه وهدوئه ، و سواء الصبـــاح أو الليل ، فهما يجريان وفق نظام دقيق يدل على علم المدبر لهما و قدرته.

و مواضع النجوم ، و حركتها المنظمة مدبرتين بحكمة بالغة ، لا يكشفها الا أهل العلم و المعرفة ، ولا يعرفون مدى ما فيهما من حكمة ، فيتساءلون : اذا كنا نهتدي بالنجـوم على الطرق في الليالي المظلمة ، فكيف لا نهتدي الى الله بآياته الباهرة ؟

و إذا أمعن البشر النظر في طريقة تناسل الانسان ، وكيف انشأ الله كل البشر من نفس واحدة ، فمنهم من يستمر في البقاء ، ومنهم من يموت ، و ما لهذا يموت و ذلك يحيى ؟! واذا ما أوتينا الفقه عرفنا ما وراء الموت و الحياة من حكم بالغة تدلعلى حكمة ربنا وقدرته.

و الله هو الذي أنزل المطر ، فاذا به يتحول بقدرة الله الى شتى أنواع النباتات ، من حقول خضراء الى جنان النخيل و الاعناب و الزيتون و الرمان بعضها متشابه و بعضها مختلف ، و حين ينظر المرء الى ساعة اثمارها ، و لحظة ينعها ينبهر بها ، و عموما فان البشر بحاجة الى فطرة سليمة ، وغير معقدة ضد الايمان حتى يهتدي بهذه الحقائق الى الرب الكريم.

ومن الملاحظ ان القرآن الحكيم قد قسم الآيات على انواع : بعضها للعالمين ، و بعضها للفقاء ، و البعض للمؤمنين ، للدلالة على تدرج المراحل ، الكمالية ففي البداية علينا ألا نكون في إفك وضلالة ، و تكون القلوب نظيفة من العقد و العقائد الباطلة ، ثم نحصل علىالعلم ، ثم نتعمق في العلم ، حتى نحصل على غور العلم ، و عمقه وهو الفقه ، و أخيرا ننظر الى الحياة نظرة بسيطة ، نابعة من الفطرة النقية ، حتى نصبح مؤمنين بأذن الله.

هذا الدرس يأتي حلقة من مسلسل الدروس الايمانية المباشرة ، بينما كانت الدروس السابقة تمهد لمثل هذا الدرس .

بينات من الآيات

النشأة الاولى:

[95]الفلق هو : ان ينشطر شيء فينكشف عن شيء خفي ، و الحب تكمن فيه المواد الحية ، ولكنها تبقى خفية حتى تنفلق و تنشطر ، فينكشف عن تلك المواد ، ولكن هذه الحالة بحاجة الى من يدبرها حتى ينفلق الحب بتنظيم ومتانة ورفق ، حتى تتم الولادة سليمة ، والله هو ذلك المدبر العزيز.

]ان الله فالق الحب و النوى[

والكلمة تدل على طريقة النشأة ، وهي أن نمو المواد الحية يسبب في انقشاع الغلاف الظاهر الذي يخفي وراءه تلك المواد ، فاذا بنا نشاهد الحياة ، بينما كانت الحياة موجودة سابقا ، ولم تكن معدومة آنئذ ، ولكنها كانت مخزونة الى هذا الوقت.

وهذا النمو يتم بآضافة المواد الميتة الى المادة الحية ، فتصبح تلك المواد الميتة ذات حياة بإضافتها الى

تلك المادة الحية ، فالحب فيه مادة حية تستقي من الاملاح الميتة ، و من النور الميت ومن الماء فتصبح حبة كبيرة ، فاذا انتهت دورة الحياة ، فان تلك المواد الميتة تزال عن تلك المادة الحية . وربما يكون هذا المعنى قوله سبحانه:

]يخرج الحي من الميت و مخرج الميت من الحي ذلكم الله]أو يكون معناه : ان الله يخرج من ضمير الاشياء الميتة شيئا حيا ، ومن رحم الاشيـاء الحية شيئا ميتا ، و بتعبير آخر يحول الحي الى الميت ، و الميت الى حي ، سبحانه.

]فأنى تؤفكون[

في أية ضلالة تتيهون ، وأي إفك يحمل عليكم ، ويفرض عليكم.

أن الخلاص من الافك الذي تفرضه على البشر أهواؤه و مجتمعه و الشيطان الرجيم ، شرط مسبق لفهم الحقائق ببصيرة الفطرة النقية.

[96]والله سبحانه هو الذي خلق النور ، و فلقه و نشره ، و نظم انتشاره . كما جعل الظلام في حدود معينة و لهدف محدد وهو السكون اليه و الراحة.

]فالق الاصباح و جعل الليل سكنا و الشمس و القمر حسبانا]جعلهما يسيران وفق نظام ثابت و محسوب ، لا يحيدان عنه قيد أنملة.

]ذلك تقدير العزيز العليم[

فبعلمه سبحانه وضع الخطة ، و بعزته أجراها.

بين العلم والهدى:

[97]مواقع النجوم ، وما في السماء من كواكب سيارة ، و نجوم ثوابت ، بالرغم من دوران الشمس و القمر ، انها من آيات الله العظيمة ، اننا نهتدي بها في ظلمات البر و البحر ، وهذا الاهتداء يتم لعلمنا بثبات هذه المواقع ، وبأنها دليل على وجود ثبات في سنن الكون ، و بالتالي على أن للكون أنظمة بالغة الدقة ، وأن هذه الآيات وضعها الله ليهتدي البشر اليها و ليستفيد منها ، أفلا تدل هذه الآيات على الواحد القهار ؟! اذا كنا نهتدي بالنجوم على السبل السليمة في الحياة ، افلا نهتدي بها على من وضع هذه السنن ما دامت طريقةالاهتداء واحدة ، وهي الانتقال من العلامة الى ما ورائها من الحقيقة ؟!

]وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون]لانه من دون العلم والمعرفة لايمكننا بلوغ معرفة الحقائق ، وفي هذه الآية جاء التأكيد على دور العلم خصوصا في معرفة الآيات المفصلة.

دورة المياه:

[99]التنوع في الحياة دليل آخر على حكمة الله و علمه و قدرته ، فبالرغم من وحدة الهدف العام ، فانك ترى كل شيء في الحياة يحقق هدفا معينا يتكامل مع سائرالاهداف فـي وحدة شاملة لها جميعا ، واننا نجد الاهداف كلها تتحقق بذات الوسائل الواحدة ، و ذلـك عن طريق احداث تغييرات بسيطة في طريقة تركيبة المواد مع بعضها ، و في كمية كل مادة وما أشبه ، فالارض تسقى بماء السماء ، فالماء هو الماء ، و الارض هي الارض ، ولكن النبات يختلف لونه و طعمه و فائدته ، و الهدف من خلقه ، وكل نبتة أنشئت لهدف محدد يتكامل ، مع سائر أنواع النباتات.

]وهو الذي أنزل من السماء ماء[

ترى كم هي حكمة رائعة ان ينزل الله من السماء ماء ، و الماء منبعه في الارض ، وهو مالح ، ولكن الله يحليه بالتبخير ، ثم يرفعه الى السماء ، و يضيف اليه هناك المواد الضرورية للزرع ، بعضها عن طريق احتكاك السحب ببعضها مما يحدث الرعد ، و بعضها عن طريق امتزاج الماء بالهواء ، ثم حين تمطر السماء يتوزع هذا الماء في كل أرجاء الارض السهل و الجبل ، و المدينة و الصحراء ليحقق اهدافا مختلفة.

اولا تهدينا هذه الاية الى ربنا القدير ، ثم أنظر الى آثار الماء الذي يهبط من السماء.

]فأخرجنا به نبات كل شيء[

كل شيء ينمو بهذا الماء . الزرع والضرع والحيوانات.

]فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكما[

كالحنطة و الشعير و الذرة وما اشبه مما يتراكم الى بعضها لفائدة المجتمع ، حتى يكاد البشر يعجز عن استيعاب الفائض منه ، فاذا ببعض الدول تحرق المزيد منها ، و بعضها تلقيه في البحر.

]ومن النخل من طلعها قنوان دانية[

تعطيك تمرها بسهولة بالاضافة الى روعة جمالها ، و سائر فوائدها.

]و جنات من أعناب و الزيتون و الرمان مشتبها و غير متشابه]و لحظة ولادة الحياة لحظة رائعة ، لانها أقرب الى الفهم العميق لطبيعة الحياة ، ولما فيها من حكمة ونظام ، ولما تحتوي عليها من شواهد عظيمة على طبيعتها المحدودة المحكومة بما فوقها من ارادة و علم و قدرة ، لذلك يأمرنا الله بالنظر الى هذه اللحظة.

]انظروا الى ثمره إذا أثمر وينعه[

ان هذه العبر المنتشرة في الحياة بحاجة الى الايمان بها حتى يعرفها و يستوعبها البشر اذ من دون الايمان يقتصر نظر البشر الى الحياة ذاتها ، دون النظر الى ما ورائها من حكمة و غاية معقولة ، أو لما فيها من شهادة على الرب الكريم.

]ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون[

الامام علي (ع) المثل السامي للمؤمن الصادق كان يقول:

)ما رأيت شيئا الا و رأيت الله قبله و بعده و معه. (

أسماء الله الحسنى

هدى من الآيات

اذا تدبرنا في الآيات الكونية التي أشار اليها القرآن الحكيم في الدروس الماضية ، نجد ان الله يعطينا معرفة بذاته ، و يأتي هذا الدرس ليذكرنا ببعض الصفات الالهية التي يعرفها المؤمن بسبب معرفته بربه ، و كلما زادت معرفة الانسان بالله زادت معرفته بصفاته وأسمائه الحسنى ، ومن ثم معرفته بسائر المعارف التوحيدية كالعدل و النبوة و الامامة و المعاد وما اليها.

في البداية يذكرنا القرآن بان الله هو الذي خلق الجن ، ولكن الساذجين من البشر يزعمون بان الجن شريك ، كما انهم قالوا " كذبا " ان لله بنين و بنات ، وهذا يدل على عدم علم بالحقيقة ، ولا معرفة بالله المتعالي عن الصفات السيئة.

هو الذي خلق الاشياء من العدم خلقا ابداعيا دون أن تتولد منه الاشياء ، حتى يحتاج الى آخر مكمل له يتولد منهما معا ، كما البشر بحاجة الى صاحبة حتى يتولد منهما الطفل.

و أخيرا فان الله هو الذي خلق كل شيء ، و أحاط بكل شيء علما ، وعلى البشر ان يخلص عبادته لله ، لانه الرب ، ولانه الوحيد ، ولانه مهيمن على كل شيء يدبر أمر الخلق ، و يجري فيه السنن و الانظمة فهو علينا وكيل.

بينات من الآيات

حين يجهل المخلوق قدر خالقه ؟!

[100]القوى الغيبية التي يشعر البشر بوجودها (بطريقة أو بأخرى) يجهل عادة طبيعتها ، و يزعم انها قوى منفصلة عن قدرة الله المهيمنة على الحياة ، أو حتى أنها آلهة و شريكة للاله العظيم في العلم و القدرة ، وقد يتطور هذا الزعم الى خرافة عبادة الجن و المرتبطين بالجن ، من الناس كالكهنة وسدنة المعابد ، الى جانب الايمان بالله و برسالاته.

بينما الحقيقة : ان هذه القوى الغائبة عن الأنظار ، سواء كانت عاقلة و مريدة كالجن و الملائكة ، أو لا كقوة الكهرباء و الجاذبية وما أشبه ، انما هي مخلوقات كسائر المخلوقات المادية ، منتهى الامر ان علمنا بها محدود.

]و جعلوا لله شركاء الجن وخلقهم[

الله خلق الجن ، لانه هو الاخر يتميز بذات الصفات التي تتمثل فـي سائر الموجودات مثل : المحدودية و الجهل و التعدد و التكاثر ، وكلها صفات المخلوق ، و المخلوق سواء كان ظاهرا أو غائبا فهو المخلوق.

]و خرقوا له بنين و بنات بغير علم[

نسبوا الى الله تهمة بعيدة جدا عن الحقيقة ، بل هي خرق للفطرة ، ولما هو معلوممن سنن الحياة : تلك هي أن بعض هؤلاء الشركاء قريب الى الله ، فزعموا انها ابناء لله أو بنات له - سبحانه - وليس أصحاب هذه التهمة على علم بهذه الفكرة الخرقاء ، وهنا يظهر مدى بطلان كلامهم . إذ كيف يمكن ربط شيئين ببعضهما ، و الادعاء بأن هذا قريب من ذلك ، من دون اي دليل أو شاهد ، وربما تشير الآية الى أن طاعة أحد باسم طاعة الله انما هي شرك و ضلالة ما دام الله لم ينزل على ذلك سلطان وبرهانا مبينا .

ثم ان نسبة شيء الى الله سبحانه ، باعتباره بنتا أو أبنا له لدليل علىعدم معرفتهم بالله ، اذ ان من يعرف الله يعرف أنه منزه عن الشريك ، و متعال عن صفات الخلق ، ان هذه الصفات هي صفات المخلوقين ، ولاننا نجد مثل هذه الصفات في المخلوقات ، نعرف ان الخالق منزه عنها ، ولو نسبنا الى الله سبحانه مثلها ، اذا لاحتاج هو الاخر الى رب أعلى ، لانها تدل على انه بدوره مخلوق مثل سائر المخلوقات .

]سبحانه و تعالى عما يصفون [

و ينسبون الى ربهم من صفات المخلوقين.

الخلق وليست الولادة:

[101]يبدو ان الآية السابقة نفت الفكرة القائلة بأن هناك في عالم الالوهية درجات ، كل اله له درجة ، بعضها كالأب و بعضها كالأبن ، بيد ان هذه الآية تنفي وجود التوالد و التناسل ، فيذكرنا القرآن هنا : بأن نشوء الخلق ليس كما يزعم المبطلون من أنه عن طريقالتوالد ، بل هو عن طريق الخلق المباشر.

]بديع السموات و الارض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة]٣ + ١٥٠

اذ ما من شيء يلد الا وكان له صاحبة . اذ من دون ذلك من المستحيل الولادة ، اذ يسبب في نقصان الشيء الاول و انتهائه ، واذا كان ربنا بحاجة الى جزء مكمل حتى يخلق الخلائق ، فما الفرق بينه وبين أي مخلوق آخر ، ولماذا أساسا نعتقد بوجود اله ؟ ان المخلوقات تشهد على عجزها و حاجتها الى الخالق و بحاجتها الى بعضها ، ولا بد ان يكون الخالق بريئا من ذلك ، ولنفرض مثلا حاجة شيء الى شيء آخر لتتم عملية خلق شيء ثالث ، افلا يحتاجون اذا الى قوانين و انظمة لهذا التزاوج حتى يتم و كيف وبأي قدر وكمية ؟ بلى ومن يضع هذه القوانين ، ومن يجريها ؟ أو ليس شخص ثالث ؟ وهو أعلى منهما ؟ اذا هو دون هذين الشخصين.

]وخلق كل شيء[

خلقا مساويا ، فنسبة أي شيء اليه هي نسبة سائر الاشياء دون زيادة أو نقيصة فهو خالقهم جميعا.

]وهو بكل شيء عليم[

[102]وهذه بالضبط ، صفات الخالق من دون المخلوقين ، انه بريء عن نسبه البنين و البنات اليه وعن الاولاد و الصاحبة ، وعن الضعف و الجهل ، فهو الذي تشهد فطرتنا بأنه الخالق الذي نتطلع اليه.

]ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل]و العبادة لا تنبغي الا له ، لانه خالق الاشياء ، ولانه الذي بيده أمور الاشياء ، فهو الذي جري عليها الانظمة ، و يهيمن على أمورها اليومية.

القريب البعيد:

[103]و صفة حسنى لله ، هي صفة القرب المتعالي ، فبالرغم من ان الابصار لا تدركه لانه متعال عن الحدود و الابعاد و الاتجاهات و الابصار ، كما العقول لا تدرك شيئا مطلقا لا حدود له ولا أبعاد ، بالرغم من ذلك فهو قريب من الاشياء ، فهو يدرك الابصار ، و يحيطعلمه بما في العقول و الافكار.

]لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار[

وهذه الصفة تدل على منتهى اللطف ، حيث انه يدرك كل شيء لانه يحيط بكل شيء.

]وهو اللطيف الخبير[

مسؤولية البشر في الهداية

هدى من الآيات

بعد ان ذكرت آيات الدرس السابق بالله سبحانه ، جاءت هذه الآيات لتؤكد المعنى الذي سبق في الدروس السابقة وهو أن وجود الآيات لا يكفي في هداية البشر ، بل إذا لم يرد الانسان لنفسه الاهتداء ، فانه لا يهتدي و هو المسؤول عن ذلك.

و تصريف الآيات اي ذكرها بصفة مكررة انما هو بهدف توضيح الحقائق لمن يعلم أنه يجب عليه أن يتبع الحقائق ، دون خوف ممن يخالفها كالذين أشركوا ، و المشركون لا يعجـــزون اللــه اذ لو شاء الله ما اشركوا ، فشركهم انما هو بــإذن الله (دون ان يكون برضاه سبحـانه) و الرسول ليس مسؤولا عن شركهم ، ولا هو وكيلهم ، انما عليه ان يبلغهم الرسالة ، ثم اذا لم يستجيبوا يعرض عنهم الى غيرهم.

ان الشرك مضلل لأهله حتى انهم أصبحوا يقدسون أصنامهم ، ولا يجوز سب هذه الاصنام لأنهم آنئذ سوف يسبون الله ظلما و عدوانا . وان الله الذي سوف يرجعون اليه سوف يجزيهم بما فعلوا ، وكيف أنهم خالفوا الحقائق.

و يبـــدو أن معرفة العلاقة المعقولة و المناسبة بين من يؤمن و بين من يشرك . ذا أمر ايجابي في استيعاب المؤمنين للحقائق . اذ من دونها ينشغل ذهن المؤمنين بمصير المشركين.

بينات من الآيات

بصائر الرسالة ومسؤولية الاهتداء:

[104]البصيرة هي الآلة التي تساعد على التبصر ، و القرآن بصائر ، لانه يحتوي على مناهج للفكر و آيات للحقيقة ، و القرآن يزكي النفس ، و يرفع عنها حجاب الكبـر حتى ترى الحقيقة.

]قد جاءكم بصائر من ربكم[

و الكلمـة المشهورة في أدبنا الحديث و التي تستخدم مكان البصيرة هي الرؤية ، بيد ان البصيرة (و جمعها بصائر) اقرب الى المعنى المطلوب ذلك لان الرؤية تطلق حينا على الابصار ، و حينا على اتخاذ رأي ، بينما البصيرة هي التي تساعد على عملية الابصار ، و مشاهدة الحقائق عن كثب من دون احتمال للخطأ.

و القرآن لا يحملك رأيا ، أو يفرض عليك اتجاها فكريا ، بل يساعدك على تلمس الحقيقة مباشرة من دون وسائط ، بيد ان لارادتك دورا في ذلك ، فان شئت استخدمت البصيرة ، والا فانت كمن لا يستخدم عينه فلا يرى.

]فمن ابصر فلنفسه ومن عمي فعليها[

و الرسول هو الآخر لا يهدف تحميل رؤية عليك لانه ليس حفيظا عليك . أي إن الله لم يكلفه بحفظك و هدايتك ، بل انت المسؤول عن نفسك.

]وما أنا عليكم بحفيظ[

[105]و الآيات هذه بينها الله ببيان واضح.

]وكذلك نصرف الآيات و ليقولوا درست و لنبينه لقوم يعلمون]قالوا في معنى الآية : ان تصريف الآيات ، و ذكر بعضها بعد بعض وتنزلها بصورة تدريجية يعتبر زيادة في شقاء الضالين و زيادة بيان للمؤمنين.

ذلك لان الكفار كانوا يتخذون من تنظيم نزول القرآن ذريعة لكفرهم فيقولون : ان النبي يتعلم من العلماء و يدرس عندهم و يتفكر في المسائل و يدرسها ثم يحولها الى آيات . و ألا فلم لم يأتي بها جملة واحدة كما فعل موسى.

[106]و على البشر ان يتبع الوحي دون نظر للآخرين الذين لا يؤمنون ، لأن اولئك مسؤولون عن أنفسهم ، وانا بدوري مسؤول عن نفسي ، فالانشغال بهؤلاء قد يجعلني انحرف قليلا أو أترك جانبا من الوحي ، ان المقياس الاول والآخر هو الحق ، و عـلى البشر أن ينظر اليهفقط في مسيرته.

]اتبع ما أوحي اليك من ربك لا إله إلا هو و أعرض عن المشركين][١٠٧] و التفكر في المشركين و في مصيرهم ، و أنه لماذا يذهبون الى النار بالرغم من أنهم بشر مثلنا ؟ هذا التفكر يجعلنا نشتبه في بعض

الحقائق ، أو لا أقل لا نتبع مسيرتنا الى نهايتها ، لذلك يذكرنا القرآن بأن شرك المشركين ليس بمعجز لله ، بل هو ضمن اطار اذن الله و هيمنته على الكون ، و اذا كان على البشر أمر اكثر من مجرد دعوتهم الى الايمان . لكان الله سبحانه يفعل لهم ذلك.

]ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا ومآ أنت عليهم بوكيل]فانتظارهم خطأ لأننا لسنا مكلفين بحفظهم او وكلاء عنهم.

لا تسبوا المشركين:

[108]دع المشركين في ضلالهم ، انهم بعد أن أرادوا الشرك و اختاروه على الهدى ، وكلهم الله الى انفسهم ، و زين لهم الله أعمالهم ، لذلك فهم يقدسون منهجهم في الحياة ، ومن الخطأ أن يسب المؤمن مقدسات المشركين ، لانه سوف يسبب في رد الفعل من جانبهم ، فيسبواالله ظلما و عدوانا ، و لأنه قد زين لهم هذه الأعمال ، فلماذا نكلف أنفسنا ، و أننا نعلم ان مصير هؤلاء الى الله حيث يحاسبهم و يجازيهم ؟!

]ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون]اذا : يجب الاعراض عن المشركين و الاستمرار في بناء الكيان الاسلامي ، بعيدا عنهم لانه لا أمل فيهم ، و حسابهم غدا على الله.

لماذا المطالبة بالآيات الجديدة ؟

هدى من الآيات

في سياق الحديث عن ضرورة الاعراض عن المشركين باعتبارهم معاندين ، في هذا الدرس يتابع القرآن هذا الحديث ببيان ان المشركين يحلفون بالله - الايمان المغلظة - انهم سوف يؤمنون بشرط نزول آية معينة عليهم ، أو دليل قوي ، بيد أنهم يكذبون ، و بالرغم من ان اللهقادر على ان ينزل آية مما يطالبون بها ، و لكن ما الضمان لقبولها ما داموا يرفضون الآيات الواضحة ، و تحدثنا الآية الثانية ، عن أن الكفر بالآيات يسبب في تبديل القيم و المقاييس ، و عدم قدرة الفكر على التمييز ، ذلك لان الكفار طغاة و الطغيان يحجب العقل ، ويدع القلب مظلما.

وفي الآية الاخيرة : يذكر القرآن انه حتى لو أنزل الله اكثر الآيات وضوحا ، مثل نزول الملائكة ، و تكلم الموتى ، و حشر كل شيء أمامهم ، فانهم لا يؤمنون لأن الجهل محيط باكثرهم.

بينات من الآيات

الايمان الكاذبة:

[109]التعرف على طبيعة المشركين ، يساعدنا في تكوين علاقات سليمة معهم ، انهم انما يكفرون استجابة لشهواتهم ، أو تسليما لضغوط مجتمعهم ، أو خشية من طاغـوت حكومتهم أو ما أشبه ، و لكنهم يبررون كفرهم بأنهم غير مقتنعين بالحق ، أو ان الآيات و المعاجز غيركافية لهم ، و لكي يبالغوا في تغطية كذبهم ونفاقهم ، لا يدعون قسما الا ويحلفون به على صدق نواياهم و هم كاذبون.

]و اقسموا بالله جهد أيمانهم[

اي بآخر مايستطيعون عليه من الايمان.

]لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها [

أي آية معينة يذكرونها أو آية يصدق عليها كلمة آية - في زعمهم - مثل ان تكون آية كبيرة جدا كاحياء الموتى.

]قل انما الآيات عند الله[

فالله قادر على أن يأتي بآية ، و لكنه لا يأتي بها الا حين تقتضي حكمته ، و ليس كلما شاءت أهواء الكفار ، أو حتى ارادة الرسول (ص) الحريص جدا على هداية الناس.

]وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون[

وأي ضمان نملكه نحن لأيمانهم بعد مجيء مثل تلك الآية ، علما بأن هؤلاءكفروا سابقا بكل الآيات الواضحة.

محكمة الفطرة:

[110]للانسان فطرة أولية أنعم بها الله عليه ، و بهذه الفطرة يميز البشر الخير من الشر ، و الهدى من الضلالة ، و اليها يحتكم أهل الارض حين يتنازعون ، فالفداء و الاحسان و الشجاعة و السخاء و البطولة ، صفات جيدة ، وعكسها رذيلة ، تجد هذا عند المسلم و الكافر ، والحضري و البدوي ، و حتى الانسان البدائي شبه الوحشي ، انها مقاييس عامة زود الله البشر بها ليتلمس بها طريقه.

و بهذه الفطرة الاولية عرف البشر ربه ، و آمن به ، و لكنه بعد أن تعرض لضغط الشهوات و الطغاة و الخرافات . استسلم لها و كفر بالله ، و حين كفر بربه أرسل الله اليه الرسل ، فمنهم من آمن وتحدى الضغوط ، ومنهم من كفر ، و هؤلاء لم يفقدوا نعمة الرسالة السماوية فحسب ، بل أن الله سبحانه أفقدهم نعمة الفطرة الاولى ايضا.

]و نقلب أفئدتهم و أبصارهم [

الأفئـــدة هي القلوب التي كانت سابقا محلا للفطرة النقية ، و للمقاييس السليمة ، اما الابصار فهي الحواس التي تتبع القلوب ، فاذا تحولت و تبدلت معايير البشر ، فان حواسه هي الاخرى تتحول دون ان يقدر على الاستفادة السليمة منها ، و آنئذ يصبح هؤلاء بسبب فقدان الفطرة.

]كما لم يؤمنوا به أول مرة [

و السبب ان هؤلاء طغوا ، والطغيان يسبب قلب الافئدة ، و تبدل المقاييس.

فالبشر الذي يتبع عقله ، و يتبع الحق ، و الحق هو هدفه ، مزود بمقاييس لمعرفة هذاالحق ، و لكنه حين يتبع شهوته ، و يتبع ذاته ، و الذات الطاغية كل هدفه ، و مقياسه في الحسن و القبح ، و الخير و الشر ، و الفضيلة و الرذيلة ، هو الاقرب الى نفع ذاته و تحقيق هدفه اللامقدس من وراء شهواته ، و تكون أصول دينه ثلاثة : الطعام و الشراب و الجنس ،و أحكام دينه هكذا . الحلال ما حل باليد ، و الحرام ما حرم منه الانسان ، ان مصير هذا الانسان ، مصير الدول الطاغوتية في العالم التي تصنع لذاتها مقاييس خاصة بها ، و قوانين دولية و محاكم ومجالس أمن .... ألخ . كلها بهدف دعم السلطات الطاغوتية على رقاب الجماهير المحرومة ، لذلك يحذر القرآن من مغبة الكفر بالآيات و يقول:

]و نذرهم في طغيانهم يعهمون [

لا يتلمسون طريقهم لأنهم طغوا ، بل ان هؤلاء يفقدون شيئا فشيئا المقاييس لمنفعة ذواتهم ، فيخربون بيوتهم بأيديهم و أيدي المؤمنين.

[111]و دليل كذبهم و نفاقهم :أنهم لو أنزلت عليهم اكثر الآيات إثارة لم يؤمنوا.

]ولو أننا أنزلنا اليهم الملائكة و كلمهم الموتى]بل اكثر من هذا لو أن الله حشر عليهم الاموات حتى

يقابلونهم بالحقيقة الصريحة ، كما اذا حشر عليهم الطيور فآمنت بالرسالة مع ذلك ما آمنوا.

]و حشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله]فيهديهم هداية مفروضة عليهم .

]ولكن أكثرهم يجهلون[

الاصغاء الى زخرف القول
هدى من الآيات

الدنيا دار ابتلاء ، والهدف مما فيها من صراع ، هو فضح جوهر الاشخاص حتى يكون الثواب و العقاب وفق العمل لا وفق علم الباري سبحانه ، ولقد قيض الله لكـــل رسول عدوا . ليكون قدوة لمن لا يؤمن بالآخرة . كما الرسول قدوة و امام للمؤمنين ، واعداء الرسالات يوحي بعضهم الى البعض اقوالا مزخرفة يتبعون بها غرور أنفسهم ، وهذا الكلام يشبه الوحي الالهي في انه مقدس عند من لا يؤمن بالآخرة.

و هنا جعل القرآن الخط الفاصل بين المؤمن و الكافر الايمان بالآخرة ، و هذا يعني ان غير المؤمنين بالآخرة لا يمكنهم الايمان بأي شيء آخر من الحقائق.

و يأتي هذا الدرس ليبين جانبا من فلسفة الشرك عند اولئك الذين يرفضون الايمان بالله و الرسالة . حتى ولو جاءتهم كل آية ممن ذكرهم القرآن الكريم في الدرس السابق.

بينات من الآيات

المعارضة المنظمة:

[112]لنعرف ان هناك معاندين لا ينفع معهم الجدل ، و أن موقف هؤلاء لا يعتمد على دليل مضاد فلا يبعث موقفهم في انفسنا الوهن و الشك ، فنقول : لعل حديثهم ينطوي على جانب من الصحة فنخرج - لا سمح الله - من الايمان ، لذلك جاء هذا الدرس وما مضى ليؤكد على أنالله سبحانه ليس فقط حرم هؤلاء من نعمة الهداية ، و سلبهم نعمة الفطرة النقية ، و انما ايضا نظم هؤلاء في قيادة مناهضة لامامة الرسول ، و جعلهم يقلدون اساليب الرسالة حتى ان بعضهم يوحي الى البعض الاخر.

]و كذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس و الجن]و السؤال : كيف جعل الله ذلك ، هل خلق أعداء ليكونوا مناهضين للرسالة ؟

ربما الجواب السليم هو : ان هذه سنة من سنن الله في الحياة ، يذكرها القرآن هنا لنكون على بصيرة منها لئلا نفاجئ بها ، و لان كل السنن في الكون من صنع الله لذلك يعبر عنها القرآن دائما بمثل هذه التعبيرات.

ان الرسالة التي تنتشر دون مقاومة أعداء لابد ان يتهم أصحابها أنفسهم ، لان هذه السنة لم تتحقق فيهم ، و ان الرساليين الذي ينتظرون عملا سهلا و ميسورا . انهم على خطأ ان شيطان الانس يتمثل في مجتمع الطاغوت ، و شيطان الجن يتمثل في أهواء الجبت و المنافقينوما أشبه.

]يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا[

وحي الرسالة يتمثل في البصائر التي تساعد البشر على رؤية حقائق الحياة ، بينما وحي أعداء الرسالة و ثقافاتهم الاسطورية (المقدسة عندهم) يتلخص في أقوال مزخرفة ذات أدب خاو مشبع بالكلمات المفخمة ، غير ذات المحتوى ، اما روح هذه الكلمات فيتمثل في الغرور ، ونفخ الانانية الباطلة ، ان هذا مقياس صادق لتمييــز الثقافة الرسالية عن الجاهلية.

حيث ان الاولى تدعو الى تقديس الحق ، و التواضع له ، و نسيان الذات و الارض ، و الدم و اللغة ،

والثروة و ما أشبه من اجل احقاق الحق ، بينما الثانية تقدس كل شيء مادي غير الصدق و الحق و الخير وما أشبه.

]ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون[

فـلا نتصور ان هناك ضرورة تدعو الى اسكات هؤلاء ، و تصفيتهم أو هدايتهم ، اذ لوشاء الله لفعل ذلك ، فهو قادر على ذلك و انما لم يفعل لحكمة بالغة.

الايمان بالآخرة و مسؤولية الضلال:

[113]ومن سنن الله في الحياة ان نعيق ائمة الضلال ، يستقطب الهمج الغثاء الذين يفقدون الايمان بالآخرة ، فيكون امتحانا لهم ايضا.

]و لتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة[

انما ركز القرآن على الايمان بالآخرة ، لان السبب في عدم الايمان بالله وهو مصدر كل معرفة و ايمان ليس عدم وضوح الشواهد ، فالله اكبر شهادة من كل شيء ، و انما عدم الخوف من العاقبة ، وأساسا قصر النظر ، و محدودية الرؤية بما في عاجل الدنيا ، بل عاجل اللحظة التي يعيشها الشخص من الدنيا.

]و ليرضوه و ليقترفوا ما هم مقترفون[

من الجرائم حتى يلاقوا جزاءهم العادل بعد عمل و علم بذلك.

و انما قال ربنا : " و لتصغى اليه افئدة " ولم يقل اسماع لان هذه الافكار لمزخرفة تتناسب وخوائهم العقائدي فيتقبلونها بأفئدتهم.

اتباع الاكثرية الضالة

هدى من الآيات

بعد ان ذكر القرآن الحكيم الوحي الشيطاني في الدرس السابق ذكرت هذه الآيات بالــوحي الالهي الذي لا يجوز اتخاذ غيره لانه كتاب مفصل فيه تفصيل كل شيء ، فلا نحتاج الى غيره وهو لاريب فيه بالنسبة للمؤمنين . ففيه الثقة كلها ، ثم انه يمثل الحق و العدالة ، بالاضافة الى كل ذلك فهو كتاب دائم ، لا يتغير وفق تطورات الزمان و المكان ، لا ن الذي وضعه هو الله الذي وضع سنن الحياة ، وهو السميع العليم و علمه جديد قديم.

و في مقابل رسالة الله لا نجد سوى تخرصات الناس التي لا نجد فيها الا الظنون و الخيالات الفارغة التي لا يقدرون هم أنفسهم من اليقين بها و الايمان بصحتها.

و الله سبحانه اعلم باتجاهات الناس الضالين منهم و المهتدين لان السبيل هو سبيل الله ، و المقياس في الضلالة أو الهدى هو الله الحق ، فهو اعلم بذلك الحق ، و أولى بأن نساله سبحانه في هدايتنا الى السبيل الاقوم المؤدي اليه سبحانه.

ان البشر يبحث عادة عن الحق و لكنه يضل عنه ، ولان الناس يختلفون في الحق ، ولا يمكن ان يجعل كلام بعضهم مقياسا و ميزانا لمعرفة و تمييز الحق عن الباطــل ، إذا فلنعد الى الله رب الناس ، ومن اليه منتهى طريق الحق ليهدينا الى الحق.

بينات من الآيات

أنزل عليكم الكتاب مفصلا:

[114]العالم يموج بالنظريات ذات الاتجاهات المتناقضة ، و الحياة تتزاحم فيها السبل المختلفة ، و الانسان يولد مرة واحدة و يختار سبيله ، و النظريات التي يعتنقها يتحمل شخصيا مسؤوليتها ، و الناس لا يمكن ان يكونوا حكما على بعضهم لانهم يختلفون مع بعضهم اختلافا واسعا ، انما علينا ان نتوسل الى قوة اعلى هي قوة الله لتكون مصدر الهامنا بالنظرة الصحيحة ، و مصدر هدايتنا الى السبيل الاقوم.

]افغير الله ابتغي حكما[

و الله تعالى لم يبخل بالهداية على عباده ، بل لم يكتف بالهداية المجملة ، وانما فصل الهداية تفصيلا.

]وهو الذي انزل اليكم الكتاب مفصلا[

فيه علم كل شيء بحدوده المتغيرة ، و حسب مراحله الزمانية ، فالقرآن لا يكتفي ببيان قبح الظلم وانما ايضا يفصل الحديث في انواع الظلم وتفاصيل العدالة.

و الكتاب هذا لاريب فيه فبامكان البشر أن يؤمن به ببساطة ، و دون تعقيد بشرط ان لا يكون معقدا و معاندا.

]والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق فلا تكونن منالممترين[

الذين يجادلون في الحق بغير هدف سوى الجدل ، لانه لو لم يكن البشر ممتريا يستهدف بالمراء و الجدل ، فانه سوف لا يشك في الكتاب.

الصدق و العدل وسيلة و هدف الرسالات:

[115]تتميز كلمات الله ، وخلاصة وحيه الى البشرية بأنها تامة ، و التمام بمعنى وفائها بكل الحاجات البشرية ، و أنها صادقة تطابق الحق ، و الحق هو ما في الكون من أنظمة و سنن ، وبما ان ربنا هو جاعل هذه الانظمة ومجريها ، فانه سبحانه هدى البشر اليها عبر كلماته بصدق ، و ان كلمات ربنا سبحانه عدالة ، حيث انها تعطي لكل فرد حقه ، و لكل طائفة و قوم و جيل حقه ، ذلك لان الله فوق الميول و الشهوات ، و قادر و حكيم و عليم ، لذلك لا يوجد لديه سبحانه اي سبب للظلم ، من عجز وما أشبه.

]و تمت كلمت ربك[

المحتوية على رسالاته.

]صدقا[

أي حقا.

]و عدلا[

الصدق هو وسيلة الرسالة و العدل هو هدفها.

]لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم[

فبسمعه يحيط علما بكل صغيرة وكبيرة من حوادث الحياة ، و بعلمه الواسع يحيط باصل الحياة و أولها و آخرها و .. و .. ، فعلمه جديد قديم . محيط بالجزئيات و الكليات ، فهو اذا تام الكلمات صدقا و عدلا.

عندما لا تتبع رسالتك

[116]الرسالة الالهية التامة قائمة على اساس الصدق و العدل ، الصدق في القول و العمل ، و العدل كهدف لهذا الصدق ، اما الثقافات الجاهلية ، فانها قائمة على أساس الظن و التخرص ، فما هو الظن ؟

الظن : هو التصور النابع من الاهواء الذاتية و الشهوات و الضغوط ، أو هو ما تصنعه انت في ذهنك . لا لكي تطبقه على الواقع الخارجي ، بل ليكون بديلا عنه ، مثلا : تصورات الشعراء عن الحياة ظنون . لانها لا تهدف كشف الحياة كما هي ، بل تهدف تصويرها حسب مذاق الشاعر ، و لذلك قيل " الشعر أعذبه أكذبه " كذلك حين تتصور أن نظام الطاغوت يجب ان يبقى لا لشيء الا لانه يحقق مصالحك الذاتية ، وقد تأتي بأدلة متشابهة لأثبات ذلك ، و لكنها جميعا تأتي لأثبات قصور مصدرة حب الذات لا كشف الحقيقة.

و الظن يختلف عن العلم في أنه قائم بذاته ، بينما العلم قائم بالحقيقة ، مثلا : علمك ببزوغ القمر قائم على أساس وجوده ، فاذا أفل زال علمك ، أما اذا تصورت القمر علـــى جدار بيتك ، فان هذا التصور قائم بذاته ، ومثله كلوحة جميلة تصور القمر . سواء كان هناكقمر أم لا.

و البشر قد يتبع الخرص و الاحتمال ، وذلك حين لا يرى ضرورة لكشف الحقيقة ، فيفترض افتراضات حولها ، مثلما كان الناس يقولون عن السماء و النجوم اشياء لا برهان لهم بها سوى الاحتمال.

و أكثر البشر يتراوحون بين الظن و الخرص ، لانهم لا يملكون الهدى الرسالي ، ذلك لان الهدى كمال لا يبلغه الا من جاهد نفسه و زكاها.

]وان تطع اكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون][١١٧] واذا كان اكثر البشر ضلالا ، لانهم يتبعون الظن ، فكيف يمكن ان يميز الانسان طريق الحق عن الضلال ، ان عليه ان يتوسل بالله لانه الحق الذي يميـــز الضلال عن الهـدى.

]ان ربك هو اعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين]ولان منتهى السبيل ، هو الوصول الى الله سبحانه ، فهو دون غيره يهدي الناس الى السبيل ، و يحدد من يضل عنه أو يهتدي اليه.

إتباع الهوى و أكتساب المآثم

هدى من الآيات

يضرب الله مثلا على بصائر الدرس السابق ، بان السبيل الى الحق هو السبيل الذي يؤدي الى الله ، و الله سبحانه أعلم به ، و أن ما سواه ضلالة و ظن و تخرص لذلك بين حكم الطعام الذي هو أبسط الضرورات ، و مع ذلك يحرم جماعة أنفسهم منه لبعض الظنون التي لم ينزل الله بها سلطانا ، فجاء أمر صريح بأكل ما ذكر اسم الله عليه ، ثم تساءل القرآن عن سبب الاحجام عن أكل ذلك بعد أن أعطانا الرب قائمة بالمحرمات التي تصبح هي الاخرى حلالا عند الضرورة ، و لكن مع ذلك فان البعض يضلون بسبب أهوائهم.

ان المحـرم هو الاثم الذي فصله القرآن (ظاهره و باطنه) و كذلك الشرك بالله ، ومن مظاهره ان تذبح الذبيحة بأسم الاصنام ، و اولياء الشياطين يجادلون اهل الحق في ذلك بوحي من الشياطين ، و يشككونهم في تحريم ما ذبح على النصب ، أو الذي لم يذكر اسم الله عليه، و ان طاعة الشياطين في حكم الشرك بالله العظيم.

بينات من الآيات

قاعدة الاضطرار:

[118]قـد تميل النفس البشرية الى الانطلاق (كما في بداية انفجار الحضارات (فتحلل كل حرام ، ولا تتقيد بقيود الاخـــلاق و الاداب ، و قـد تنعكس فتميل نحو الانغلاق فتنكمش (كما في حالات التخلف) فتحرم كل شيء ، و تستقبح حتى الطيبات ، اما المؤمنون فانهم يتبعون الحق في حالات الانطلاق و الانغلاق معا ، دون الاتباع لأهوائهم ، و لطبيعة نفسياتهم في الظروف المختلفة ، والحالات الاجتماعية المتباينة.

و القرآن يربط بين الايمان بالله ، وبين أكل ما ذكر أسم الله عليه ، لكي يكون المؤمن ملتزما في تصرفاته - سلبا و ايجابا - بالمنهج السماوي.

]فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ان كنتم بآياته مؤمنين]اي تلك الآيات التي أشار اليها القرآن في الدرس السابق ، و اذا كنتم مؤمنين بان الله أعلم بسبيل الهدى عن الضلالة ، فاتبعوه فيما يأمركم به.

[119]يتسائل القرآن عما يدعو البشر الى الامتناع عن أكل غير المحرمات.

]و مالكم الا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه و قد فصل لكم ما حرم عليكم الا ما اضطررتم اليه]اي انه بالرغم من حرمة بعض الطعام الا أنه حلال لمن يسبب تركه له ضررا كبيرا عليه فهـــو مضطر اليه ، فكيف بالطعام الحلال الذي لا يجوز تركه لمجرد اهواء و نفسيات ضيقة.

ومن الناس من يتبع أهواءه دون هدى الله ، و دون علمه ، فيحرم على نفسه الطيبات ، لا لأن الله حرمها ، ولا لأنه يعلم بضررها.

]وان كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم ان ربك هو أعلم بالمعتدين]الذين يتجاوزون حدود أحكام الله - زيادة أو نقصانا - فهم لا يتبعون منهج الله ، بينما المنهج القويم السالك بالبشرية الى الله ، هو منهج الله سبحانه لانه خالق البشرية ، فالمعيار هو ما عند الله ، لا ما عند البشرية من أهواء.

الاثم بين الظاهر و الباطن:

[120]و كما لا يجوز التقوقع و ترك الطيبات احتياطا و حذرا . كذلك لا يجوز الاسترسال وتناول الرطب و اليابس معا دون فرق ، كما تفعله الجماعات البشرية في ظروف قوتهم و بطشهم (و حضارتهم) كلا .. هناك حدود يجب على البشر أن يقف عندها ، هي حدود الاثم الذي فصله الله سبحانه.

]و ذروا ظاهر الاثم وباطنه [

و الاثم حرام لا لأنه يتشكل بهذه الصورة أو بتلك أو لان اسمه (إثم) أو لأن الناس يتبرؤون منه ، بل لأنه خبيث و اثم في جوهره ، و لذلك لا فرق بين ظاهره و باطنه ، علنه و سره ، سواء كان باسم الاثم ، أو وضع له أسم اخر مثل الاسماء القانونية التي توضع اليوم للاحتكار أو الربا أو الغش ، أو مثل الشرائع الدولية التي تسمح للدول الكبرى استغلال ثروات الشعوب تحت اسماء مشروعة ، مثل الانتداب ، و تدوير الثروات النفطية ، و الأمن الصناعي وما أشبه .. ان الاثم إثـم مهما غيرنا اسمه أو وضعنا له شريعة أو قانونا.

و الاثم يولد الدمار ، سواء سميناه كذلك أم لا.

]ان الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون]من الاثم في عاجل الدنيا و اجل الآخرة.

[121]و الاثم هو ما يشرعه الله لا ما يوحيه الشيطان . مثلا : لا يجوز أكل الذبيحة التي لم يذكر اسم

الله عليها حين تذبح لانها فسق ، يدل على حالة الانفصال بين الانسان و مبادئه ، أو الزعم بأن الدين محصور في المسجد . أما الحياة سواء منها ما يرتبط بالاكلو الشرب ، أو الزواج و الطلاق ، أو السياسة و الاقتصاد ، فانها منفصلة عن الدين . ان كل ذلك فسق و شرك بالله ، و ذلك يعني أن هناك الهان و وليان وقائدان للبشر ، أحدهما للمسجد و الثاني للسوق.

]ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق [و الشياطين يجادلون في الحق ، و يحاولون تمييع الواجبات و أن يقولوا : ما هو الفرق بين الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها و بين الاخرى ؟ دون ان يضعوا القضية في اطارها العـام ، ليعرفوا : ان ذلك مرتبط بكل سلوك البشر .ان يكون سلوكا توحيديـا فيقول:

]قل ان صلاتي و نسكي و محياي و مماتي لله رب العالمين] (١) أو سلوكا شركيا فيقول : ان صلاتي ونسكي لله ومحياي و مماتي لنفسي.

]و ان الشياطين ليوحون الى اوليائهم ليجادلوكم وان اطعتموهم انكم لمشركون]أولا : لان طاعة غير الله في حكم الشرك بالله.

/ 162 (1)الانعام

ثانيا :لان منهج الشياطين هو منهج الشرك ، و الفصل بين الدين و الدنيا ، بين الدين و السياسة ، بين الجامع والجامعة ، بين المسجد والسوق و هكذا.

دور اكابر المجرمين في تضليل الناس

هدى من الآيات

البشر ميت ، و رسالة الله روح تبعث فيه الحياة ، و تعطيه نورا يتحرك به في الحياة الاجتماعية ، و لكن فريقا من أبناء البشر يرفضون هذه الحياة ، و يفضلون البقاء في الظلمات ، و ذلك بسبب أنهم تعودوا على سلوك معين ، و أنهم يستأنسون بذلك السلوك و يحبونه.

و مخالفة الرسالة قد تكون له عوامل فردية ، مثل عامل العادة ، وقد تكون له عوامل اجتماعية و منظمة مثل : خطط السلطة الطاغوتية التي هي في واقعها تجمع يضم مجموعة من المجرمين ، ذات قيادة ماكرة و مخططة ، بيد أن خطط هذه القيادة تنعكس عليها ، و من خططها تكبرها على الرسالة بسبب ادعائها أنها دون الرسول أولى بها ، وما دامت الرسالة لم تهبط عليها فانها سوف تكفر بها ، و الله يقول : "الله أعلـم حيث يجعل رسالته. "

أما جزاء هؤلاء فهو الذل و الصغار و العذاب الشديد بسبب خططهم المضادةللرسالة.

و من عوامل الكفر بالرسالة ضيق الصدر ، و قلة الاستيعاب ، و ضعف الارادة ، و بالتالي الضيق و الحرج.

و الواقع ان ذلك يصيب قلب الفرد بسبب عدم الايمان ، و من عوامل الايمان التذكر و استعادة الحقائق ، حيث يهتدي الانسان بهما الى صراط الله الذي يوفر للبشر الاستقامة و السلامة ، والولاية الالهية (الدعم الالهي. (

و انما يبلغ المؤمن هذه الاهداف بأعماله ، و ليس بمجرد التذكر أو العلم و المعرفة.

بينات من الآيات

أومن كان ميتا فأحييناه ؟!

[122]كما ان البشر كان فاقدا للحركة و النمو ، و بالتالي الحياة ، حتى نفخ الله فيه روحا ، فأصبح بشرا سويا ، كذلك فهو فاقد للعلم والهدى حتى يحييه اللــه ، و يعطيه القدرة.

]أومن كان ميتا فأحييناه و جعلنا له نورا يمشي به في الناس [ان الله يحي قلب البشر بالعقل و الوحي ، و ذلك لعله يستطيع أن يعرف ضــره من نفعه ، و يعرف من يضره و من ينفعه ، و كيف يتصرف مع الناس ، و ينظم علاقتــه معهم.

بيد ان هناك من لا ينتفع بالحياة هذه ، فيبقى في ظلمات دون ان يخرج منها.

]كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها[

اما السبب الذي يجعل الفرد يفضل الظلمات على النور فقد يكون العادة حيث يحب الفرد السلوك الذي كان ينتهجه حتى ولو كان شائنا.

]كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون[

التنظيم الهرمي في جهاز الطغاة:

[123]العامل الثاني للكفر هو وجود ماكرين في المجتمع و المكر هو : التخطيط من أجل تضليل الناس بهدف وصول جماعة أو فرد لمصالحهم الشخصية ، وفي المجتمعات توجد دائما شبكة من المجرمين تجمعهم قيادة واحدة تعمل ضد مصلحة الامة . هذه الشبكة هي التي تشكل واقع السلطة الطاغوتية ، و هي تنشأ ، من فرد أو عدة أفراد زين الشيطان لهم ما كانوا يعملون من سيئات ، ثم نظموا أنفسهم في سلسلة هرمية على رأسها اكبر المجرمين.

]و كذلك[

ربما الاشارة توحي بآخر الآية السابقة ، أو بها جميعا ، اي لان هنا جماعة تستحب العمى على الهدى ، فقد تشكلت منظمة في كل قرية للمجرمين.

]جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها[

و قيادة هذه المنظمة الماكرة انما هي لأكبرهم اجراما ، فالقيمة بينهم هي قيمة الاجرام ، و الهدف لها هو المكر و التخطيط ضد الجماهير.

]و ما يمكرون الا بأنفسهم و ما يشعرون[

ان السلطــة الطاغوتية حين تخطط ضد الجماهير ، فأما تثور ضدها الجماهير ، و تقضي عليها ، فيكون جزاؤها خزيا ، و عذابا أليما ، و إما تسترخي الجماهير ، فينزلعليها وعلى السلطة عذاب الله فيدمرهم جميعا ، اذا فعاقبة المكر تعود على صاحبه إما وحده أو مع الآخرين.

و الآية هذه تفضح طبيعة السلطة الطاغوتية ، و تبين أنها ليست سوى تجمع للمجرمين ، و أن قوتها تكمن في خططها الماكرة ، و أن قيادتها متمثلة في المجرم الاكبر ، و أن الأمة لو عرفت هذه الطبيعة للسلطة الطاغوتية ، اذا لتخلصت منها ، اذ ان المجرم لو كشف مكره جرد منه سلاحه و سهل القضاء عليه.

[124]من مكر هذه الفئة السالفة الذكر أنها تتعالى عن الحق ، بعد أن تضع على نفسها هالة من

القداسة الباطلة ، و تنشر بين البسطاء هذه الفكرة الرعناء : لو كانت الرسالة صحيحة ، اذا لم يكن ربنا يختار لها الا واحدا منا نحن الكبار ، و لم يكن يفضل علينا واحدا من عامة الناس.

]و اذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله]و لكن الله يدحض حجتهم بقوله :

"الله أعلم حيث يجعل رسالته"

يجعلها في أيد نظيفة ، و جيوب طاهرة نقية ، و قلوب زكية ، و رجال مخلصين ، و ليس في أيدي هذه الفئة التي سرقت أموال الناس ، و صنعت مجدها على أجسادهم ، ثم يهددهم الله بالقول.

]سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله[

بسبب تكبرهم.

]و عذاب شديد بما كانوا يمكرون[

الشروط المساعدة للايمان:

[125]بعد ان بينت الآيات عوامل الكفر الفردية و الجماعية ، جاءت هذه الآية لتبين الشروط المساعدة للايمان ، و فوائده و ابرزها : شرح الصدر حيث ان الايمان بالله يعني تفضيل المستقبل على الحاضر ، و تفضيل الجماعة على الفرد ، و تفضيل الحق على الشهوة لان الحق خير عاقبة ، وأفضل أملا.

وهذه الصفات لا تعطى الا لمن يتمتع ببعد الرؤية ، و رصانة الفكر ، و بالتالي سعة الصدر . بينما الكفر بعكس الايمـان تماما ، أن هو إلا نتيجة ضيق الصدر ، و سبب له أيضا.

]فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء]يبدو أن الضيق هو الجزع ، و محدودية الرؤية ، و عدم استيعاب الاحداث ، بينما الحرج هو التردد و عدم القدرة على اتخاذ رأي ما ، و بالتالي أن يرى الشخص نفسه عاجزة عن اي شيء ، و الذي يصعد في السماء يشعر بالضيق لانه يجد نفسه مقطوعا عن أطرافه ، و يشعر بالحرج لانه يخشى الوقوع.

ومن المعروف ان الصعود في السماء يسبب قلة الاوكسجين ، و بالتالي ضيق النفس ، وسوء الخلق وقد يكون التشبيه من هذا الباب.

]كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون[

انهم يعيشون في حدود ساعتهم و موقعهم ، فلا يرون الاحداث القادمة ، أو الظواهر المتفاعلة فيما وراء موقعهم المحدود فتأتيهم المشاكل و الصعوبات من حيثلم يحتسبـــوا ، و لانهم كانوا يكفرون بالحقائق الغيبية والتي هي وراء زمانهم و مكانهم ، فاذا بهم يواجهون بها دون ان يستعدوا لها.

منافع الايمان:

[126]كما سبق ان قلنا ان : العامل المساعد للايمان هو شرح الصدر ، أما منافع الايمان فهي أربعة أبرزها:

أ /الاهتداء الى الصراط المستقيم الذي يؤدي بصاحبه الى الله سبحانه ، بما له مـن أسماء حسنى و أمثال عليا ، أي الى التحرر الكامل ، و العدالة الشاملة و الفلاح.

]وهذا صراط ربك مستقيما[

ب / لا تنحرف به الاهواء العاجلة ، و الشهوات المؤقتة ، ذات اليمين وذات الشمال ، لان المؤمن شرح الصدر ، لا تغره الظواهر الآنية و الاحداث الزائلة ، فيبقى على خطه وخطته البعيدة المدى.

]قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون[

فيعرفون الحقائق ولا ينسونها ، اما الذين لا يذكرون ، فانهم لا ينتفعون بالآيات لأنهم لا يربطون بين الآيات و بين الحقائق التي تدل عليها.

دار السلام:

[127]ج / وبعد الاستقامة ، و ايضا بسببها ، يستفيد المؤمنون السلامة والأمن في الدنيا والآخرة.

]لهم دار السلام عند ربهم[

لأن ما يهدد سلامة البشر ، هو التطرف في الشهوات . اما الاعتدال فانه طريق الامن لان العدالة في المجتمع افضل وسيلة للأمن ، و الاعتدال في الطعام و الشراب هو الآخر طريق السلامة الصحية ، و هكذا..

/ 1اما أهم فائدة للايمان ، فهي الانضواء تحت راية التوحيد و التنعم بعبادة الله و ولايته.

]و هو وليهم بما كانوا يعملون[

و ولاية الله هي التي توفر للبشر الاطمئنان الداخلي ، و مضاء العزيمة ، و سلامة النية ، و بالتالي الانتصار في الدنيا و الفلاح في الآخرة.

عاقبة تولي الظالمين

هدى من الآيات

تلك كانت فوائد الايمان كما ذكرت في الدرس السابق ، أما أضرار الكفر فأهمها هي :الولاية الباطلة فاذا كانت للمؤمنين ولاية الله فان الكفار اولياؤهم الجن حيث يحشرهم الله و أياهم ، و يحاسبهم و يجيبون انهم انما تولوا الجن طلبا للمتعة ، باعتبار المتعة ، هي الهدف العام للمشركين.

و لكن المتعة لا تبقى الا لفترة محدودة تنتهي في الاجل المحتوم ، ثم يكون مصيره النار.

ولان الظالمين يعملون السيئات ، فان الله يجعل بعضهم أولياء بعض ، و يسلط بعضهم على بعض لان هذه نتيجة أعمالهم في هذه الدنيا ، أما في الآخرة فبعد أن يسألهم ربهم عن سبب كفرهم ، وانه هل كان هناك نقص في أسباب الهداية ؟ فيجيبون : كلا .. بل جاءت رسل اللهو معهم الآيات الواضحة و بالتالي بعد أن يشهدهم على أنفسهم يأخذهم بأعمالهم ، ويبين القرآن السبب الحقيقي للكفر وهو:

غرور الحياة الدنيا.

من هنا يبعث الله في كل قرية من ينذرها ، حتى يهلك من يهلك عن بينة و حجة واضحة ، و انما ينقسم الناس درجات سواء في حقل الصلاح ، أو الفساد بأعمالهم و ليس عبثا.

بينات من الآيات

لماذا عبدوا الجن ؟

[128]بعض الناس يعبدون الجن و يتخذونهم أولياء من دون الله . لماذا ؟ و ما هي حجتهم ؟

أولا :حجة هؤلاء ان الجن يمتون الى الله سبحانه بصلة قربى ، أو أنهم أقوياء ، بيد ان الجن خلق من خلق الله ، وسيحشرون يوم القيامة ، وسيحاسبون كما الانس لا فرق ، فعبادتهم و اتخاذهم أولياء لا معنى له.

ثانيا : السبب في عبادة الجن أو في إتخاذ بعض الانس أولياء من قبل الآخرين هو فقدان الرؤية السليمة للحياة ، حيث يحسب البشر أن الهدف الأساس من الحياة هي المتعة ، و لكي يحقق رغباته في المزيد من التمتع يرتبط بالجن أو ببعض الانس ، و انما يتبع هواه و شهواته باسم اتباع الجن و الانس ، اننا حين نتبع الحق لا نعبد الجن أو الانس ، انما نعبد الله ، و السبب : أننا آنئذ نقيد شهواتنا ، وننظمها وفق البرامج الالهية ، التي تهدينا اليها عقولنا ، ولأننا لا نهدف آنئذ التمتع كهدف أعلى لحياتنا ، بل نهدف تحقيق مسؤوليتنافي الحياة و هي هدفنا.

من هنا نعرف : أن عبادة الجن ناتج من عدم الاستعداد لتحمل المسؤولية في الحياة.

]ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس]يبدو ان معناه أنكم .اي الجن قد جذبتم كثيرا من أبناء الانس لعبادتكم ، فالتفوا حولكم ، ما السبب ؟

و يجيب على هذا السؤال الانس الذي التفوا حول الجن . لانهم هم المسؤولون عن عبادة الجن ، وليس الجن المعبودون:

]وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض]أي إنما اتخذناهم أولياء لتحقيق رغباتنا باسم الجن ، والا فان المعبود الحقيقي هو الهوى و ليس الجن المساكين ؟

]و بلغنآ أجلنا الذي اجلت لنا[

فانتهت المتعة و المهلة التي امهلتنا اياها.

]قال النار مثواكم خالدين فيهآ الا ما شآء الله[

حيث انه قد يرحم بعض العباد ، و ينهي فترة عذابهم في جهنم حسب حكمته البالغة.

]ان ربك حكيم عليم[

كيف يهدم الظلم بناء المجتمع ؟

[129]و نستخلص من ذلك : أن أحد الاسباب التي تجعل الكفار بعضهم أولياء بعض هو ابتغاء المتعة ، و السبب الآخر هو الظلم ، حيث ان الظالم سيف الله ينتقم به و ينتقم منه ، فاذا شاع الظلم في المجتمع و زالت قيم العدالة و الحق ،و استطاع القوي ظلم الضعيف ، يصبح المجتمع خليطا من الظالم و المظلوم ، كل يظلم من تحته ، و يظلم من فوقه ، و هناك يقفز الى السلطة اكثر الناس ظلما ، و السبب هو الوضع الذي صنعه الناس بأعمالهم.

]و كذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون]أي بأعمالهم التي يكسبونها ، ولقد تكرر التعبير بالكسب للدلالة على العمل في القرآن ، ربما لان كل عمل يقوم به البشر يخلف أثرا ظاهرا وخفيا عنده ، فكأنه يضيف ذلك الأثر الى سائر أجزاء ذاته.

حب الدنيا رأس كل خطيئة:

[13]تلك كانت عاقبة الظلم في الدنيا . ان بعض الظالمين يولي بعضا . أما عاقبة الظلم في الآخرة فانه الهلاك بعد الادانة و التوبيخ.

]يا معشر الجن و الانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي و ينذرونكم لقاء يومكم هذا]ربما قص الآيات بمعنى بيانها واحدة بعد اخرى ، بطريقة تدخل القلب ، و أهم بند في الدعوة هو الانذار بالعاقبة.

]قالوا شهدنا على أنفسنا[

و لكن السؤال : لماذا إذا لم يقبلوا بالآيات ، و لم يؤمنوا بربهم ؟!

السبب هو تعلقهم الشديد بالدنيا . لان حب الدنيا رأس كل خطيئة.

]و غرتهم الحياة الدنيا و شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين]فلم يكن كفرهم من دون وعي منهم ، بل بسبب اعتقاد راسخ بالفكرة المعاكسة لها.

ان تصور لقاء أي انسان ربه ، و موقفه الضعيف امام هيبته البالغة ، يكفيه عقلا و رصانة و ايمانا ، أذ أنه يكبح شهوات الفرد موقتا ، ويثير فيه حبه لذاته ، و سعيه وراء تحقيق مستقبله.

لا نهلك القرى بظلم:

[131]و دليل وعي الكفار للحقيقة ، و جحودهم بعد اليقين ، ان حكمة الله البالغة و رحمته الواسعة الدائمة تأبيان الظلم للعباد ، و أخذهم بجريمة ارتكبوها من دون وعي منهم ، بل بغفلة و عدم انتباه ، أو بسبب يقين مضاد.

]ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم و أهلها غافلون]الله قوي مقتدر ، ولا يملك العباد دونه ملجأ ، فان كان يستخدم قوته و قدرته في اهلاك عباده دون ان يبلغ الدعوة الحقة الى أعمق أعماقهم . أفلا يكون ظلما ؟!

ولماذا يظلم ربنا عباده وهو الذي خلقهم ، و أسبغ عليهم نعمه ظاهرة و باطنه ؟ اذا حين يهلكهم فهم يستحقون ، و استحقاقهم دليل واضح على علمهم بالحقيقة ، و كفرهم بها ، و شهادتهم على ذلك يوم القيامة ، دليل آخر على ذلك.

[132]و عدالة الله في الحياة ظاهرة المعالم ، و لكن من أبرز أدلة هذه العدالة هي : أن الله يعطي كل واحد من الناس قدرا من العلم و المال و الجاه يتناسب مع مقدار عمله ، ومن هنا فانه سوف يثيب أو يعذب عباده يوم القيامة بأعمالهم ، و بقــدر تلك الاعمال ايضا.

]و لكل درجات مما عملوا و ما ربك بغافل عما يعملون[

لمن عاقبة الدار ؟

هدى من الآيات

لله الاسماء الحسنى ، فهو الغني ذو الرحمة ، و لأنه غني فهو قادر على ان يفني الخلق جميعا ، ثم يخلق مكانه ما يشاء.

و آية اخرى على غناه سبحانه :أنه جاء بهذا الخلق في مكان خلق آخر كان قبله.

ولكن برحمته التامة لا يفعل ذلك فهو ذو رحمة ، بيد أنه اذا لم يفعل ذلك الآن فليس ذلك دليلا على انه لن يفعل ذلك أبدا ، اذ سيأتي يوم ينتهي أجل البشر فتأتيه عاقبته دون أن يستطيع مقاومتها.

و البشر تؤمن له الحرية لفترة معينة و ذلك دليل رحمة الله به ، و لكنه سوف يسلب منه هذه الحرية بعد انقضاء اجله ، و ذلك بسبب غنى ربه عنه ، ولا يسلب الله رحمته الا بسبب ظلمه لذاته.

بينات من الآيات

الغني ذو الرحمة:

[133]لربنا سبحانه احسن الاسماء ، و أعلى المثل ، و أسماء الله منتشرة في الكون في آياته التي لا تحصى ، و معرفة اسماء الله و مظاهرها و تجلياتها في الحياة تعطينا بصيرة و رؤية واضحة ، و تهدينا الى السبيل الاقوم.

و القرآن الحكيم يذكر هذه الاسماء ، بعد أو قبل أن يذكر الآيات التي تدل عليها ، و البصائر المستلهمة منها ، و السلوك المعين التي تستوجبها.

و الواقع ان هذا المنهج القرآني يعطي البصائر و الرؤى الحياتية ركيزة عقلية ، كما يعطي الافكار أبعادا واقعية ، و نتائج سلوكية ، و بالتالي يجمع هذا المنهج بين العقل و الواقع و السلوك مما تتكامل به الشخصية البشرية.

و هنا يذكرنا القرآن بأسمي) الغني و الرحمة. (

]و ربك الغني ذو الرحمة[

و عند البشر لا يجتمع الغنى و الرحمة عادة لأن الغنى عند الانسان مصدره الغير ، فيخشى البشر من فقدانه فيبخل به ، بينما غنى الله مصدره القدرة المطلقة على الخلق ، كما أن رحمته محدودة بحكمته لا تدعها تنفلت عن اطار العدالة.

]إن يشأ يذهبكم و يستخلف من بعدكم ما يشاء[

و هذا دليل على غناه و رحمته معا ، فلولا قدرته ، و بالتالي غناه عنكم لما كان قادرا على تعويضكم و تبديلكم ، ولولا رحمته لفعل ذلك أول ما ظلمتم أنفسكم ، وهذا دليـــل قدرته ، و ايضا ان رحمة ربنا محدودة باطار حكمته ، انه فعل ذلك حين كان من قبلكمآخرون فذهب بهم واتى بكم.

]كما انشأكم من ذرية قوم آخرين[

و عندما يتذكر البشر بهذه الحقيقة يرزق الرصانة في التفكير ، و الواقعية في الرؤية ، والاستقامة في السلوك ، أما رصانة الفكر فلانه يعلم ان القدرة المهيمنة على هذا الكون الرحيب غنية عنه لكنها رحيمة به ، فعليه الا تستبد به الخفة و التكبر و الغرور ، و اما واقعية الرؤية فعليه الا ينظر الى حقائق الحياة على انها ثابتة أبدا ، اما استقامة السلوك فلأنه يتمتع بالخوف و الامل ، الخوف من استبدال الله له بالآخرين ، والأمل في رحمته ، و بين الخوف و الامل يستقيم سلوك البشر.

التسليم أو العاقبة:

[134]ومادام البشر عاجزا عن توقيف مسيرة الزمن ، أو منع العاقبة السؤى التي ينذر بها ، و مادام عاجزا عن سلب قدرة الطرف الثاني و اعجازه ، فعليه ان يسلم للحقيقة ولا يتكبر عنها.

]ان ما توعدون لآت وما انتم بمعجزين[

[135]و ينذر الله الظالمين حين يقول : ان للحرية الممنوحة لكم و للقدرات المخولة لكم حدودا تقف عندها.

]قل يا قوم أعملوا على مكانتكم[

اي بقدر قوتكم و مكانتكم[

]اني عامل[

فهناك خطان من العمل ينتهيان عند العاقبة.

]فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار[

اي من سيسكن بالتالي في دار السعادة.

و لكن مجرد التفكر في العاقبة يهدي البشر الى الحقيقة . اذ معلوم لمن تكون العاقبة.

]انه لا يفلح الظالمون[

المظاهرة التشريعية للشرك

هدى من الآيات

لان الله حكيم عليم (بالاضافة الى انه غني رحيم) فهو لم يحرم الطيبات . بينما المشركون حرموا على انفسهم كثيرا من الطيبات افتراء على الله ، و في البدء ذكر الله : ان الشرك في حكم الكفر بالله العظيم ، لان من ينذر لله و لغير الله ، فان نذره لغير الله سيحبط نذره لله ، و سيجعله في نصيب الآلهة الشريكة.

و الشرك هو الذي دفع بالمشركين الى قتل أولادهم افتراء على الله ، و هدف الطغاة و الجبابرة الذين يشركون بهم من تشجيع الناس على قتل الاولاد يتلخص في اهلاك الشعب ماديا و معنويا.

و الله سبحانه ترك المشركين في هذا الوادي بسبب أنهم افتروا على الله سبحانه بالرغم من قدرته على ردهم بالقهر و الجبر ، و منعهم من التسلط على مقدرات الشعب.

و هناك تشريعات باطلة اخرى كانت نتيجتها عليهم ان حرموا الطيبات علىأنفسهم ، و دفعهم الى ذلك افتراؤهم على ربهم الذي سيجزون عليه ، و كذلك تشريع المشركين الباطل الذي يميز بين الذكور و الاناث في الانتفاع من الطيبات ، أو قتل الاولاد ، أو يحرموا ما رزقهم الله كذبا عليه.

بينات من الآيات

متى يكون الانفاق لله شركا ؟

[136]الشرك و الكفر توأمان ، بيد ان الشرك كفر مغلف ، يستهدف ارضاء كل الاطراف ، وهو ناتج عن ضعف الارادة ، وسوء الحكم و التقدير ، و الشرك حال نفسية تحاول خداع فطرة الايمان بالله ، و اشباع شهوات النفس في عملية تلفيقية مفضوحة.

]و جعلوا لله مما ذرأ من الحرث و الأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم و هذا لشركائنا]قالوا : هذا لله لارضاء حس التدين الطبيعي في النفس ، و لخداع المتدينين ، و لان ما لله لا يعارض ما لشركائهم ، فاذا كان يعارضهم فانهم يسلبون حتى ما لله لشركائهم.

انهم يبنون الجوامع الفخمة لله بزعمهم ، انهم يطبعون نسخا من القرآن الكريم ، انهم يقيمون صلوات الجمعة و الاعياد ، حتى انهم يحجون لربهم.

و لكنهم في ذات الوقت ، يجعلون للشركاء نصيبا ، فهم يبنون القصور من أموال المحرومين ، و يبنون الدول على حساب المستضعفين ، و يكنزون الذهب و الفضة ، و يدعمون الطاغوت ، و يشيعون الارهاب في البلاد ، و بالتالي يعطون للشركاء كل ما في الحياة من لباب ، و يدعون القشور لربهم ، و الله لا يرضى بالقشور.

]فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله[

الحكم الذي جعلوه للطاغوت ، لا يمكن ان يكون حكما إلهيا يسكت عنه ربنا أو يرضى به ، و المال الذي جعلوه دولة بين الأغنياء منهم لا يمكن أن يكون برضا الله سبحانه ، بل انه تعالى يمقته و يرفضه.

]وما كان لله فهو يصل الى شركائهم[

الصلاة التي لا تنهى عن الفحشاء و المنكر ، و الزكاة التي تعمق الهوة بين الفقراء و الاغنياء ، و تدعم سلطة الطاغوت لانها تعطى له ، و الحج الذي يتحول الى سفرة سياحية ، أو مورد مالي للجاهلية الجديدة ، و الامر بالمعروف و النهي عن المنكر اللذان أصبحا سوطا على رقاب المستضعفين دون المستكبرين ، انها جميعا من طقوس الطاغوت ، و ليست من شعائر الله تعالى.

]ساء ما يحكمون[

موقف الشريعة من تحديد النسل :

[137]و هنا يطرح السؤال التالي : ما هدف الطاغوت و من حوله من ملأ المستكبرين ، و حاشية السلاطين و جلاوزة الأنظمة المفسدين ؟

ان هدفهم أولا : استضعاف الجماهير ، و ثانيا : تضليلهم ، ومن الطبيعي ان التضليل يأتي بهدف إبقاء واقع استثمارهم و استعبادهم ، و كمثل بارز لهذين الهدفين أن الشركاء الذي يتقاسمون السلطة مع الله - في زعم هؤلاء - انهم يشيعون بين الجماهير نوعا من الثقافةالجاهلية تشجعهم على قتل أولادهم ، فمن ناحية يضللونهم عن فطرتهم النقية في حب الاولاد ، و ضرورة الابقاء عليهم و من ناحية ثانية يهلكونهم بذلك ، اذ ان الجيل الذي ينقطع نسله جيل أبتر ، و بالتالي أصلح للاستثمار.

]و كذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم]و كمثل لهذا الواقع المشين ثقافة الجاهلية الحديثة التي تشجع على تحديد النسل ، و على الاجهاض في الوقت الذي تزداد الهوة الطبقية في تلك المجتمعات التي تأخذ بهذه الفكرة ، و تصرف البلايين في الحاجات الكمالية التافهة دون ان يفكروا في أن جزء بسيطا من هذهالاموال يكفي لاعاشة الأولاد الذين منع من ولادتهم ، و من بركاتهم في الحياة.

علما بأن التفجر السكاني وسيلة طبيعية للقضاء على الطبقات المستكبرة ، لان كل فم يحتاج الى خبز سينفتح بالاحتجاج على الطبقية المقيتة.

لذلك يكون الهدف من قتل الاولاد هلاك الناس و تضليلهم.

]ليردوهم و ليلبسوا عليهم دينهم[

ذلك ان الدين الصحيح سلاح فعال ضد الطغاة ، فتضليل الناس عنه هـدف اساس للطغيان.

و الله قادر على أن يحطم عرش الطغاة ، بقدرته الغيبية ، و لكنه لا يفعل ذلك مادام الناس غير واعين ، ولا يفكرون في نجاة أنفسهم من الطغيان ، و ذلك بالكف عن الثقافة المشركة التي تفتري على الله سبحانه.

]ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون[

الخرافات افراز للشرك:

[138]حين يتمثل المنهج الشركي في نظام اجتماعي يتبين ضلالته و انحرافه أكثر فأكثر ، و فـي الجاهلية كانوا يحرمون طائفة من الطيبات على الناس ، الا منيشاؤون حسب أفكارهم و مزاعمهم.

]وقالوا هذه انعام و حرث حجر[

اي موقوف لا يمكن الانتفاع بهما.

]لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم[

اي الا لمن تشاؤه أهواؤهم و خرافاتهم.

]و أنعام حرمت ظهورها[

لا لشيء الا بسبب منهجهم الفكري الفاسد و أهم افراز لهذا المنهج انهم لا يذكرون اسم الله على بعض الانعام.

]و انعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه[

فيتقربون بتلك الذبائح الى الاصنام ، أو الى الجن أو الملائكة أو بعض أبناء الناس ، و ذلك حين كانوا يزعمون ان كل تلك آلهة يتقرب بها الانسان الى ربه سبحانه .حيث قالوا : " ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى " (١)[سيجزيهم بما كانوا يفترون[

على الله ، ، ويزعمون : ان بعض الاشياء أو الاشخاص أبواب الله دون أن يكونوا كذلك.

و يبقى سؤال : ما هي علاقة الشرك بهذه الخرافات ؟

(1)الزمر / ٣

و الجواب : اولا : ان الشرك بالله يحور القلب ، و يحجب العقل ، و يعمي البصيرة ، فيرى البشر الاشياء مقلوبة ، و قد يصل به الامر الى اعتبار الخير شرا ، و النافع ضارا.

ثانيا : ان كثيرا من المحرمات الاعتباطية نابعة من الايمان بالشركاء ، اذ ان خشية الشركاء تحرم المشركون من كثير من الطيبات.

ثالثا :ان الواقع الاجتماعي الذي يفرزه نظام الشرك يحرم على الشعب كثيرا من الطيبات بسبب الطبقية المقيتة ، بل العنصرية التي تسوده.

[139]و كان من مظاهر احكامهم الباطلة ، و تشريعاتهم السخيفة ، التفرقة بين الرجال و النساء مما تأباه الفطرة السلمية.

]و قالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا و محرم على أزواجنا]و في الوقت الذي كانوا يعترفون بعلاقة الزوجية التي هي في واقعها التكامل بين الذكر و الانثى ذلك التكامل الذي يدعو الى المشاركة الكاملة في الحقوق و الخيرات كما في المسؤوليات و الواجبات ، في ذات الوقت كانوا لا يكفون عن خرافة التفرقة بين الذكور والازواج.

]وان يكن ميتة فهم فيه شركاء[

أي ان كان الجنين ولدا ميتا فسوف يتقاسمه الذكور والأناث معا.

]سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم[

انهم سينالون عقابهم بسبب وصفهم الباطل ، و حكمهم غير العادل ، حيث فرقوا بين الاناث و الذكور في الانتفاع بالطيبات ، و الله حكيم يحكم بالعدل ، و عليم يعلممن يخالف العدل الالهي.

اعدام الطفولة البريئة:

[140]و أسوء من التفرقة الطبقية و العنصرية و حتى التفرقة بين الرجل و المرأة ، أسـوء منها قتل الاولاد ، تلك العادة الجاهلية العريقة و المتجددة مع كل جاهلية ، و سببها النظرة الشاذة الى الحياة ، و الجهل و الافتراء على الله ، و الضلالة عن الحق.

]قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم[

و اي سفه أكبر و أخطر من أن يقوم الفرد بألحاق الضرر و الخسران بنفسه ، و أن يقتل أولاده ، و هذا السفه الذي يدل على قلة الشعور ، و عدم معرفة ما يضر و ما ينفع البشر ، انه مدعوم بالجهل أيضا اذ أن العلم يزيد الشعور ، و يوقظ العقل في البشر.

]و حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله[

لان هؤلاء افتروا على الله و ما اهتدوا بالمنهج الالهي الذي يوضح للبشر كيف يستفيد من نعم الله عليه ، و بالتالي لانهم لم يجعلوا الحق محورا لهم ، و مقياسا لأعمالهم ، و بصيرة لفهم الحياة.

لذلك حرموا على أنفسهم هذه الفرصة الطيبة ، و لكن هل ان من يقتل اولاده هو الوحيـــد الـذي يضيع على نفسه فرصة الانتفاع بالحياة ، و الاستفادة مما فيها . كلا .. فكل من لا ينتهج نهج الله انه يخسر ما رزقه من الطيبات ، فالذي لا يربي ابناءه حسب المنهج الالهي القويم أفلا يحرم ما رزقه الله ، و الذي يسرف في الاكل فيعرض صحته للخطر ، أو يأكل المحرمات ، أو يشرب المسكرات ، أو يتعاطى القمار و الزنا ، أو يظلم الناس ، أو يكذب و يغتاب وما أشبه . انه هو الآخر يضيع على نفسه نعم الله عليه ، فهو الآخر مثل الذي يقتلاولاده سفها بغير علم.

]قد ضلوا و ما كانوا مهتدين [

كيف يحرم الشرك طيبات الحياة ؟

هدى من الآيات

الله سبحانه هو الذي أنعم على البشر ، نعما لا تحصى ، فهو أعلم بسبل الانتفاع بها ، وما يضر وما ينفع منها ، بينما الجاهلية تحرم و تحلل حسب أهوائها دون أن تعرف طبيعة الاشياء.

فالله هو الذي أنشأ البساتين و الحدائق ، وجعل فيها مختلف أنواع الشجر و الثمر ، و لذلك فهو سبحانه عليم بأحكامها التي منها أن يأكل البشر من ثمراتها دون انتظار ، و أن يعطي الفقراء منها يوم الحصاد ،

والا يسرف في الاكل أو في العطاء ، بل يعتدل في كافة التصرفات في الثمرات.

كما أن ربنا الكريم الحكيم هو الذي أنعم على البشر بالأنعام ليتخذ منها الانسان ما يحمله في مسيره ، وما يجلس عليه في بيته ، و حكم هذه الانعام هو الانتفاع بها بما رزقه الله منها ، و لكن دون ان تصبح هذه الانعام وسائل لتحقيق مطامح شيطانية كالاعتداء و البطش.

والله سبحانه رزقنا بازواج الظأن و المعز و البقر و الابل ، و البشر أخذ يحرم هذا و يحلل ذلك ، بينما الجميع رزق الله ، و الله لم يوص بهذا ، انما المفترون هم الذين يضلون الناس بغير علم ، و انما يضلون الناس بسبب أنهم ظالمون ، فالظلم هو المانع عن هداية الله.

بينات من الآيات

الطيبات .. ما لك وما عليك:

[141]ملايين الانظمة الطبيعية ، و السنن الاجتماعية تفاعلت حتى أنشأ الله بها الجنات حيث اخضرت الارض و أثمرت بمختلف أنواع الثمر ، فمن دون وجود دوافع للبشر ركزها الله في غريزة الانسان ، ومن دون صلاحية التربة ، و وجود مخازن المياه ، و ضوء الشمس لم يكنالبشر يندفع نحو زراعة الارض ، أو يقدر عليها ، و لكن الله أوجد تلك الدوافع ، وهي تلك الوسائل ، فهو اذا دون غيره فرش الارض بسجـــادة خضراء من البساتين اليانعة.

]وهو الذي أنشأ جنات معروشات و غير معروشات[

فبعض الجنان مرتفعة عن الارض كجنان النخيل ، و بعضها مفروضة عليها كجنان الزرع.

]و النخل و الزرع مختلفا أكله و الزيتون و الرمان متشابها و غير متشابه [بعض الثمار تتشابه مع بعضها ، في اللون و الطعم و الصورة ، و بعضها لا تتشابه ، و التشابه قد يكون من جهة ، و عدم التشابه من جهة أخرى ، فكل الثمار ذات نكهة لذيذة في الطعم ، و متعة في المنظر و الفائدة ، و لكنها تتميز عن بعضها في نوع النكهة و المنظر و الفائدة . ان روائع الابداع تتجلى في التشابه ، و عدم التشابه ، فلو كانت الثمارمن نوع واحد ، أو كانت أنواعا متفاضلة لما تجلت عظمة الخلقة كما تتجلى الآن ، و قد جاءت الثمار أنواعا مختلفة ، ولكنها جميعا ذات مستوى عال من ناحية الطعم و الفائدة كل بصورة مختلفة.

و بما ان الله سبحانه ، هو الذي أنعم علينا بالثمار ، فانه يفصل لنا كيفية الانتفاع بها ، و بين الله هنا ثلاث من احكامها:

الاول : حين يقول:

]كلوا من ثمره اذا أثمر[

فاذا نضجت الثمرة ، يكون أوان الاستفادة منها ، وعلى البشر ألا يحرم نفسه من طيباتها بأوهام باطلة ، بل بالعكس عليه ان ينتفع من الثمرات و الانتفاع البسيط - كالأكل حين تثمر الشجرة - حق من حقوق كل شخص ، اما الانتفاع الدائم كما اذا أراد تخزين الثمار و بيعها ، أو الاستفادة منها مستقبلا ، فان حق الآخرين يتعلق بها.

وهذا هو الحكم الثاني:

]و اتوا حقه يوم حصاده[

ففي ذلك اليوم ينتظر الفقراء حقوقهم من الزكاة أو الصدقة أو غيرهما . كحق الحصاد ، بالرغم من أن

حقوقهم تتعلق بها منذ نضوج الثمر ، و ربما تدل الآيات على أن الاكل يجوز قبل إخراج الزكاة . إذ أن الزكاة تتعلق بما يخزنه البشر لا بما ينتفع منه - والله العالم. -

بيد ان الانتفاع بالطيبات يجب أن يكون في حدود الحاجة دون الاسراف ، و هذاهو الحكم الثالث الذي يبينه القرآن الحكيم هنا:

]ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين[

ولأنه لا يحب المسرفين فسوف لا ينصرهم ولا يزيدهم من نعمه.

الأنعام و فوائدها:

[142]كما في الثمرات التي تنبت من الارض ، فكذلك في الدواب التي ينتفع بها البشر طعاما و حملا و غير ذلك ، و الله هو الذي أنعم على الانسان بالقدرة على تسخير الدواب و الانتفاع بها ، و جعل الانعام قسمين : قسم منها الانعام الكبيرة التي تحمل الأثقال من بلد الى بلد كالأبل ، و قسم منها الانعام الصغيرة كالشاة التي يستفاد عادة منها في الطعام.

]ومن الانعام حمولة و فرشا [

الكبار و الصغار.

]كلوا مما رزقكم الله[

فلا تحرموا على انفسكم الحيوانات كما كانت تفعله بعض المذاهب القديمة ، و لكن من جانب آخر لا تسرفوا في الأكل ، و لا تظلموا الانعام باعتبارها مسخرات بأيديكم ، فتقتلونها صبرا ، أو تمنعون عنها الماء و الكلاء كسلا وما أشبه ، كما لا تتخذوا هذه النعم وسيلةللبطش و الاعتداء على بعضكم البعض.

]ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين[

و بالرغم من ان للشيطان خطوات متنوعة تقود البشر الى النار ، و كلها مشمولةللآية وممنوعة ، الا أن دلالة السياق تدعونا الى افتراض ان اخطر هذه الخطوات هي الامتناع عن الاستفادة من بعض الأنعام افتراء على الله.

[143]يفصل ربنا انواع النعم الكبيرة و الصغيرة ليبين انها جميعا حلال لوحدة الملاك و الفائدة و الهدف ، فلماذا يحرم البعض دون الآخر ، هل لان الله قال ذلك ، أم اتباعا لخطوات الشيطان ؟!

]ثمانية أزواج من الضأن اثنين [

الذكر و الانثى.

]ومن المعز اثنين قل ءآلذكرين حرم أم الأنثيين[

ذكر الشاة و الصخل و أنثاهما .

]اما اشتملت عليه ارحام الأنثيين[

من الجنين ، ان هذا التساؤل يزيد الانسان اهتماما و يستجلي فطرته حتى يحس بعدم الفرق الحقيقي بين هذه الانواع من نعم الله ، لذلك قال سبحانه:

]نبؤني بعلم إن كنتم صادقين [

اي لا تفرقوا بين الحقائق بأوهامكم ، بل بعلم تتراهنون عليه.

[144]و كما في الفرش اي الانعام الصغيرة مثل الضأن و المعز ، فكذلك في الحمولة مثل الابل و البقر لا يمكن التفريق بين ذكره و أنثاه الا بعلم.

]و من الابل اثنين و من البقر اثنين[

الذكر والأنثى لكل واحد منها.

]قل ءآلذكرين حرم ام الأنثيين اما اشتملت عليه أرحام الانثيين]كلا .. لم يحرم الله أيا منهما ، اذ لا أحد يشهد بصدق هذه التحريمات.

]ام كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا[

و بالطبع لا يستطيع احد أن يدعي هذه الشهادة.

]فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم]لان هؤلاء يحفرون خطا منحرفا للناس ، و يجعلونهم يظلمون أنفسهم ، و يظلمون الناس آلاف المرات ، و كل سيئات الظلم تكون على عاتق ذلك الذي افترى على اللــه . مثلا : الذين يفلسفون الطبقية ، و يجعلونها مشروعا . كم يفترون من الاثم ؟! اذ أنهم يتسببون في ألوفبل ملايين الجرائم ، اليس كذلك ؟!

]ان الله لا يهدي القوم الظالمين[

الذين يفترون على الله كذبا ، و لذلك فهم يضلون السبيل القويم ، و هنا لابد من التذكر بفكرة هي : أن السبب الذي يدعو فريقا من الناس الى اختراع الشرائع الباطلة هو اتباع الشهوة في ظلم الآخرين ، كما ان السبب الذي يدعو الناس الى الالتفاف حول هذا الفريق هوالظلم ايضا ، و الظلم الصغير يولد الظلم الكبير الى أن يضل الطريق رأسا.

الأفق الايجابي في تشريعات التوحيد

هدى من الآيات

في مواجهة الانغلاق الذي أصيب به البعض ، فحرموا على أنفسهم الطيبات الا قليلا ذكر القرآن الحكيم هنا أنه ليس تلك المحرمات الجاهلية موجودة في الكتاب ، إنما هي أشياء معدودة ذكرت في الآية و هي الميتة و الدم و الخنزير و الفسق.

بيد أنه حرم الله على بني اسرائيل أنواعا من الطيبات ، و ذلك مثل كل ذي ناب أو مخلب ، و شحوم البقر والغنم ، و ذلك لأنهم بغوا على بعضهم البعض ، و كلما زاد بغي البشر ضاقت عليه النعم.

و الله سبحانه رحيم ، و رحمته واسعة ، و لكنه في ذات الوقت شديد العقاب ، لا يستطيع المجرمون الفرار من عقابه.

و تأتي هذه الآيات لتؤكد الفكرة السابقة و هي ضرورة الاستقامة على الخط السليم دون زيادة أو نقصان . لأن الأحكام الشرعية مرتبطة بالمصالح الواقعية التيلا تتغير.

بينات من الآيات

حدود الحرام:

[145]يزعم البعض ان الدين معتقل حصين لطاقات البشر ، لا يدعها تنمو و تتكامل ، و ان كل شيء في الدين حرام الا ما استثناه الله ، و الله سبحانه ينفي هذه الفكرة الباطلة مرة بعد اخرى.

و في هذه الآية يشرح الله سبحانه أصل الحلية التامة الا في أشياء معينة ، و بذلك يشجع البشر على التمتع بنعم الله ، الا اذا سبب ضررا بالغا عليه.

]قل لا أجد في ما أوحي الي محرما على طاعم يطعمه الا ان يكون ميتة أو دما مسفوحا]اي خارجا من الجسم باندفاع ، اما الدم المتبقي في ثنايا اللحم فانه معفو عنه.

]أو لحم خنزير فانه رجس[

بالرغم من أن ظاهره طيب ، و لكن واقعه رجس ، يولد أنواعا من المرض كما يطبع طاعمه ببعض الأخلاق الذميمة.

]او فسقا أهل لغير الله به [

ان الذبيحة التي تهدى للصنم حرام لانها جزء من واقع الشرك فلذلك هي فسق و حرام ، و لكن مع كل ذلك فان هذه المحرمات تصبح حلالا في حالة الاضطرار اليها ، و الاضطرار يعني : أن يصيب الفرد في حالة تركه لها ضررا كبيرا لا يتحمله ، فليس بضرر ذلك الذي يلحق الظالم حين يترك ظلمه أو يلحق المسرف و المتجاوز

حده حين يعود الى حده و نصابه ، لان الضرر انما يقاس بمعيار الحق القائم على العقل و الفطرة ، و تمييز العرف العام ، و لذلك فان معايير الظالمين و البغاة أو المتجاوزين بالسرف و الترف لا تعتبر معايير كافية ، و لذلك جاء في تفاسير الصادقين عليهم السلام:

)إن البغاة هم الخارجون على امام الأمة ، و العادون هم : العصاة)ولا ريب أن هذا واحد من المصاديق لهاتين الكلمتين في حين تشمل الآية كل باغ و عاد ، و بكلمة ان البغي و العدوان في هذه الآية - حسب ما يبدو لي - مرتبط بالمعيار ، فاذا كان معيار الاضطرار سليما يجوز الاستفادة من هذا القانون والا فلا.

]فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم[

مغفرته تتجلى في عدم أخذ من يأكل الميتة اضطرارا بالرغم من حرمته في الواقع ، و رحمته تتجلى في خلقه سائر الطيبات.

ملحقات المحرمات:

[146]مبدئيا لا يحرم الله الطيبات على البشر ، بل الخبائث ، و هي استثناء و ليست اصلا ، و بالتالي فهي معدودة كما عرفنا ، بيد ان ربنا قد حرم وفقا لحكمة معينة طائفة من الطيبات لاسباب خارجية مثل تأديب المجتمعات المائعة و الظالمة ، مثلا : حرم الله على اليهود كل ذي ظفر ، وهو الحيوان الذي يستخدم اظافره سلاحا لصيده . مثل السباع ، و الطيور ذات المخالب (كالعقاب (وقيل : ان هذه الكلمة تشمل الابل و الأنعام لانهمها و امثالهما ليست بمنفرج الاصابع.

]و على الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر[

و شمل تحريم ربنا الاستثنائي على بني اسرائيل شحون البقر و الغنم ، الا تلك الشحوم المتراكمة على ظهورها ، أو الموجودة على مقاعدها ، أو تلك الشحوم المختلطة بعظم.

]و من البقر و الغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم]و السؤال : لماذا حرم الله كل تلك الطيبات عليهم ؟

يجيب ربنا : ان بني اسرائيل ظلموا و بغى بعضهم على بعض ، فحرم الله عليهم بعضا من الطيبات ، و يبقى سؤال ، لماذا يتسبب البغي في الحرمة ؟

و الجواب : ان السنن التي نسميها بالانظمة الطبيعية لا تختلف عن الاحكام التشريعية الا في شيء واحد هو أن تلك يجريها ربنا على الكون وعلى البشر قهرا و دون أي تغيير و تبديل ، بينما الاحكام الشرعية . يأمر بها الناس ، و يحذرهم من عاقبة تركها ، لذلك فان هاتين السنتين الطبيعية و التشريعية تلتقيان في الخطوط العامة ، لانهما تصدران من منبع واحد ، و بما أن النهاية الطبيعية للبغي في المجتمع هو انحسار النعم عنه وتضييق الخناق عن أبنائه ، فان ذات النهاية يحكم بها الله سبحانه على مجتمع البغي ، و ذلك بتحريم طائفة من الطيبات عليه.

]ذلك جزيناهم ببغيهم و إنا لصادقون[

ذو الرحمة و البأس:

[147]ان كل واحد من البشر يتصور الله على شاكلته و حسب مشتهياته ، كما يتخذون ذات الصورة لسائر الحقائق ، و المذنبون من الناس يضخمون في أنفسهم صفة الرحمة و العفو لله دون أن يتذكروا صفات الغضب و البـأس و العقاب له سبحانه ،و لذلك فهم يكذبون من يحذرهم الآخرة ، و يوعدهم العذاب.

]فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة[

و تكذيب رحمة الله مخالف للفطرة ، و لما نشاهده في عالم الواقع ، و لذلك اكد الانبياء هذه الصفة الحسنى لله ، و لكنهم اكدوا على الصفة الاخرى ايضا.

]ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين[

الشرك بين التصور و التوهم

هدى من الآيات

حين يكون معيار الحق و الباطل عند البشر ذاته ، و ليس الواقع و الحقيقة ، يزعم أن كلما يفعله يطابق الحقيقة عند الله ، و ان أعماله و أقواله تستمد شرعيتها من الله عز وجل ، اذ مادام يعتقد هو بها و ان ما تعتقده نفسه فهو صحيح . إذا فالله أيضا أمر به لذلكينسب المشركون من أهل الكتاب أو من غيرهم شركهم و تشريعاتهم الى الله ، و لكن الله سبحانه لم يصدقهم اذ عذبهم ببأسه في الدنيا قبل الآخرة حتى ظهر لهم و لغيرهم أنهم ليسوا على حق ، و يتساءل القرآن كيف يزعمون أن أفكارهم صحيحة . هل علما بذلك أم ظنا و توهما ؟!

الله لا أنا و انت فالذي عنده الهدى ، و له الحجة البالغة على الهدى ، وهو قادر على هداية الناس اليه ، أما هؤلاء فانهم يكذبون بالحق ولا حجة لهم عليه ، ولا شهود صادقين ، ولذلك أمرهم القرآن باحضار شهداءهم ، و لكنه نهى عن الشهادة لهم لانهم.

أولا : يتمحورون حول ذواتهم و أهوائهم.

ثانيا : يكذبون سلفا و بلا تردد بكل العلامات التي تدل على الحق لانهم لا يهدفون بلوغ الحقيقة.

ثالثا : انهم يكفرون بالآخرة و يقصرون حياتهم على الدنيا.

رابعا : و أخيرا إنهم لا يميزون بين الله و بين خلقه سبحانه.

بينات من الآيات

جذور الانحراف:

[184]ويأتي هذا الدرس في بيان الجذور الخبيثة للتشريعات البشرية الباطلة في القضايا الاجتماعية التي بسببها يتبع البشر هواه ، و يعبد ذاته ، و يترك الحق و مسؤوليته ، و يتشبث بتصورات باطلة و أوهام بعيدة تستمد شرعيتها من الهوى ، فيقول بالحتميات الباطلة. مثلا : ان الليل و النهار و حوادث الحياة هي التي تجبره على اتخـاذ مواقفه ، أو يقول : ان الله أجبره على ذلك لان الله هو خالق ما في الوجود ، و القاهر فوق العباد ، فهو الذي اضطره على ذلك أو ما اشبه ، او يتشبث بالخرافة الباطلة التي تقول : ان الله فوض أمور العباد الى أنفسهم ، فهم يقررون لها ما شاءت عقولهم ، (و هنا يخلطون بين العقل و الهوى خلطا متعمدا عجيبا. (

و سواء تشبثوا بهذا النوع من التصور أو ذاك فان الهدف منه شيء واحد هو اعطاء الشرعية لعبادة أهوائهم ، والتمحور حول ذواتهم ، و اعتبار افكارهم و تشريعاتهم مقدسة ، بل و مدعومة من قبل الله من فوق عرشه سبحانه ، و هذه آخر مرحلة من الضلالة عند البشر.

]سيقـول الذيـن أشركوا لو شاء الله مآ أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء]فالله كان قادرا على منعنا من الشرك ، و التشريع الباطل ، فلم يفعل فهو راض بما نفعله و يجيب القرآن الحكيم على ذلك:

أولا : ان هذا الفريق هو الذي يكذب بالحق لذلك فهم يتشابهون مع كل من يكذب بالحق في التاريخ علما بأن أحد الطرق لكشف حقيقة جماعة هو الكشف عن التيار العام الذي يقعون فيه و يتسابقون معه ، فأذا مصدر هذا الزعم و سببه هو انهم يكذبون بـالحقائق ، و اذا عرف الداعي النفسي الى فكرة ما افتضحت طبيعتها و حقيقتها ، مثلا : اذا عرفت ان زيدا الذي يتحدث عن فكرة انما يتحدث عنها لانه ينتمي الى حزب كذا عرفت جوانب كثيرة من الفكرة.

ثانيا : ان النهاية التي جعلها الله لمثل هؤلاء هي العذاب الشديد . إذا فهم ليسوا بخارجين عن دائرة المسؤولية التي من أجل الهروب منها تشبثوا بمثل هــذه الافكار الباطلة.

]كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا[

ثم -و بعد ان يشكك هؤلاء بأفكارهم - يطرح عليهم هذا السؤال : هل هــذا علم أم ظن ؟ ان مجرد طرح هذا السؤال يعني جعل شرعية الافكار مناطة بالعلم لا بالمصلحة ، و بالتالي فضح جذور الفكرة ، و أنها نابعة من الهوى ، و بما انهم لم يدعوا العلم لانهم لا يعترفون بالحق (بل بذاتهم) حتى يبحثوا عن العلم الذي يهديهم اليه ، و لكن مع ذلك لا يمكنهم انكار شرعية العلم.

ثم يؤكد القرآن الحقيقة في أمر هؤلاء ، و يقول : ان اعتماد هؤلاء هو على التصــور و الوهم و التصور (الظن) هو الكذب المتعمد ، و الوهم هو الشك) الخرص. (

]قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الاتخرصون[

وهم لا يستطيعون انكار ذلك . اذ انهم لو انكروه فقد فتحوا باب المباحثة البناءة ، و الحوار الفاعل على أنفسهم ، وهو يضرهم لانه يعيد الشرعية للحق و العلم لا للهوى و الظن.

لا للحتمية:

[149]لم يحتم الله على البشر الضلالة ، ولا رضي بها . اذ لم يجبرهم على ترك ضلالتهم ، بل وفر لهم فرصة الهداية كاملة ، فأعطاهم الحجة البالغة ، و بقي عليهم ان يقوموا بدورهم في استيعاب الهداية ، كما ان الله قادر على أن يجبر الناس على الهداية ، و لكنه لم يفعل ، كما لم يجبر الناس على الشرك .. فليس تركه للناس دليلا على رضاه سبحانه لانه أتم الحجة عليهم.

]قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين[

الاستشهاد:

[150]احدى الوسائل الفعالة لتمييز الحق عن الهوى ، و العلم عن الظن ، و الصدق عن الكذب ، هي طرح الافكار على عقول الناس ، و استشهادهم عليها ، ذلك لان الناس حتى ولو كانوا يتبعون الهوى و الظن فانهم حين يقيمون أفكار الآخرين ، فليس من الضروري القبول بهاأو التصديق ، ذلك لان مصالح الناس مختلفة ، و اهواءهم متفاوتة ، و بالتالي كل حزب بما لديهم فرحون . بيد أن شهادة الناس ليست دليلا على الحق و لو كانت دليلا على بطلان الهوى . فهي مفيدة سلبيا فقط (تنفي و لكنها لا تثبت. (

]قل هلم شهداءكم[

أي اجمعوا شهداءكم ، لانه بجمعهم تفترق كلمتهم لانها باطلة ، و لذلك من وسائل كشف عصابة الاجرام جعلهم جميعا يشهدون على الواقعة فنرى كم أنهم يختلفون ، بل ويتناقضون مع بعضهم لانهم ان اتفقوا على مخالفة الحق فلن يتفقوا على نوع الباطل ، لذلك فصل القرآن و قال:

]الذين يشهدون أن الله حرم هذا[

ولكن الاتفاق على الباطل لا يصبح دليلا عليه.

]فان شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا]و القرآن الحكيم يبين هنا المزيد من جذور الشرك . حيث يبين ان السبب في عدم اتباع الحق لا تلفها الهوى هو عدم الايمان بالآخرة هذا أولا ، ثانيا : عدم معرفة الله و خلط الله و خلط الله بخلقه.

]و الذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون[

ومن يعدل الله بخلقه لا يعرف الله ولا خلق الله.

هكذا يفسد الشرك النظام الاجتماعي

هدى من الآيات

بعد بيان المحرمات المعدودة التي ترتبط بالماديات ، جاء دور المحرمات الاجتماعية الاكثر أهمية و الاكثر مصداقية و الاكثر صعوبة ، و هي كالتالي:

أولا : الشرك بالله.

ثانيا : الاحسان الى الوالدين ، اي حرمة ايذائهم ، و حرمة اهمال حقوقهم.

ثالثا : حرمة اهمال حقوق الاولاد من الفقر.

رابعا : الفواحش التي بينها الله في كتابه ، سواء الخفية منها أو الظاهرة.

خامسا : قتل النفس المحرمة.

هذه وصايا ربنا التي تنفعنا ، و التي يمكن لنا أن نعقلها ببساطة.

بينات من الآيات

حرمات الله:

[151]الجاهلية بشكلها القديم و الجديد ، الظاهر و المغلف تحاول تضخيم جوانب من الدين على حساب جوانب اخرى هي الاهم و الاصعب ، و هي المحتوى و اللباب ، و رسالة الله تذكر الناس بأن الدين لا يبعض ، و أن ذلك التضخيم و المبالغة و الاحتياط في غير محله ، بلحرام أساسا ، و في الآيات السابقة رأينا كيف ان الله بين ان تحريم الجاهلية للطيبات من الرزق ، بأسم الدين كان باطلا ، بينما المحرمات تلك كانت محدودة بل و جانبية ، أما المحرمات الكثيرة و الاساسية التي تناساها الجاهليون القشريون عمدا و لخطورتها و أهميتهافهي التي تذكر بها هذه الايات فعلينا الاهتمام بها ان كنا فعلا مؤمنين ولا نخادع أنفسنا في الدين.

المحرمات الاساسية هي التي تنظم الحياة الاجتماعية للانسان ، ابتداء من حياة الاسرة و حتى السياسة ، و لكن كل الانظمة الاجتماعية في الاسلام مصطبغة بالتوحيد و رفض الشرك بالله سبحانه ، لذلك بدء الله هويته به و قال:

]قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا [يجب ان نخلص العبادة لله سبحانه ، و الا نخضع أو نستسلم لشيء من دون الله ، و الا نقبل ضغطا أو زورا ، بل يكون بناء حياتنا على الحرية المطلقة (إلا فـــي حدود القانون) و العزة و الكرامة.

محتوى التوحيد هو الحرية و الحرية ممارسة و سلوك و فعل يقوم به الشخص ذاته قبل ان تكون حقا ، و نظاما و انفعالا . كلا .. فحريتي تبدء حين أرفض الخضوع لشيء أنى كان اسمه لاني اعتبر كل شيء خاضعا لله ، و أنا أيضا خاضع للهو لقانونه ، ولمن أمرني باتباعه ، و فيما وراءه لا شيء يمكن أن يخضعني لا الثروة و لا السلطة ولا الارهاب الفكري أو التعذيب.

الشرك اولا ثم الروابط العائلية:

و اذا ساد في المجتمع نظام الشرك ، فان القانون لا يمكن ان يكون الهيا لان كل بند من بنود القانون ينقض تحت ضغط الثروة أو السلطة أو الارهاب الفكري .لذلك بدء الله النهي عن المحرمات الأجتماعية بالنهي عن الشرك لانه الشرط المسبق لتنفيذ سائر المحرمات.

و بعد ان نتعهد بالتسليم لله وحده لا لشيء آخر يأتي دور بناء العلاقات الاجتماعية و أهمها العلاقة بين الاجيال - بين الجيل السابق (الوالدين) و الجيل اللاحق (الابناء - (العلاقة مع الوالدين يجب أن تكون علاقة الاحسان.

]و بالوالدين احسانا[

و الاحسان هو : العطاء الفضل الذي يتجاوز الحق الى الخير ، و هو بالتالي لا يعني التسليم المطلق (كما تعني العبادة) كما لا يعني الطاعة للوالدين . اذ أن الطاعة تعني بدورها الخضوع ، و المؤمن لا يخضع لغير الله ، نعم الطاعة بمعنى قبول عرض منهما بالنسبةالى عمل دون أن يكون ذلك فرضا من قبل الوالدين أو تسليما من قبل الاولاد ، هذه الطاعة مطروحة.

و المنطق المتخلف جعل التسليم للوالدين واجبا شرعيا ، فكرس الروح العشائرية في النفوس ، بينما لا نجد في الاسلام سوى الامر بالاحسان الى الوالدين ، بل وجدنا بالعكس من ذلك تماما ، نهى الاسلام عن الاتباع الاعمى للآباء ، و هذا ما يجرنا اليه المنطق المتخلف.

وكما يجب التسليم لله و الاحسان الى الوالدين لابد أن تكون علاقة الاحسان هي العلاقة السائدة بين أبناء المجتمع ، أما العلاقة بين الانسان و بين أبنائه و عموما الذين هم أقل منه مستوى فهي علاقة المحافظة عليهم ، و ألا يزعم الاب ان أولاده منافسين له فيقتلهم خشية أن يتأثر وضعه الاقتصادي بهم.

]و لا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم و اياهم]الاملاق هو الفقر ، و الجاهلية هي التي تجعل الاختلاف صراعا ، و الصراع حادا الى درجة التناقض ، فتجعل النظرة الجاهلية ضيقة (و التي هي نظرة الشرك) الآباء و كأن بينهم و بين الأبناء صراعا على البقاء ، و لذلك كانوا يقتلون أولادهم قديما ، أو يجهضون أولادهم بزعم أنهم يزاحمونهم في نعم الحياة ، أو يمنعون النسل بهذه الحجة.

هذه النظرة الشركية هي التي أوحت الى الماركسية بتصور التناقض الحاد بين أبناء المجتمع ، كما أوحت الفرويدية بأن الأبن الذكر ينازع أباه على أمه و الأنثى تنازع أمها على أبيها.

بينمـــا النظرة التوحيدية السماوية توحي الى الانسان بحقيقة التكامل في الحياة ، و أن نعم الله ليس فقط تسع كل الناس من دون صراع حاد ، بل و أيضا أنها تزداد كلما ازدادت العناصر الطالبة لها ، و ربما لذلك أشارت الآية الى ان الرزق سيتناوله الآباء قبل الابناء في حالة تواجدهم مع بعضهم.

ما هي الفواحش ؟

العلاقة الحسنة بين الآباء و الاولاد تتكامل مع العلاقة السليمة بين الزوجين ، حيث يجب أن تكون علاقة البناء لا الهدم ، و الزواج لا الفاحشة ، لذلك حرم الله الفواحش كلها.

]و لا تقربوا الفواحش ما ظهر منها و ما بطن[

قد تكون الفاحشة ظاهرة كالزنا و الشذوذ ، و العادة السرية و ما اليها ، و قد تكون باطنة و هي التي لا تحقق أهداف الزواج السامية كالصداقة مع النساء ، أو حرف الغريزة بما تخدم أهداف الشيطان كالاكتفاء بالصور الجنسية أو بالافلام الخليعة عن العلاقة الجنسيةالسليمة.

و قد يكون من مصاديق الفاحشة الباطنة عدم ايجاد جو التكامل في محيط البيت بما يخدم مصلحة الطرفين ، أو عدم أداء الحقوق الواجبة من قبل أي واحد من الطرفين كالمهر و النفقة و التمكين ، أو أن تكون نظرة أحد الزوجين متوجهة الى غير زوجه من سائر الذكور و الاناث.

و كذلك قد تكون من الفاحشة الباطنة أن يستهدف كل من الزوجين أشباع غرائزه دون أن يفكر في مصلحة الطرف الثاني ، فلا يتبع غريزته في وقت هيجانها ، أو لا يفكر في تكامله و نموه و راحته بقدر ما يفكر في نفسه فتكون قرارته ذاتية بحتــة.

هذه علاقة الزوجين ، أما علاقة الناس ببعضهم فيجب أن تكون تكاملية و لا تكون حدية نابعة من نظرة الشرك التي توحي أبدا بالصراع الباطل.

]و لا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق[

فقتل النفس المحرمة مظهر من مظاهر الصراع الشركي ، و حين يجب تصفية أحد جسديا ، كما اذا كان قاتلا أو مفسدا في الارض فانه يجب ذلك.

ان هذه المحرمات هي مما يذكر بها الله ليفتح العقول بها . اذ أنها مرتكزة في فطرة البشر لذلك عبر القرآن عنها بالوصية التي هي خير ظاهرة للانسان.

]ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون[

وهكذا ينظم التوحيد الحياة الاجتماعية

هدى من الآيات

بعد أن تحدث القرآن عن ادانة منطق الشرك الذي يدعو الى الصراع و التناقض ، فحرم القرآن جانبا من آثار هذا المنطق الباطل ، بعدئذ نهى القرآن عن آثار هذا المنطق في الواقع الاقتصادي للمجتمع ، حيث يسعى كل فريق نحو ابتزاز الآخريــن ، فحرم الله الاعتداء علىأموال الآخرين و بالذات أكل أموال الضعفاء كالأيتام ، و أكل الأموال بطرق ملتوية كالغش و نقص المكيال و الميزان . صحيح أن الفرد حين المعاملة يتدخل ماله بأموال غيره من حيث لا يريد - و هو ليس بحرام - لان الله لا يكلف الانسان إلا بقدر طاقته ، و لكن حرام أنيتعمد ذلك تعمدا ، أو على الاقل يعمل بالتطفيف في الميزان.

و لذلك ايضا أوجب الله الاستقامة على الطريق ، و عدم الانحراف عنه يمينا أو شمالا ، و ذلك بقبول القيادات الباطلة ، أو الخضوع للتيارات المنحرفة ، و هذا هو لب التقوى ، و محتواها الحقيقي الذي لا يصل اليه الانسان إلا باجتهاد عظيم ، و جهادأعظم.

بينات من الآيات

كيف نتصرف في مال اليتيم ؟

[152]من الميزات الهامة في التشريعات القرآنية هي الواقعية ، فتأتي واجبات و محرمات القرآن مطابقة لانحرافات الواقع الخارجي و مركزة عليها . مثلا : في باب الاقتصاد لا يكتفي القرآن ببيان حق الملكية الخاصة ، و حرمة الاعتداء على أموال النـاس ، بل ويهتم أبدا بتلك الحلقات الاكثر عرضة للاعتداء ، فيركز حديثه عليها ، ولذا يتوقف المجتمع عن الاعتداء في الحلقات الأكثر عرضة للاعتداء و يسرا ، فأنه بالطبع لا يعتدي على غيره ، و من هنا ذكر القرآن الحكيم هنا مال اليتيم ، و النقص في المكيال و الميزان ، أما مال اليتيم فلأن صاحبه ضعيف لا يقدر على المطالبة به ، و لانه أيسر وأقرب للضياع ، و اما النقص في المكيال فلأنه أسلوب شائع و بعيد عن ملاحقة القانون لان من الصعب التعرف عليه.

]و لا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن[

اي من اجل تنميته ، أو المحافظة عليه ، و إلا فلا يجوز أساس وضع اليد على مال اليتيم لانه لا يعرف رضا صاحبه بذلك.

]حتى يبلغ أشده[

فاذا بلغ أشده ، و بلغ سن الكمال و كان رشيدا فلابد ان تعاد اليه أمواله ، و لا يجوز حتى التصرف بالتي هي أحسن فيها ، كما جاء في آية أخرى.

"و ابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهمأموالهم و لا تأكلوها اسرافا و بدارا ان يكبروا " (١)وقد يكون بلوغ النكاح وحده نهاية السماح بالتصرف في أموال اليتيم لانه بعد ذلك سيصبح سفيها ، و مسؤول عن أموال السفهاء من جهة اخرى.

]وأوفوا الكيل و الميزان بالقسط[

فيحرم الغش في المكيال لانه نوع خفي للاعتداء على ثروة المجتمع ، و علاقة شركية و ليست توحيدية بين أبناء المجتمع ، و الوفاء بالكيل واحد من مصاديق احترام حقوق الآخرين أشار اليه القرآن لمعرفة سائر المصاديق مثل الغش و الغبن و مماطلة المدينين ، و استعجالالدائن.

في المجتمع الاسلامي الذي تسود علاقاته نظرة توحيدية لا يقتصر الفرد في النظر الى نفسه ، بل الى الآخرين أيضا ، و يرى ان بلوغ الآخرين الى مآربهم جزء من أهدافه ، بل هو طريق لبلوغه هو الى مآربه.

]لا نكلف نفسا الا وسعها[

الوفاء بالكيل و عدم بخس الميزان لا يعني ضرورة الدقة العقلية في ذلك مما يصعب عملية التبادل التجاري ، بل يعني أن يكون هدف الفرد القسط ، و لا يعتمد التجاوز على حقوق الآخرين ، و من هنا جاء في الآية الكريمة : أن الله لا يكلف نفسا الا وسعها . أي حسب استطاعتها دون حرج أو عسر ، ذلك لأن المجتمع المسلم تنتشر فيه روح المسامحة و الاحسان الى جانب الالتزام بالحقوق.

المسؤولية الاجتماعية:

و حين يلتزم سائر الافراد بالحقوق تنتهي المشكلة ، و لكن اذا تعاسروا و اختلفوا(١) النساء / ٦

فان ابناء المجتمع يجب أن يصبحوا قضاة عدولا ، و لا يحكموا ضد أو مع هذا و ذاك ، من دون دليل ثابت حتى ولو كان الشخص من اعدائي أو من اقاربي . لابد ان يكون كلامي عدلا.

]و اذا قلتم فاعدلوا و لو كان ذا قربى[

و اذا امتلك المجتمع روحا قضائية عادلة حكم ابناؤه لصاحب الحق و ضد الظالم أنى كان ، فانه يصبح ذا مناعة كافية عن انتشار الظلم فيه ، و عن نمو الجريمة ، اذ أن الظالم لا يبدء ظلمه بظلم كبير ، و كذلك المجرم لا يقترف جرائم كبيرة مرة واحدة ، انما يتدرج نحوها شيئا فشيئا ، فاذا ظلم الشخص مرة فعارضه أقرب رفاقه و أقاربه فسوف ينسحب لصالح المظلوم ، يتأدب ، و يتخذ لمستقبله درسا لا ينساه ، و كذلك المجرم لو قام في البدء بجريمة صغيرة في محيط معارض له فسوف يتوقف عن الاستمرار في الجريمة.

]و بعهد الله أوفوا[

هناك صلات طبيعية بين أبناء المجتمع كصلة الآباء بالأبناء ، وقد سبق الحديث عنها في الدرس السابق ، و هناك صلات حضارية أساسها التعاون على الخير ، و المصالح المشتركة و قد تحدث عنها القرآن في هذا الدرس ، بيد أن شرط بقاء هذه الصلات هو تحكيم النظرة التوحيدية في العلاقات ، و ذكرها الله سبحانه متمثلا في حرمة الحقوق ، و عدالة القضاء ، والآن ذكر الله سبحانه العهد باعتباره الحبل المتين الذي يشد المجتمع ببعضه ، و من دون تقديسه و احترامه لا يثق المجتمع ببعضه ، فيختل التعاون ، بل يستحيل التعاون ، اذ لا يمكن أن تعوض القوانين المستوردة و الضابط الالكتروني بالعهد ، حيث أن البشر قادر على تجاوزها و الالتفاف حولها ، و لكنه لا يستطيع تجاوز ضميره ، و الالتفاف حول وجدانه.

وقد جعل الله العهد بين الناس وثيقة بينه وبينهم مباشرة فسماه عهد الله حتى يعطيه الضمانة الايمانية لاجرائه.

ان هذه وصايا ربنا الاجتماعية التي لو امعنا فيها النظر لرأينا أنها حقائق واضحة كنا غافلين عنها ، فذكرنا ربنا بها:

]ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون[

الخطوط السياسية في المجتمع :

[153]في الآيات السابقة بين الله ضرورات بناء المجتمع المتكامل ، و علاقاته الداخلية بينما في هذه الآية يبين الله وجهة هذا المجتمع العام ، و تياراته السياسية و علاقاته العامة ، فيأمر الله المسلمين باتباع الصراط المستقيم الذي لا ينحرف مع ظروف سياسيةمتغيرة.

]وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله]الجماعة السياسية تعيش كما الفرد في المجتمع بين تيارات مختلفة منشؤها سائر المجموعات السياسية المجاورة لنا ، و كما على الفرد ان يلتزم خط الاستقامة بين افراد المجتمع كذلك المجموعة السياسية يجب أن تلتزم بالحق بين سائر المجموعات.

]ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون [

وحيث يكون الخط السياسي العام خطا صحيحا يكون من السهل على أبناء هذا المجتمع الالتزام بالواجبات الشرعية و التقوى عن المحرمات ، بينما لو لم يكن الخط العام كذلك فان مساعي الافراد في الالتزام بالخط الاسلامي تكون قليلة الجدوى.

اتباع الكتاب شرط التوحيد

هدى من الآيات

هناك خطان في الحياة . خط الشرك و الضلالة ، و خط التوحيد و الهدى ، و في الدرس السابق بين الله سبحانه جانبا من مفارقات هذين الخطين ، وما فيهما من آثار سلوكية ، و في هذا الدرس يبين فكرة خط الرسالة عموما . فيقول : ان الله سبحانه أنزل الكتاب على موسى لكي يكون نعمة تامة للمحسنين ، و لكي يفصل به شرائع الحياة تفصيلا ، و لكي يهدي الناس الى الحقائق مباشرة ، و لكي يوفر لهم الحياة الآمنة السعيدة ، و أخيرا لكي يربي فيهم التطلع الانساني الارفع الذي يتجاوز الدنيا الى الآخرة.

و كذلك انزل الله مثل ذلك الكتاب عليكم ، فعليكم اتباعه ، و أن تتقوا الله باتباع مناهجه ظاهرا و باطنا حتى تتوفر لكم حياة سعيدة ، و هذا الكتاب فيه زيادة على كتاب موسى ، فهو مبارك.

و انما انزل الله الكتاب أيضا لكي يتم الله حجته عليكم ، فلا تقولوا يوم القيامةتبريرا لكفركم : ان الله أنزل كتابه على اليهود والنصارى دوننا ، و أننا كنا غافلين عما يـــدرسون من الكتاب ، أو تقولوا :اننا سنكون أكثر التزاما بالرسالة لو أنزلت فينا ، فهذه رسالته بينة جاءتكم من ربكم . فيها خصائص الرسالات السماوية السابقة من الهدى والرحمة ، و لكن كم يكون ظلم المخالفين لانفسهم عظيما ، و انحرافهم بعيدا لو تركوه .

بينات من الآيات

أهداف رسالة موسى:

[154]أن لم تكن تلك الحقائق كافية لكم فهاكم حقيقة اخرى هي رسالة موسى ، كيف كانت ؟

انها كانت رسالة تامة للمحسنين ، حيث فتح لهم مجال العمل الاكثر من أجل الله و الانسانية ذلك لان في كل مجتمع نوعان من الرجال (محسنين و ظالمين) و المحسن أنى كان محترما ومقبولا اجتماعيا ، و لكنه بحاجة الى برامج لمضاعفة احسانه و لتنظيمه ، و جعله أكثرفاعلية و أبعد أثرا ، تماما كالمجاهد الذي ينذر نفسه لله و لكنه بحاجة الى برامج و مناهج ليجعل عمله أكثر نفعا ، و اقرب الى النتيجة ، و الله بعث برسالته التامة للمحسنين ، و هذا بذاته دليل على طبيعة الرسالة الحقة.

]ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن[

اي رسالة تامة على من أحسن من الناس ، و المحسنين كما قلنا : هم فئة من الناس يتجاوزون ذواتهم الى الآخرين ، فلا يكتفون بأداء حقوق الناس بل يضيفون عليها شيئا من حقوقهم.

]و تفصيلا لكل شيء[

برامج الله ليست ذات بعد واحد يتصل مثلا بالفرد دون المجتمع ، أو الاقتصاد دون السياسة ، أو الماديات دون المعنويات ، أو الآن دون المستقبل ، أو هذه الطبقة دون تلك ، أو تهتم بالعواطف دون العقول ، وهكذا . ان دليل صدق رسالات السماء أنها تتحدث عن كل شيء ، و لكن بتكامل و تناسب و عدالة بين مختلف أبعاد الحياة البشرية.

]و هدى[

و البرامج الالهية تنتهي بالهداية لانها حقة و واقعية ، فلو طبقها البشر لوصل الى الجذور الاساسية لها ، و الاصول العامة التي ابتنيت عليها ، و بالتالي الى الحقائق التي استهدفتها تلك البرامج.

ان البرامج الالهية تختلف في هذه النقطة عن البرامج البشرية و هي انك كلما طبقت البرامج التي وضعها البشر . كلما تعرفت على نقاط الضعف فيها بعكس البرامج السماوية التي يقول عنها ربنا:

]و الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا] (١(

]و رحمة[

و حيــن تطبق البرامج الالهية تتحقق اهدافك و تطلعاتك بعكس البرامج البشرية ، فلذلك فهي نقمة و البرامج السماوية رحمة.

و لكن الرسالات الالهية لا تكتفي بتنمية الجوانب المادية لحياة البشر ، بل و تنمي أيضا تطلعاته الاسمى من عالم المادة (عالم الدنيا الزائلة) الا وهي التي تلامس(١) العنكبوب / ٦٩

حدود الغيب و الآخرة .

]لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون[

ان الهدف من الرسالات السماوية هو تحقيق رفاه البشرية الذي يفرغ الانسان للآخرة.

أهداف رسالة الرسول:

[155]و لذات الاهداف انزل الله كتابه الأكمل و الأخير على محمد (ص. (

]و هذا كتاب أنزلناه مبارك [

و بركته و نموه يتمثل في أنه أكمل من سائر الرسالات.

]فاتبعوه و اتقوا لعلكم ترحمون[

واجــب البشريــة امـام القرآن اثنان : الاتباع و التسليم الظاهر ، و التسليم الباطـــن (التقوى) و اذا تحقق التسليم ظاهرا و باطنا تأهل البشر لرحمة الله.

إتمام الحجة:

[156]من مظاهر رحمة الله انه اتم حجته على عباده ، فرفع عنهم كل حجاب يمكن أن يمنع عنهم نور الهدى ، فحين عرف أن للعرب عصبية تحجبهم عن قبول رسالة الله التي انزلت في غيرهم من اليهود و النصارى بعث فيهم نبيا من أنفسهم ، كما أنه لكي لا يدعي هؤلاء أنهم كانوا مفصولين عن دائرة التأثير برسالات بني اسرائيل ، لذلك بعث فيهم رسالة خاصة بهم.

]ان تقولوا أنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا و ان كنا عن دراستهملغافلين[

فلم ننتبه للرسالة ، و من الطبيعي ان الغفلة عذر عقلي ، أو لا أقل أن رحمة الله أبت أن تعذب الناس على ذنب اقترفوه غفلة.

[157]يزعم البشر : انه متكامل ، و ان ما به من نقص و عجز فأنما هو بأسباب خارجة عن ارادته ، و لكي لا يزعم العرب هذا الزعم ، و يتصوروا انه لو أنزل الكتاب عليهم لكانوا افضل من اليهود و النصارى في تطبيقه . انزل الله الكتاب عليهم و قال سبحانه:

]أو تقولوا لو أنا انزل علينا الكتاب لكنا اهدى منهم]و يتحدى القرآن الحكيم فيقول :ها هو الكتاب نزل عليهم و فيه ثلاث مزايا.

الاولى :انه حجة واضحة ، و دلالة بينة على الحقيقة . كما المعالم تدل على الطريق ، و كما الدخان يدل على وجود النار ، و الصوت على وجود صاحبه.

الثانية :انه اذا طبقه الفرد هداه الى الحقيقة ، كما اذا سار الفرد في الطريق حتى وصل الى غايته ، أو استدل بالدخان فتحرك حتى رأى النار ، ورأى صاحب الصوت مباشرة.

القرآن هدى للمتقين ، فليس فقط يقود الفردالى الحقيقة ، بل و ايضا يجعل الفرد يلامس الحقيقة.

الثالثة :و حين يجد الفرد الحقيقة فان جانبا اساسيا من تطلعه يتحقق وهو عطشه نحو الحقيقة . اما الجانب الثاني فهو السعادة و الفلاح ، و بالتالي الاستفادة من نعم الله سبحانه و رحمته ، و يلخص القرآن هذه المزايا و هو يتحداهم بالقول:

]فقد جاءكم بينة من ربكم و هدى و رحمة[

البينة كما المعالم في طريق الحقيقة ، و الهدى الوصول الى الحقيقة ، و الرحمة هي : نعم الله.

]فمن اظلم ممن كذب بآيات الله و صدف عنها[

أعرض عن آيات الله التي تتضمن تلك المزايا التي فيها تطلع الانسان الأساسي في الحياة ، كما اذا عطش الفرد و لكنه حين وصل الى الماء كذب بانه ماء ، و اعرض عنه ، ان فطرة كل واحد منا تتعطش للحقيقة أكثر مما يتعطش الكبد الحار للماء البارد ، و ان حاجات كل واحد منا الطبيعية تتطلب اشباعها و هذا التطلب و ذاك التعطش قد يكون المراد من تعبير القرآن في بداية الآية:

]أو تقولوا لو انا انزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم]و لكن كم يكون ظلم الفرد لنفسه كبيرا حين يخالف فطرته و حاجاته لأجل عقدة نفسية ، أو أستكباره عن الحقيقة ، أو مراعاة ظروف اجتماعية أو ما أشبه ؟!

]سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون[

عقبات في طريق التوحيد

هدى من الآيات

في الدرس السابق ذكر القرآن ، ان الكتاب جاء استجابة لحاجة ملحة ، أما الآن فيبدو أن القرآن يبين العقبات التي تعترض طريق الاستجابة للرسالة الجديدة ، و هي - في هذا الدرس - ثلاث:

الأولى : التردد و انتظار شيء خارق للعادة مثل هبوط الملائكة ، أو وجود بعض الآيات ، و يعظنا القرآن أن نبادر الى الاستجابة للحقيقة . إذ ان انتظار ذلك اليوم الخارق معناه . فوات الفرصة.

الثانية : هي المعطيات الطائفية ، و القرآن يبين : أن هذا الذي يختلف في الرسالة ليس من الدين في شيء.

الثالثة : وجود الذنوب المتراكمة ، و يقول القرآن : إن الحسنة الواحدة تنمو و كأنها عشر حسنات ، أما السيئة فأن جزاءها واحد فقط.

بينات من الآيات

عقبات الايمان بالرسالة:

السبب الأول:

[158]لقد زود الله البشر بعقل و فطرة و معايير قادرة على فهم الحقيقة بعد التذكر بها من قبل الله سبحانه ، و لكن عليه أن يبادر بالاقدام و تجاوز حاجز التردد والخوف و الانتظار ، ان هذه هي الشجاعة العلمية التي كانت وراء اكتشافات العلماء ، و هي الشجاعة الايمانية التي كانت وراء تضحيات الصالحين ، و يتســـاءل ربنا عن هؤلاء الذين لا يؤمنون.

]هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة[

هل ينتظرون هبوط الملائكة كأمر خارق حتى يثير فيهم الحماس و يدفعهم نحو الايمان بالله.

]أو يأتي ربك[

عبر آياته الكبرى ، فالله سبحانه لا ينتقل من مكان لمكان لانه لا يخل منــه مكان سبحانه.

]أو يأتي بعض آيات ربك[

حيث تتجسد الحقائق . مثل ان يكون النهي عن الاسراف لانه يؤدي الى شلل الاقتصاد ، أو الظلم لانه يؤدي الى الفساد و الدمار ، أو الدكتاتورية التي تؤدي الى التخلف و العجز أو الثورة أو الاخلاق السيئة فانها تؤدي الى المرض و الفرقة ، فلا يطبق الانسان هذه النصائح بانتظار تلك العواقب التي حذر عنها ، و حين تأتي تلكالعواقب فماذا ينفع قبول تلك التحذيرات.

]يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا]ان لـم يصدق المريض قول الدكتور و هو يحذره من سوء حالته بسبب الارهاق ، و انتظر الارهاق ذاته فماذا ينفعه ؟! أو صدقه و لكنه لم يفعل بنصيحته ؟!

كذلك حين ينظر الفرد فلا يؤمن حتى تبدو آثار كفره ، فهناك يؤمن فما ينفعه الايمان.

]قل انتظروا إنا منتظرون[

نحن ننتظر و نحن مؤمنون ، اما انتم فتنتظرون على كفركم ، و الزمن يعمل لصالحنا دونكم.

الانسان يجب أن يتوكل على الله ، و يتق نعمه عليه ، فيتحرك بكل قوة نحو ما يهتدي اليه دون ان ينتظر شيئا.

السبب الثاني:

[159]و النظر الى الدين باعتباره مادة للعصبيات العرقية و القومية ، أو الجدليات الفارغة أحد اسباب الخطأ في فهم الدين ، و بالتالي في الايمان به و القرآن يصرح بأنه ليس ذاك الدين الذي يتخذ مادة للخلاف هو دين الله.

]ان الذين فرقوا دينهم و كانوا شيعا لست منهم في شيء]و الله هو الحاكم في عباده ، و كثير من الخلافات المذهبية لا يمكن أن تحلهاالجدليات ، بل يجب أن تتحول الى يوم القيامة و الى الله و المستقبل.

]انما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون]السبب الثالث:

[160]يشجع القرآن البشر الى المبادرة نحو الايمان بالله سبحانه ، فيعدهم بأن يجازيهم بالحسنة عشر امثالها . بينما لا يجازيهم بالسيئة الا مثلها.

]من جآء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها و هم لا يظلمون]و لكن كم يكون الظلم للنفس كبيرا حتى يرد على ربه هذه النعمة الكبيرة فلا يعمل بتلك الحسنة التي تحتوي عشر أمثالها.

الركائز الأساسية لملة التوحيد

هدى من الآيات

لكي يشجع ربنا عباده على الايمان بالكتاب . ضرب لهم مثلا برسوله الذي هداه الى الصراط المستقيم ، و الذي يتطلع اليه المجتمع ، ذلك الدين القويم الذي يمثل جوهر القيم و ذات الاستقامة على نهج ابراهيم و شريعته و خطه (خط التوحيد و نفي الشركاء) و يتمثل خطالتوحيد عند ابراهيم (ع) و في دين محمد عليهما وآلهما صلوات الله . يتمثل في توجيه الحياة كلها في خط التوحيد . سواء كانت الصلاة و النسك (العبادات) أو أمور المعيشة في الحياة و الممات ، و ان ينفي الشركاء ، وأن يسلم لله رب العالمين دون أن يعير انتباها السائر الناس و هذا معنى الحنيف ، و اذا انحرف البشر عن عبادة الله فألى أين يتجه ، هل يستبدل الله الذي هو رب كل شي ء بغيره و يكتسب إثما ؟! إنه إن يكتسب اثما فانما يكتسبه على نفسه ، ولا يحمل أحدا أثقاله .اذا فالبشر مسؤول عن عمله ، وغدا سيلاقي جزاء عمله، و يرى الحقائق واضحة .

أما الطبقات الاجتماعية فلا تدل على ان الطبقة الاعلى رب صغير ، و على أبناء الطبقة الأدنى اطاعتهم .. كلا . انما هذه الطبقات هي من صنع الله ، وهدفها أختبار البشر ، و هي زائلة ، و الله سريع العقاب ، و لكنه قد يمهل البشر لانه غفور رحيم.

بينات من الآيات

ملة ابراهيم:

[161]من الفوائد الاساسية لبعث الرسل في صورة أشخاص أنهم يصبحون قدوة حية للآخرين ، و البشر بطبيعته يتأثر بالقدوة أكثر من تأثره بالفكرة المجردة ، وقد كان الأنبياء عليهم السلام يدعون الناس بسلوكهم المستقيم ، و أخلاقهم الحسنة ، كما كانوا يدعون بأقوالهم ، و لقد دعوا اتباعهم الى مثل ذلك كما جاء في الحديث.

)كونوا دعاة لنا بغير السنتكم(

و حين يكون الشخص مستقيما في فكره يكون مستقيما في سلوكه ، و السلوك المستقيم ينعكس

ايجابيا في الفعل ، فيصنع واقعا قائما بذاته ، و يؤثر بالطبع ذلك الواقع في الحياة ، و لنضرب مثلا صغيرا : اذا أصبحت مستقيما فماذا أفعل ؟

أولا : لا اكذب ولا اخون الوعد أو العهد او الامانة ، لتزداد ثقة الناس بي ، و أصبح قطبا لاهتمامهم ، و مركزا لقيادتهم.

ثانيا : تستقيم آرائي و ترشد ، فأكون موضعا لاستشارة الناس ، و مركزا لقيادتهم.

ثالثا : أكون شجاعا مقداما لا أخشى أحدا ، فأكون موكلا للمستضعفين و ملجأ لهم.

رابعا : أستقيم في تربية أبنائي ، و تنمية أموالي ، و تهذيب زملائي و .. فأكون مثلا للقوة.

ترى كم تخلف الاستقامة من أثر في الواقع الخارجي فتخلق تغييرا فيه ، هكذا تصبح استقامة الانبياء ، و من أبرز البينات على صدق دعوتهم ، و كذلك العلماء و المصلحين.

]قل إنني هداني ربي الى صراط مستقيم[

و الاستقامة ليست طبيعية في البشر ، بل انها بحاجة الى مناهج عملية متكاملة ، انك بحاجة الى خريطة واضحة حين تريد المشي في طرق الغابة ، اما طرق الحياة فهي أكثر تعقيدا من طرق الغابة فاين هي برامج الاستقامة ؟ انما هي في الدين القويم.

]دينا قيما[

اي دينا علا كله استقامة ، و الدين القيم لم يكن بدعا في التاريخ ، بل كان خطا اجتماعيا متمثلا في نهج ابراهيم)ع. (

]ملة ابراهيم[

و ابراهيم (ع) كان متحديا لانحرافات الناس.

]حنيفا وما كان من المشركين [

عشرات الافكار رفضها ابراهيم حتى أصبح موحدا ، و مئات الانواع من الضغوط تحداها حتى تحرر منها و لم يرضخ لوجهتها ، و مئات القيود كسرها و حطمها حتى أصبح حرا طليقا ، تحدى قيد الاسرة فرفض كلام أبيه آزر (عمه) الذي أمره بالكفر ، تحدى قيد المجتمع وقاومه ،و تحدى السلطة و استهزء بها ، و تحدى حب الاولاد فأرادان يذبح ابنه استجابة لأمر الله ، و هكذا أصبح حنيفا حرا ، و لم يكن مشركا بالله أحدا من خلقه أو شيئا من نعمه.

معنى التوحيد:

[162]و من ابرز تجليات الاستقامة في حياة الرسول وحدة وجهته في أبعاد حياته.

]قل ان صلاتي ونسكي و محياي و مماتي لله رب العالمين]فلم تكن صلاته و ذبائحه لغير الله حسب ما كانت عليه الجاهلية ، أو صلاته لله عبر عبادته للاصنام . كلا .. و لم تكن حياته لقيصر و مماته لله ، فاقتصاده و سياسته ، و اخلاقه و اجتماعه ، و تربيته و بناء بيته ، و حتى حركاته و سكناته كلها كانت لله ، و باتجاه مرضاته ، و لتحقيق قيمه سبحانه ، و في خطه كما كان مماته لله ، فكان يختار الشهادة في الله اذا دعت الضرورة الرسالية ذلك.

[163]و عاد القرآن و كرر ان معنى التوحيد هو كسر القيود ، و قطع الحبال التي تربط بأي مركز آخر.

]لا شريك له و بذلك امرت و أنا أول المسلمين[

لقد امر الله نبيه مثلما أمرنا بالا نركع لأي ضغط انى كان نوعه ، و أن نسلــم لمناهج الله.

[164]و السؤال لماذا التوحيد ، و لماذا اخلاص العبودية لله ؟

و الجواب أولا : لان الله هو رب كل شيء ، فعبادة الاشياء التي هي خاضعة لسلطة الله دون ربها ليست إلا غباء.

]قل أغير الله أبغي ربا و هو رب كل شيء[

و النظام القائم في الكون انما هو بتدبير الله و هو الذي يجريه ، فعلينا ان نخضع لذلك النظام.

ثانيا :ان الارتباط بغير الله من خلقه لا يرفع عني وزرا ولا مسؤولية ، فلا يمكن ان أغمض عيني و أقلد آبائي أو مجتمعي ، أو الأسماء اللامعة في الثقافة ، لاني بهذه العملية لا استطيع أن أرفع عن عنقي المسؤولية ، أو أن أضع وزري على عاتق من اتبعه . كلا .. أنا مسؤول ، و ذنبي يتبعني شئت أم أبيت.

]ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى]ثالثا : الله هو المقياس الحق لتقييم الفكرة السليمة عن نقيضتها الباطلة ، أو لتقييم السلوك السليم عن المنحرف ، و ليس مقياس الحق و الباطل أكثرية الآراء أو القوة أو الشهرة أو القرابة.

]ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون][١٦٥] رابعا : ان الله هو الذي جعل طائفة من الناس بعد طائفة ، و جيلا بعد جيل ، و قرنا بعد قرن ، فليست أسبقية هؤلاء دليلا على أنهم أقرب الى الله زلفى ، بل كلهم عند ربهم سواء ، و لذا لا يجوز أن يتخذ بعضهم بعضا أربابا ، فيعبد الخلفاء من كان قبلهــم.
كلا .. كما ان الله هو الذي انعم على بعض الناس بنعم اكثر من غيرهم أو بنعم مختلفة عن نعم الآخرين ، و هذا لا يدل على أنه سبحانه أقرب الى هؤلاء أو أولئك ، بل ان الهدف من ذلك هو مجرد اختبارهم في النعم ، فيمتحن الغني بثروته و الفقير بفاقته ، و العالم بعلمه، و الجميل بما لديه من جمال.

و هكذا ينسف القرآن أصول الشرك من النفوس حيث يحترم الفرد السابقين ،فقد يعبدهم مبالغة في احترامهم ، و قد ينبهر بهم و ينجذب اليهم فيختار عبادتهم لهذا السبب.

]و هو الذي جعلكم خلائف الارض[

فبعضكم يخلف بعضا ، و يأتي مكانه.

]و رفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم أن ربك سريع العقاب و انه لغفور رحيم]و الله سبحانه اذا أراد ان يعاقب أحدا فهو سريع في عقابه ، و لكنه لا يريد أن يعاقب أحدا لانه يغفر ذنبه أو يؤخره لعله يتوب ، من هنا فعلينا ألا نعتمد أبدا على أن الله لم يعذبنا بشركنا باحترام آبائنا الى حد الشرك و الطاعة و العبادة لهم ، أو حب المال والجمال و السلطة الى درجة الانجذاب اليهما و عبادتهما ، كلا ان الله اذا اراد أن يعاقب فهو سريع لا يعطيك فرصة للفرار.

سورة الاعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

-1روى العياشي باسناده عن ابي بصير ، عن ابي عبد الله عليه السلام قال " من قرأ سورة الأعراف في كل شهر كان يوم القيامة من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فان قرأها في كل يوم جمعة كان ممن لا يحاسب يوم القيامة. "

- 2قال ابو عبد الله " اما إن فيها ايا محكمة فلا تدعو قراءتها و تلاوتها ، و القيام بها ، فانها تشهد يوم القيامة لمن قرأها عند ربه " (١)(١) مجمع البيان / المجلد ٢ ص ٣٩٣

الاطار العام

هذه السورة تبحث موضوع الانسان ، ففي البداية تبين قصة الخطيئة الاولى و غريزة حب السلطة و حب الخلود ، و كيف يغوي الشيطان البشر فيندم ، و يتعدى على حقيقته التي لا يسترها الا لباس التقوى ، و أن من عوامل الخطيئة التقليد و تقديس الآباء ، و الزعم بان الله يأمر بذلك ، بينما الله لا يأمر بالفحشاء ، بل يأمر بالقسط ، و التوجه مخلصا الى الله عند كل مسجد و التزين ، و ان يتمتع بالخيرات دون اسراف ، و أن من الحرام : الفواحش ، و البغي ، و الشرك ، و التقول على الله بدون علم أو كتاب منير (٣٣/٩. (

و الانسان يهتدي برسالات السماء ، أما من يكذب و يستكبر ، أو يفتري على الله فانه يعذب عذابا شديدا ، حيث تلعن كل أمة اختها بسبب الطاعة لها ، أما في الجنة فهناك القلوب الصافية ، و هذا التقسيم للناس انما هو بمقياس الهداية و الضلالة ، و العلاقة بينهما هي التي تظهر عند الله ، حيث يستنجد الكفار بأهل الجنة ،فيذكرونهم بأيام صدهم عن سبيل الله في الدنيا ، و بينهما أهل الاعراف من قادة المتقين حيث يعرفونهم جميعا ، ويوبخون أولئك الذين اتخذوا الدين لهوا ولعبا ، و انتظروا نهاية الامر (٥٢/٣٤. (

و علاقة الانسان بالله هي طلب المزيد من رحمته ، لانه رب العالمين ، و علاقته بالحياة و بالناس هي الاصلاح و عدم الافساد.

و كما ارسل الله الرياح بشرا بين يدي رحمته ، فكذلك أنزل رسالاته هدى و رحمة و قصة نوح مع قومه تدل كيف أن رسل الله يريدون هداية الناس و انذارهم و رحمتهم بالتالي ، و لكنهم يعاندون و يستكبرون فيهلكون (٦٤/٥٣. (

و كذلك هود دعى الى التقوى فكذبوه و سفهوه ، و لكنه ذكرهم برب العالمين (و صاحب الرحمة المكتملة لهم) ، و ذكرهم كيف استخلفهم الله في الارض ، فتمسكوا بضلالة آبائهم فاستمهلهم الله قليلا ، و بعدئذ قطع الله دابرهم . (65/72)

أما صالح رسول الله الى ثمود فقد زود بناقة معجزة ، و ذكرهم باستخلافهم ، و نعم الرفاه و العمارة عندهم ، و لكن حالة الاستكبار و استغلال المستضعفين منعتهم من الاهتداء ، فعقروا الناقة ، و اهلكهم الله . (73/79)

و انحرف الانسان في قوم لوط بالشذوذ الجنسي ، فأمطر الله عليهم بعد نصيحة نبيهم مطر السوء ، أما مدين فقد نصحهم رسولهم شعيب بترك الفساد الاقتصادي و الاصلاح ، و عدم الصد عن سبيل الله الذي اتبعه فريق منهم ، و لكن الاستكبار منعهم ، و دعاهم الى محاولة اخراج شعيب ، و توكل المؤمنون على الله ، فأخذت الرجفة الظالمين و أصبحوا حديثا يروى ، و لم يأس عليهم رسولهم الناصح (٩٣/٨٠. (

و يأخذ الله كل قوم يرسل اليهم نبيا بالبأساء و الضراء ، و لكنه يبدلهم بالحسنةالسيئة ، ثم اذا لم تنفعهم الحسنة أو السيئة يأخذهم بغته ، و ان الايمان و التقوى يفتحا بركات السماء عليهم ، و لكن هل يأمن أهل القرى بأس الله و مكره ؟ ان عليهم ان ينظروا كيف يهلك الله قوما ، ويستخلفهم بقوم آخرين (١٠٠/٩٤. (

كذلك جاء موسى بالآيات لملأ فرعون الذين ذكروا بها ، و انتهت حياتهم الفاسدة ، و ذكرهم موسى بالحق ، و طالبهم بتحرير بني اسرائيل ، فطالبوه بآية فالقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ، و أراهم يده البيضاء ، و لكنهم رموه بالسحر و اتهموه بتهديد الامن ، و سجنوه ،و جمعوا السحرة ، فآمن السحرة و انقلبوا صاغرين ، و عذب فرعون السحرة المؤمنين فصبروا ، و طالب الملأ فرعون بعقاب موسى فتوعد فرعون موسى ، و لكن قوم موسى استعانوا بالله و صبروا انتظارا لوراثة الارض ، فأخذ الله آل فرعون بالسنين و المصائب ، و لكنهم نسبوا الحسنة الى أنفسهم و السيئة الى موسى ، و أستكبروا عن الايمان و تظاهروا بالايمان عند السيئة ، و كفروا عند الحسنـــة ، فانتقم الله منهم فأغرقهم ، و أورث الله الارض الذين كانوا يستضعفون ، و دمر فرعون و قومه (١٣٧/١٠١. (

و يستمر السياق القرآني في بيان الطرح البشري بين فريقي المهتدين و الضالين الى الآية (١٥٦) حيث يحدثنا عن مجمل قصص موسى مع قومه.

و يحدثنا السياق عن الرسالة الجديدة التي جاءت محررة للبشرية من اغلالها النفسية و الثقافية و ذلك على يد النبي الأمي المبشر به في الكتب السابقة ، و التي هي رسالة جميع البشر (١٥٨/١٥٧. (

و يعود السياق الى امة موسى بأقسامها و أخطائها و منها : عدم تناهيهم عن المنكر في قصة السبت ، و كيف مسخوا قردة ، و كيف تركوا الدين بالرغم من أنبعضهم ظل متمسكا بالكتاب ، و كيف أمرهم الله بأخذ الكتاب بقوة و ذلك بعد ان نتق الجبل فوقهم . (159/171)

و لكن السياق يعود بنا الى العهد الانساني الاول ، حيث أخذ ربنا من بني آدم عندما كانوا في ظهر أبيهم ميثاقا باتباع الهدى ، و كيف أن بعضهم يشرك الآن بسبب شرك آبائهم و أن بعضهم ينقض هذا العهد عهد العلم و المعرفة ، حيث يخالف ميثاق المعرفة (١٧٦/١٧٢. (

لذلك يختار الله اليهود تارة و العرب تارة ، حسب ظروف فترة الاختيار ، و يبين مدى الجريمة عند من يكذب بالدين ، وكيف أن ربنا قد قدر لهم جهنم مصيرا ، لانهم لم يستفيدوا من مداركهم (١٧٩/١٧٧. (

و يبين الله أسماءه الحسنى ، و كيف أن طائفة يلحدون في أسمائه سبحانه ، و أن الله سيستدرج المكذبين ويملي لهم حسب خطة حكيمة لانهم لم يتفكروا ليعرفوا أن رسولهم ليس بمجنون ، و لم يتفكروا ليعرفوا ما في السموات و الارض من آثار التدبير و التقدير ، و انه عســـى قد يكون أجلهم قد اقترب ، و أنه ان لم يؤمنوا بهذا الحديث فبأي حديث بعده يؤمنون ؟ (١٨٥/١٨٠. (

و الله يضل و من يضلله الله فلا هادي له و أن الساعة علمها عند الله ، و اما الرسول فلا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا (١٨٨/١٨٦. (

و يبيـــن السياق : كيف أن الله قدر حياة البشر ، و خلقه بوحدانيته المتعالية عن الشـركاء ، و لكن المربين افسدوا ضميره و اشركوا فيه ، بينما الله هو ولي البشر ، و ولي الصالحين منهم بالذات ، بينما الشركاء لا يستطيعون نصر البشر و الشركاء لا يملكون السمع(١٩٨/١٨٩. (

وعلى الرسول ان يأخذ العفو ، و يأمر بالفطرة و العقل ، و يبتعد عن الجهل ، و على البشر أن يتقوى بالله على شيطانه ، وان يتذكر ربه حتى يمسح نفسه آثار مس الشيطان و يبصر الحقائق ، و اذا لم يكن الانسان متقيا فان الشيطان يمده في الغي و العمه مثلا نرى يطالبون أبدا بآية لم ينزلها الله دون أن ينتبهوا الى ان الرسول مقيد بالوحي ، وان القرآن بصائر ، و على الانسان نفسه ان يتبصر الحقائق ، و ان يستمع الى القرآن ، و ان يذكر ربه تضرعا و خفية ، و ان يتجنب الغفلة ، ولا يستكبر عن عبادة ربه ، و

يسبحه و يسجد له ، ذلك هوبرنامج بناء الشخصية المؤمنة و الانسان المتكامل الذي تتناوله موضوعات سورة الاعراف (٢٠٦/١٩٩. (

الرسالة الميزان الحق

هدى من الآيات

)ا ل م ص) هذا كتاب أنزله الله على قلب الرسول الذي ينبغي ان يتسع له و لا يضيق به ، ولا يتردد في قبوله و ادائه ، و انذار الناس به حتى يؤمنوا فاذا آمنوا فان الكتاب سيكون ذكرى لهم..

و على الناس اتباع قيم الكتاب ، و الذين يجسدون هذا الكتاب ، أما غيرهم الذين يتخذون من دونهم أولياء على أساس القيم فحرام اتباعهم ، لانهم سوف يقودون البشر الى الهلاك ، فكم من قرية أهلكها الله فاذا بعذاب الله يأتيها ليلا ، أو عند فترة القيلولة صباحا ولم يدعوا شيئا ، و انما اعترفوا بذنبهم ، و أنهم ظلموا أنفسهم.

و الله سبحانه يحاسب الذين أرسل إليهم الكتاب ، كما يحاسب الذين أرسلهم لتبليغ الرسالة ، ثم يبين الله لهم الحقائق لانه سبحانه كان شاهدا عليها و لم يكن غائبا عنها ، ثم بعد الحساب الدقيق يوزن ايمان و اعمال العباد ، فمن كانت موازينه ثقيلة فانه من اهل الجنة و الفلاح ، بعكس ذلك الذي كانت موازينه خفيفة أنه قدخسر نفسه ، و ضيع الفرصة عليها ، و السبب أنه حين جاءته الآيات الكريمة لم يستمع اليها حتى يهتدي بها ولا يظلم نفسه..

بينات من الآيات

بسم الله الرحمن الرحيم

] [1]المص[

هذه هي فواتح السور التي قيل عنها أشياء كثيرة قد يكون أغلبها صحيحا ، باعتبار القرآن الكريم ذو أبعاد مختلفة ، بيد أن من الممكن ان تكون هذه الاحرف رمزا تدل على ذاتها دون اي شيء وراءها ، كما سبق و أن تحدثنا عنه في سورتي البقرة و آل عمران ، و على هذا الاساس تكون الكلمة التالية لها خبرا لها.

ربانية الكتاب:

[2]و لم يكن القرآن من تأليف محمد (صلى الله عليه و آله) و لا من نبوغه ، بل هو كتاب أنزله الله ، و أحد أبسط الأدلة على ذلك أن صدر الرسول يكاد يضيق به ، و لذلك أمر الله رسوله بأن يتسع قلبه الشريف لهذه الرسالة.

]كتاب أنزل اليك فلا يكن في صدرك حرج منه[

الرسالة بحاجة الى سعة الصدر حتى يتحمل الفرد ثقل الحقائق التي فيها و حتى يتحمل جهد العمل بها ، و صعوبات تبليغها ، و سعة الصدر يأتي من الايمان بالغيب ، بالمستقبل البعيد ، بالآفاق الواسعة ، و من التوكل على الله ، و الثقة بالقدرات التي أودعها في كيانالبشر ، و الامكانيات التي سخرت له ، و بالتالي فان سعة الصدر نابعة من الخروج عن زنزانة الذات ، و الانطلاق في رحاب الله من أجل خدمة البشرية جميعا.

زنزانة الحياة:

ان الشهوات ، و الآمال و الطموحات الخاصة ، و الجهل بالمستقبل ، و الانحسار ضمن اللحظة الحاضرة كل تلك جدران معتقل البشر التي تضيق عليه رحاب الكون.

]و من يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام] (١(

و على من يريد حمل رسالة الله ان يتمتع بسعة الصدر بهذا المفهوم الواسع للكلمة ، و الهدف من الكتاب هو : انذار غير المؤمنين ، و تذكرة المؤمنين حتى يزدادوا ايمانا.

]لتنذر به و ذكرى للمؤمنين [

[3]لقد أنزل الله الكتاب لكي لا يتبع الانسان سوى القيم السماوية ، و الذين يجسدون تلك القيم ، ولا يخضعون لهذا أو ذاك باي أسمآء مخترعة..

]اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء]اي لا تتركوا اتباع القرآن باتباع الاولياء الغرباء..

]قليلا ما تذكرون[

اذ البشر قلما يستطيع التحرر من جاذبية الاشياء و الأشخاص ، و التحليق في سماء القيم ، و اذا تمت هذه الحرية فأنما عن طريق التذكر بالله و باليوم الآخر.

(1)الانعام / ١٢٥.

[4]و حين يتبع الانسان اولياءا من دون الله فأنه هالك ، و يأتيه عذاب الله على غفلة منه دون ان يستطيع له ردا..

]و كم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون]أي ليلا أو في منتصف النهار حين يستريحون الى نوم القيلولة ، أو بتعبير آخر ليلا أو نهارا.

[5]ولم تكن حجتهم اذ ذاك الا الاعتراف بظلمهم.

]فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا انا كنا ظالمين]لقد كان ظلمهم بوعي ، و بعد اتمام الحجة عليهم ، لذلك اعترفوا به حين الهلاك و لم يدعوا - حتى مجرد الادعاء - بغير ذلك.

[6]و لم تنته العقوبة بالنسبة لهؤلاء بالهلاك الدنيوي ، اذ جاء بعدئذ دور الحساب الآخروي.

]فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين[

اي نسأل المبلغين للرسالة كيف بلغوا و بماذا أجيبوا ؟ و نسأل الناس لماذا لم يجيبوا بعد اتمام الحجة عليهم ؟

[7]و لكن هذا السؤال ليس عن جهل أو عن غيبة ، بل لمجرد المحاسبة ، و لكي يعترف الظالمون بجريمتهم ، فان الله سوف ينبؤهم عن كافة تفاصيل حياتهم بعلم ، لان الله لم يكن غائبا حين اكتسابهم للاعمال..

]فلنقصن عليهم بعلم و ما كنا غائبين[

[8]و بعد المحاسبة يأتي دور الجزاء العادل ، لان ما يوزن به الاعمال حق و دقيق و ليس فيه أدنى نقص .

]و الوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون]لانهم أصابوا الفلاح المادي و المعنوي بالجنة و الرضوان ، و قد انتهت صعوبات الحياة و مخاوفها بحياة رغيدة آمنة.

[9]و لكن الخسارة كل الخسارة هي أن يكتشف الفرد خفة موازينه ، اذ لا يملك البشر سوى فرصة واحدة للعمل هي أيام عمله المعدودة في الدنيا ، فاذا خسرها فماذا يبقى له هناك ؟

]و من خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون]انهم ظلموا الآيات فلم يسمعوها ، ولا عملوا بها ، فاذا بهم يخسرون كل ما يملكون .

جذور الانحراف في حياة البشر

هدى من الآيات

في هذا الدرس يبدو ان القرآن الحكيم يذكرنا بالموضوع الاساسي في هذه السورة حيث تبين طبيعة الانسان ، و أسباب انحرافه ، لقد خلق الله الانسان ، و جعل له الارض مكانا و محلا للرزق ، و لكن رد فعله لم يكن الشكر ، ولكن لماذا لم يشكر ؟

ان هذا يعود الى قصة الخطيئة الاولى ، حيث خلق الله آدم و جعله في أحسن صورة و تقويم (و أعطاه الروح ، و العلم ، و الارادة) و أمر الملائكة بالسجود له ، فلم يسجد إبليس له لانه خلق من نار بينما خلق آدم من طين ، و هكذا تكبر إبليس فطرد من السماء و اخرجصاغرا ، بيد أن إبليس طلب المهلة ، فأعطاه الله ما طلب ، فأستغل إبليس مهلته في اغواء البشر عن الصراط المستقيم ، و اقسم انه سيأتيهم من قدامهم و من خلفهم ، و من قبل أيمانهم و شمائلهم ، ليحرفهم عن الشكر لله ، لذلك اخرج ربنا إبليس كما أخر الذين يتبعونه ، وأوعدهم النار ، و أن يملأ بهم جهنم جميعا.

هكذا كانت جذور الانحراف عند الانسان ، اما المثل الحي لهذا الانحراف فسوف يحدثنا عنه القرآن في الدرس القادم.

بينات من الآيات

بين النعمة و الجريمة:

[10]من نعم الله على الانسان تمكينه في الارض ، و تذليل الارض و تسخيرها له ، و جعل الله فيها معايش البشر ، و ما به تستمر حياتهم.

]و لقد مكناكم في الارض و جعلنا لكم فيها معايش[

بيد ان البشر لا يفكر في اسباب النعم و عواملها ، لذلك لا يشكر عادة من انعـــم بها عليه.

]قليلا ما تشكرون[

[11]من اين تنشأ عادة الجريمة ؟

في قصة آدم و ابليس توضيح لهذا السؤال ، لقد خلق الله البشر وصور خلقه جوهرا و صورة و هيئة ، و ربما المراد من الصورة هي ما أودع الله عند الانسان من صفات و اخلاق ، و من غرائز و فطرة ، و بالتالي العقل والارادة كما قال سبحانه:

]ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين] (الحجر / ٢٩)وقال سبحانه:

]و لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم] (التين / ١٣٠)وقال:

]فأحسن صوركم] (غافر (64 /

و بعدئذ أمر الله الملائكة بالسجود لآدم ، و ربما كان السجود رمزا لكرامة العلم و الارادة عند البشر ، و رمزا لتسخير الحيلة له بفضل العلم و الارادة ، بيد أن الهدف من بيان قصة إبليس هنا ، يختلف عن هدف ذلك في سورة البقرة ، حيث كان الهدف هناك - حسب الظاهر - هو : بيان تسخير الحياة للانسان بفضل العلم ، أما الهدف منها هنا فهو : بيان واقعة الخطيئة كيف ؟ و لماذا وقعت ؟

]و لقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا إبليس لم يكن من الساجدين]لماذا عصى إبليس ؟

و لقد جاء في الاحاديث أن التعبير القرآني الذي استخدم ضمير الجمع هنا دليل على واقعة الذر ، حيث خلق الله البشر جميعا بصورة (ذر) في صلب آدم ، و لذلك جاءت كلمة (ثم) للدلالة على الترتيب.

[12]و لكن ما هي الصفة التي كانت في ابليس ، فمنعته عن السجود بعد ما جاء الأمر الصريح ؟

]قال ما منعك ألا تسجد اذ أمرتك[

استخدم القرآن التعبير بكلمة (ألا) بدل (أن) ربما للاشارة الى ان صفة المنع لم تكن آنية أو محدودة بهذا العمل ، بل كانت مرتبطة بالطاعة على العموم ، أي ما منعك عن الطاعة ألا تسجد.

]قال أنا خير منه خلقتني من نار و خلقته من طين[

لقد كان جواب إبليس واضحا ، لقد كان سبب عصيانه العنصرية ، و الزعم بأن عنصره أفضل من عنصر آدم ، و عموما هناك مقياسان للانسان ، اما مقياس الذات ، و اما مقياس العمل الصالح ، فاذا كان مقياس الشخص هو ذاته ، فانه سوف لا يقف عند حد فـــي جريمته ، لانه لا يرشيئا أقدس من ذاته أو أعلى من نفسه ، و من هنا فان جذر كل المشاكل البشرية ، هو : تقوقع الانسان في ذاته ، و اعتقاده بأن ذاته هي المقياس ، و ما الاقليمية ، و القومية ، و العشائرية ، و كل الحواجز الذاتية ما هي سوى آثار لهذه العنصرية المقيتة.

[13]و لكن مقياس الحق هو : مقياس العمل الصالح ، لا فرق بين عامله من يكون ؟ و من اي عنصر ؟ لذلك أخرج الله ابليس من جنته.

]قال فاهبط منها[

اي مـن السماء أو من الجنة ، و تدل كلمة الهبوط على الهبوط من مكان أعلى ، و من الطبيعي ان يكون هبوط إبليس ليس ماديا فحسب ، بل و معنويا ايضا ، و لذلك عاد القرآن و استخدم كلمة الاخراج أيضا.

]فما يكون لك ان تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين]و هكذا كانت الخطيئة الاولى بسبب الاعتماد على العنصر ، و الذي تجسد في صورة التكبر عن الحق ، و من ثم كان الجزاء الهوان.

من حقائق الجزاء:

[14]و على الانسان ان يعرف حقيقة هامة جدا هي : أن الجزاء لا يكون دائما بعد العمل مباشرة ، بل على العكس حيث يتأخر الجزاء عن العمل ، و هذا إبليس قد طلب المهلة من ربنا فأعطاه أياها.

]قال أنظرني الى يوم يبعثون[

] [15]قال انك من المنظرين [

و أهمية فهم هذه الحقيقة تأتي من أن البشر بسبب محدودية الرؤية ، و ضيق الافق يزعم أنه لا يجازى على أعماله بمجرد تأخر الجزاء ، بل حتى حين يأتيه الجزاء ينسى أنه جاءه نتيجة عمله ، و لذلك لا يرتدع بالعقاب و لا يندفع الى الثواب ، و انما يستفيد من الجزاءالذين يعدمون المسافة الزمنية بين العمل و الجزاء ، و يتصورون أنفسهم منذ لحظة القيام بالعمل و كأنهم في لحظة الجزاء ، فالزارع الذي يتصور وقت الحصاد ، و الطالب الذي يتخيل قاعة الامتحانات ، و الجندي الذي تتراقص في مخيلته لحظات الانتصار ، و المؤمن الذي يظنأنه ملاق ربه يكون عملهم أتقن و أبقى ، بينما المجرم الذي ينسى قاعة المحكمة ، و الفاجر الذي يكفر بالآخرة ، و الفاسق الذي يتناسى الموت يكون أجرء على الله ، و أوغل في الخطيئة.

[16]و الهالك يسحب من حوله الى الهلاك ، كما الناجي يريد لمن حوله النجاة مثله ، و إبليس حين أمره الله بالسجود تكبر فأخرجه ، و هكذا اضمر حقدا مركزا ضد ابناء آدم الذي بسببه طرد من السماء.

]قال فبما أغويتني لاقعدن لهم صراطك المستقيم[

انه يقعد لنا ، اي يرصدنا و يمكر بنا ، و مكره يتجسد في محاولة سلب نعمة الاستقامة منا.

[17]و يسعى إبليس بكل وسيلة ممكنة لكي يضللنا.

]ثم لآتينهم من بين أيديهم و من خلفهم و عن أيمانهم وعن شمائلهم]قد تكون هذه الجهات رمزا لاحاطة الشيطان بأبناء آدم من كل مكان ، حتى يتحسس البشر بمدى الخطر الذي يهدده ، فلا يكون في الحياة مهملا ، فارغ البال ، ضعيف العزيمة ، بل يكون جديا ذا فعالية كبيرة.

وقد تكون رمزا لأساليب الشيطان ، حيث يخدع البشر بالمستقبل القادم من بين يديه حينا ، حيث يمنيه غرورا ، و يزين له اشياء يعده بها ، و قد يضله بتصوير الماضي بطريقة تدفعه الى الاعمال السيئة ، أو بسيرة الآباء ، أو بفلسفة التاريخ أو .. بمن حوله من الناس ، بأولاده و زملائه ، أو باعدائه و المنافسين له.

المهم :ان يعرف البشر أنه لو لم يتصل بالله سبحانه ، ويستعد استعدادا كاملا ، لأحاط به مكر الشيطان وارداه و أهلكه ، فلا يصبح شاكرا لأنعم الله و جميل فضله.

]ولا تجد أكثرهم شاكرين[

و هذا في الواقع أسلوب خبيث يستخدمه إبليس ، حيث يربط النعم بنفسه ، أو بالأولياء من دون الله ، و الذين هم أدوات له و ليس بالله سبحانه.

[18]و الله أعطى البشر العلم و الارادة ، و حذره من الشيطان ، و بذلك كلفه مسؤولية الدفاع عن نفسه ، ضد هجمات إبليس.

]قال اخرج منها مذؤما مدحورا[

أي أنه بعيد معنويا و ماديا حيث أنه يذم و يطرد.

]لمن تبعك منهم لاملأن جهنم منكم أجمعين[

أي بالتأكيد ان من يتبعك من البشر سيكون مكانه جهنم مع إبليس.

الغرور الشيطاني سبب الهبوط
هدى من الآيات
كانت قصة إبليس و عنصريته ، و تكبره و خروجه من السماء ، و وعده أنه سوف يغوي أبناء آدم ، و بالتالي كانت قصة الخطيئة الاساسي هي موضوع الدرس السابق ، و الآن جاء دور آدم و أبنائه كيف أنهم انخدعوا بابليس ، و كيف ينبغي تجنبه ؟

أسكن الله آدم و زوجه الجنة ، و سمح لهم بتناول كل الطيبات باستثناء شجرة واحدة ، و التي انما نهيا عنها بسبب حكمة ، بيد ان الشيطان وسوس لهما ليظهر ذلك العيب الذي ستره الله ، و خدعهما بأن الله لم ينه عن هذه الشجرة الا لكي لا يصبحا ملكين خالدين ، و بذلك اثار فيهما حب الرئاسة و حب البقاء.

و حلف لهما بأنه ينصحهما ، و لكن ذلك كان غرورا ، فلما طعما من الشجرة ظهرت العورات الخفية لهما ، و اذا بهما يخصفان عليهما من ورق الجنة ، و هناك ناداهمـا الله ربهما ، و قال : أو لم أنهكما عن الشجرة و حذرتكما من عدوكما الشيطان ، و بخلاف الشيطان الذيازداد تكبرا ، فأن آدم و زوجه ندما على عملهما

و اعترفا و قالا : ان لم تغفر لنا و ترحمنا لنكونن من الخاسرين ، و لكن الذنب كان له أثره السلبي حيث أهبطا و ذريتهما الى الارض ، ليكون بعضهم لبعض عدوا ، و لتكون لهم فيها فرصة محدودة.

طبيعة العجز البشري:

[19]يبدو أن الجنة التي سكن فيها آدم و وزجه مثل حي لنعمة الحياة المرهفة التي يوفرها الله سبحانه للبشر اذا اتبع مناهجه ، حيث أن مناهج الله ليست سببا للشقاء ، بل سببا للسعادة و الفلاح ، و الله لم يحرم الطيبات ، بل حرم بعضا مما أوجبته حكمته سبحانه ،كما أباح لابينا آدم وزوجه أكل ما شاء و لكن حرم عليهما شجرة واحدة ، والتي لو اقتربا منها لأصبحا ظالمين حيث أنها كانت تضرهما.

]و يا آدم اسكن انت و زوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين][٢٠] قبل أن يواجه الانسان التحديات و الشهوات يزعم أنه قادر على مواجهة الضغوط و المشكـــلات ، و أنه صالح ، و لكن الضعف و العجز كامنان في طبيعة البشر ، و يظهران في الامتحان ، و على البشر أن يستعد للقيام بعد السقوط ، و التوبة بعد الذنب ، و ألا يغتر بنفسه ، و لا تأخذه العزة بالاثم.

]فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وري عنها من سوءاتهما]و الوسيلة التي استخدمها الشيطان هي الوسوسة ، و حسب الظاهر فان الوسوسة هي : التشويش على رؤية الانسان و عمله و فطرته ، و ذلك عن طريق اثارة الغرائز التي تصبح حاجزا بين العقل و الحقائق.

و استخدم إبليس اسلوبين آخرين:

أولا : تفسير الحقائق و تحويرها تفسيرا باطلا.

ثانيا : الكذب و الحلف عليه ، اما التفسير الباطل فحين كذب.

]و قال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين]جذر الخطأ:

لقد أثار إبليس صفتين في آدم موجودتان في كل أبنائه ، أولهما : حب الملك و العزة و الرفعة ، و الثانية : حب الخلود و البقاء و الاستمرار و هاتان الصفتان هما تعبيران عن حب الذات و العنصرية المقيتة التي كانت السبب في اغواء إبليس ، بيد أن إبليس أظهر السببصراحة ، و علينا ان نسعى من أجل مراقبة هذه الصفات التي ينفذ من خلالها الشيطان الى قلوبنا و يفسد اعمالنا .

و من الملاحظ ان نقص المواد الغذائية ، أو فقدان المسكن و الملبس و ما أشبه لم يكن سبب معصية آدم ، انما هو حب الخلود و الملك ، و هكذا في أبنائه فلو استطاع البشر مقاومة هذا الحب لتخلص من كثير من المعاصي.

[21]ولم يكتف ابليس بتفسير النص الالهي تفسيرا خاطئا لهما و اثارة الغرائز عندهما ، بل كذب عليهما كذبا صريحا و مؤكدا بالقسم.

]و قاسمهما اني لكما لمن الناصحين[

و أصل المقاسمة : ان تكون من طرفين كأية صيغة أخرى من دون المفاعلة ، بيد أن إبليس قد يكون حلف حلفا مكررا كان يعارض حلف الطرف الآخر.

[22]و كل ذلك التفسير و الكذب و الحلف كان غرورا ، أي تركيزا للنظر فيجانب واحد فقط ، و ترك الجوانب الثانية مهملة ، حيث أن أصل الغرور هو الثوب حتى لا يتبين كل جوانبه ، و الشيطان ينفذ الى قلب البشر من خلال الغرور حيث يسعى الى تأكيد جانب واحد فقط من الحقائق و ترك سائر الجوانب.

]فدلاهما بغرور[

و أخيرا طعما شيئا من الشجرة ، فظهرت لهما عوراتهما فاذا بهذا يرى عورة الثاني فاستحيا ، فأخذا يجعلان أوراق الشجر عل بعضها عسى ان تصبح على هيئة اللباس فيواري عوراتهما ، و بالطبع فان ابناء آدم حين يتبعون الشيطان تظهـر نقائصهم ، و ضعف ارادتهم ، و قلةمقاومتهم للشيطان.

]فلمـا ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما و طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة [و هنا انتهت مرحلة الامتحان ، فناداهما ربهما و قال لهما : الم أنهاكما عن هــذه الشجرة ، و هكذا يستقيظ الضمير بعد ارتكاب الجريمة.

]و ناداهما ربهما ألم أنهاكما عن تلكما الشجرة و أقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين][٢٣] و عـاد الرشـد الى آدم و زوجه كما يعود الى ابنائه العاديين بعد الجريمة ، و هذه من ميزات البشر على إبليس الذي لم يعترف بالخطيئة ، اما التوبة و اصلاح الفاسد من أبرز و أعظم الصفات الحسنة لو استغلت.

]قالا ربنا ظلمنا أنفسنا و ان لم تغفر لنا و ترحمنا لنكونن من الخاسرين][٢٤] و خسر البشر بذلك فرصة البقاء في الجنة ، و هبطوا الى دار الدنيا بسبب حب الخلود و الرفعة ، و انتشرت بينهم الخلافات ، و الصراعات الاجتماعية الدائمةو المقيتة و كل ذلك وليد هذه النفسية المذنبة ، و لكن الله أنعم عليهم ببعض الأستقرار على الأرض ، و ببعض المتاع و التمتع المؤقت..

]قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو و لكم في الارض مستقر و متاع الى حين][٢٥] هنا دار الحياة و الممات ، ومن ثم البعث.

]قال فيها تحيون و فيها تموتون و منها تخرجون[

كيف يواري لباس التقوى سوأة الانسان ؟

هدى من الآيات

كما نزع إبليس لباس ابينا آدم حتى بدت له سوءاته ، كذلك يسعى من أجل أن ينزع لباس التقوى منا نحن ابناء آدم ، ذلك اللباس الذي يواري سوءات البشر ، و علينا ان نتذكر هذه الحقائق : ان الشيطان أقوى منا في الخداع ، لانه يرانا دون أن نراه ، ولكنه لا يستطيع ان يسيطر الا على الكفار ، لان الايمان يقاوم اغراء الشيطان.

أما الكفار فانهم يخدعون من خلال مجموعة أفكار خرافية مثل : اتباع الآباء ، و الاعتقاد بأن كل ما يعمله الآباء فهو دين و مأمور من قبل الله سبحانه ، بينما ربنـا لا يأمر بالفحشاء ، و هؤلاء يقولون ما لا علم لهم به ، و انما اتباعا لأهوائهم ، ولا يتذكر هؤلاء أن أباهم آدم قد خدعه الشيطان ، فكيف بسائر الناس ؟!

إذ المقيـاس ليس ما يقوله الآباء ، بل ما يأمر به الله سبحانه الذي أمر بالقسط.

بينات من الآيات

لباس التقوى:

[26]لقد أنزل الله لبني آدم لباسا يواري عوراته ، و أعطاه ريشا و زينة يتجمل بها ، بيد أن لباس التقوى الذي يواري سوءات البشر المعنوية خير له ، و عليها لا يكتفي بلباس البدن وحده.

]يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم]و ربما استخدم القرآن كلمة) أنزلنا عليكم) لان البركات كلها من السماء.

]و ريشا[

اي زينة و متاعا.

]و لباس التقوى ذلك خير[

من لباس البدن بالرغم من ضرورة الاهتمام بهذا و ذاك معا.

]ذلك من آيات الله[

اي هذه حجة من حجج الله ، و آية على عظمة الله ، و هذه الحقيقة يجب أن يستوعبها الناس.

]لعلهم يذكرون[

ان معرفة حاجة البدن الى اللباس قد لا تحتاج الى تعمق بقدر فقه حاجة الروح اليه..

[27]و مرة اخرى يذكر الله البشر بأنهم أبناء آدم الذي فتنه الشيطان و اخرجه من الجنة ، وعليهم أن يتحذروا من فتنة الشيطان.

]يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة]والشيطان كما نزع لباس ابوينا فانه يسعى لينزع عنا لباس التقوى.

]ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما[

و كذلك حين يفتن البشر يرى الواحد سلبياته و ضعفه و عجزه ، فيكون أول من يندم و يوبخ نفسه ، و الشيطان يملك وسيلة ضد البشر هي المكر و الخداع ، فاذا تسلح الانسان باليقظة و الحذر أستطاع ان يقاوم كيد الشيطان.

]انه يراكم هو و قبيله من حيث لا ترونهم[

بين ولاية الله و سلطان الشيطان:

و لكن ليس للشيطان سلطان على البشر ، لأن البشر يملك الارادة و العقل و الضمير ، و لكن الكفار يفقدون ارادتهم في مقاومة الشيطان ، فيصبح وليهم بسوء اختيارهم.

]انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون[

اما المؤمنون فالله وليهم و هم احرار من قيود الشيطان قال تعالى:

]ذلك بان الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم] (محمد /١١)ان الذي يتبع شهوة الثروة و يخضع لسلطان الطاغوت ، و يستسلم لارادة رئيس العشيرة ، و يخوض مع تيارات المجتمع حيث خاضت ، انه يفقد أرادته و يصبح ذرة في مهب الرياح الشيطانية.

[28]و علامة فقد الارادة ، أن هذه الفئة لا تملك حرية التفكير و تتعرض لأسوء استعمار و استعباد وهو فقدان الاستقلال الفكري و الثقافي الذي هو مقدمة لسائر انواع الاستغلال و الاستثمار.

]و اذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا[

زاعمين أن ذلك يكفي شرعية للعمل ، و أسوء من هذا أنهم كانوا يزعمون أن أفكار الآباء تمتلك قداسة سماوية.

]و الله أمرنا بها قل ان الله لا يأمر بالفحشاء[

تلك التي يوافقها الفرد بعقله ، و كلما يأمر به الآباء أو الاحبار أو السلاطين ، و لكن العقل كان يعارضه فهو بعيد عن القداسة و عن الله.

]أتقولون على الله ما لا تعلمون[

[29]العدالة فطرة كامنة في البشر و طموح كبير و اذا لم يهو أحد القيام بالقسط بنفسه فلا ريب أنه يحبه للآخرين و يطالبه منهم ، و الله لا يمكن أن يأمر بغير القسط ، و العالم كله يشهد له بالعدالة في كل شيء.

]قل أمر ربي بالقسط[

و أمر الله بألا يعبد الا هو ، و حتى في المواضع التي يعبد من دون الله شركاء ، يجب رفض الشركاء و عبادة الله الواحد القهار.

]و اقيموا وجوهكم عند كل مسجد[

أنى كان ميعاد السجود علينا ان نسجد لله لا للشركاء ، رمزا لخلوص عبادتناو وحدة اتجاهنا ، و دعائنا كذلك يجب أن يكون خالصا لله.

]و ادعوه مخلصين له الدين[

فلا يتجزء الدين ليؤخذ منه جانب العبادات و تترك المعاملات الاقتصادية ، أو القضايا السياسية أو ما أشبه ، و ليس هناك تمييز بين أبناء آدم حتى يعبد بعضهم بعضا ، أو يترك بعضهم جانبا من الدين أرضاءا للبعض الآخر.

]كما بدأكم تعودون[

سواسية كأسنان المشط.

[30]نعم هناك اختلاف واحد بين ابناء آدم يعترف به الاسلام هو : أختلافهم من حيث الايمان و العمل

الصالح (أو بتعبير آخر اختلاف الارادة و السلوك. (

]فريقا هدى[

اي هداهم الله فاستجابوا للهداية.

]و فريقا حق عليهم الضلالة [

و كتبت عليهم الضلالة بسبب توجههم الى غير الله.

]انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله و يحسبون أنهم مهتدون]حينما يهبط البشر الى هذا الدرك لا يرجى له الشفاء و يصبح ممن حقت عليه الضلالة ، حيث يتخذ الشيطان ، الذي هو عدو ، وليا وقائدا له ، و يكفر بالله خالقه و راحمه ، و الانكى من ذلك أنه يحسب نفسه مهتديا ، و هو في الضلال البعيد.

تشريعات الرسالة تكامل و واقعية

هدى من الآيات

في الدرس السابق ، أمر القرآن باخلاص الدين لله ، و معناه أن تكون وجهة البشر نحو الله في كل جوانب الحياة ، و أن تكون برامج الله سائدة على كل أبعاد الحياة ، و في هذا الدرس يضرب القرآن لنا مثلا واقعيا حيث يأمرنا بالتزين عند كل مسجد فالمسجد عبادة ، و الزينة حياة كما يأمرنا بالأكل و الشرب ضمن حدود التقوى ، ثم تساءل القرآن عمن حرم زينة الله ، و طيبات رزقه التي هي خالصة للمؤمنين في يوم القيامة ؟ ثم نهى القرآن عن مجموعة شؤون حياتية كالفواحش والاثم و البغي فالفواحش و الاثم مثلا للسلوك الشخصي المنهي عنهو البغي مثلا للسلوك الاجتماعي المنهي عنه.

كما نهى مرة اخرى عن الشرك . الذي من مظاهره الخضوع للسلطان الظالم ، و نهى عن القول بغير علم مثلا لتوجيه القرآن في الثقافة ، هذا هو الدين و خلوصه يعني الا يتبع الفرد شريعة و منهاجا من غير الدين.

بينات من الآيات

كيف نعرف طبيعة الديانات .. ؟

[31]بالنظر الى جانب واحد من مذهب أو دين نستطيع ان نعرف طبيعته معرفة تامة ، فاذا نظرت الى مسجد المسلمين فانك تستطيع ان تعرف الصيغة التكاملية للاسلام ، فالمسجد محل عبادة يعرج منه المؤمنون الى الله ، و مقام حرب بين الهوى والعقل ، و بين الباطل و الحق، و لكنه في نفس الوقت مكان للتعارف و التعاون و الاجتماع ، و كلما يقرب الافراد الى بعضهم يستحب أو يجب وجوده في المسجد كالطهارة و النظافة و الزينة ، حيث أمر الله بأن يتخذ المؤمنون أفضل زينتهم الى المساجـد ، حتى يكون مظهر المجتمع جذابا ، و يقرب مظاهرالافراد بعضهم الى بعض.

]يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد[

و كما أنزل الله لبني آدم لباسا و ريشا ، و كما أنعم على أبوينا باللباس كذلك أمر بالاستفادة من نعمة الزينة ، و لكن ليس في التفاخر ولا في مجالس اللهو ، و إنما للتعارف و للتعاون في المحافل الدينية و كما ينبغي الانتفاع باللباس كذلك ينبغي أن يستفيد المؤمن من نعم الأكل و الشرب و لكن في حدود العدالة التي تحافظ على تعادل المجتمع ، كما تحافظ على سلامة الجسد الذي يفسده الاسراف في الطعام.

]و كلوا و اشربوا ولا تسرفوا[

إن حرمة الاسراف ، و ضرورة تنظيم الأكل و الشرب مظهر آخر من مظاهر التكاملية في الاسلام.

]انه لا يحب المسرفين[

الاسراف قد يكون بتجاوز حدود الشريعة ، فالذي يأكل لحم الخنزير ، و يشرب الخمرة فهو مسرف لا يحبه الله ، اذ ما دام الحلال واسعا . فلا حاجة الى الحرام ، و قد تتجاوز حدود العرف العام فتبني بيتا بمليون دينار في الوقت الذي يكفيك نصفه ، و قد تشتري سيارة بعشرةآلاف دينار بينما تكفيك سيارة بألفين ، و حدود السرف ترتبط بالظروف الاجتماعية ، بل و حتى الظروف الشخصية ، فالفقير الذي لا يملك سوى بضعة دنانير فيصرفها في شراء العطور ، و يهمل عائلته جائعين يعتبر مسرفا ، بينما لو فعل الغني مثل ذلك لم يكن كذلك ، و الدولالفقيرة التي تقلد الدول الكبرى في بناء المطارات الضخمة ، أو المباني الرياضية الكبيرة ، أو بناء سفارات فخمة تعتبر مسرفة ، بينما قد لا يعتبر مثل ذلك اسرافا للدول الغنية.

هل حرم الله الزينة ؟

[32]لم يحرم الاسلام الزينة على المؤمنين ، بل اعتبرها خالصة لهم يوم القيامة ، فكيف يحرمها الله على المؤمنين في الدنيا ؟

]قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده و الطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة]فالزينة مخلوقة للمؤمنين في الدنيا و لكنها غير خالصة من شوائب المصائب ، أما في الاخرة فهي خالصة لهم ..

]كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون[

بالعلم و المعرفة يعرف المؤمن ان الاستفادة من نعم الله لا ينقص الايمان ، و إنما ظلم الناس ، أو الخضوع للظلم ، أو السكوت على ظلم الظالمين هو الحرام و هو الأصعب مسؤولية و واجبا ، و من استطاع ان يحقق هذا الواجب ، و يؤدي هذهالمسؤولية فقد اقتحم العقبة و فاز ، و لكن من دونها لا ينتفع له التخشن في المأكل و ترك الزينة.

تحريم الفواحش جوهر الدين:

[33]ركز القرآن على حرمة الفواحش و البغي و الشرك و هي جوهر الدين و اثقل مسؤولية ، و هذه المحرمات الثلاث تتصل بثلاث أبعاد من حياة الفرد هي:

الأول :العلاقات الجنسية : حيث حرم ربنا الفواحش ، و من أبرز مظاهرها الشذوذ الجنسي الذي يهدم الأسرة ، ويفسد العلاقات الاجتماعية ، و يسيء التربية و هكذا ، و ليست الفواحش الظاهرة كالزنا هي المحرمة فقط ، بل الباطنة أيضا منهي عنها مثل : مصادقة النساء ،و ربما تشمل الفواحش الباطنة تلك الاسباب التي تـؤدي اليها مثل الخلاعة ، و وضع العقبات أمام الزوج.

]قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن[

الثاني :السلوكيات الشخصية التي حرم ربنا فيها الاثم وهو كل حرام مثل شرب الخمر ، و أكل لحم الخنزير ، و المحرم من اللحوم خصوصا ما لم يذكر اسم الله عليه .

الثالث : ظلم الناس و تجاوز حقوقهم سواء كانت الحقوق المالية كحرمة السرقة ، و الرشوة ، و الضرائب المجحفة ، و الغش ، و أخذ المال من دون عمل مناسب . أو كانت حقوقا أجتماعية مثل حرمة الغيبة و التهمة و النميمة و ما الى ذلك ، إن كل ذلك ظلم و حرام..

]و الاثم و البغي بغير الحق [

و ربما يكون كلمة (بغير الحق (تفسير للبغي ، و أن كل تجاوز للحق يعتبر بغياو ظلما حراما.

و بعد هذه المحرمات يأتي دور المحرم الخطير !؟ و هو المرتبط بالسياسة حيث يحرم الخضوع لسلطان غير سلطان الله ، أو اتباع شخص أو جهاز لم يأذن به الله ، و بالتالي يجب التمرد على هذه الانظمة التي تحكم الشعوب بأسماء غير إسم الله ، أو تدعي أنها تمثل سلطان الله كذبا و زورا و هذا هو الشرك.

]و ان تشركوا بالله[

في سلطانه و سيادته القانونية و السياسية.

]ما لم ينزل به سلطانا[

فاذا أنزل الله سلطان بجواز اتباع احد عبر ادلة عقلية واضحة لا يرتاب فيها الشخص ، آنئذ فقط يجوز أن يخضع الفرد له و ذلك الشخص مثل الرسول (ص) و الائمة الهداة (ع) ، و العلماء بالله الأمناء على حلاله وحرامه.

أما ان يتخذ الفرد شخصا قائده و امامه ، أو يتخذ حزبا يقلده و يتبع برامجه بصورة عشوائية ، فذلك امر لا يجوز أبدا.

و اذا كانت الولاية لله ، و لمن أنزل الله فيه سلطانا يجب ان تكون الثقافة السائدة على هذا المجتمع ثقافة حقة ، لان الثقافة هي الخلفية الرصينة لهذه الولاية ، و ذلك لا يكون إلا بعد سكوت الجاهل ، و عدم إشاعة الافكار الباطلة ، فاذا سكت من لا يعلم بحث الناس عن العلم الصحيح ، و وصلوا اليه عبر قنواته السليمة.

]وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون[

أما إذا شاع الافتراء على الله ، فقال كل واحد كلاما و نسبه الى الله ، فان طريقالحق يضيع بين طرق الضلال ، و كلمة علم واحدة تختلط بألف كلمة جهل ، و لا سبيل آنئذ للانسان للوصول الى الحقيقة.

هذه هي المحرمات التي لو واجهت الفرد المسلم أو المجتمع المسلم في تنفيذها لبقي جزء منها غير مطبق ، إلا من عصمه الله لأنها صعبة للغاية ، أما إذا تجنب الفرد جانبا من الطيبات ، و تصور أنه زاهد ، أو اعتبر الدين كله مجرد الابتعاد عن بعض اللذائذ ، فان ذلك خداع ذاتي لا أكثر.

عاقبة الذين يفترون على الله الكذب

هدى من الآيات

بيانا و توضيحا للدروس السابقة ، جاء هذا الدرس ليذكرنا بأن حياة البشر محدودة بأجله ، و أن أجله لا يتأخر و لا يتقدم ، فليس بامكانه أن يطلب المهلة و لو لوقت قصير ، و أن الفرصة الوحيدة هي الحاضر ، حيث جاءت الرسل تقص آيات الله ، فعلينا أن نتقي الله ، ونصلح العمل حتى لا تضرنا العاقبة ، بينما التكذيب بآيات الله ، و الاستكبار عنها ينتهي بالنار الخالدة ، و لكن لماذا التكذيب ؟ أو ليس ذلك ظلما يظلم به البشر نفسه و بلا سبب ، حيث يكتب عليه القانون ما ينبغي له ، و آنئذ لا يجد له ملجأ يلجأ اليه ، أما أولئكالشركاء الذين كان يتوعدهم الله ، فانهم يغيبون عنه ولا يجد لهم أثرا ، و هناك يقول الله لهم : الحقوا بأسلافكم من الكفار ، أولئك الذين يستقبلونكم باللعنة ، و يقول المتأخرون : يا رب ؟ عذب هؤلاء الذين أضلونا عذابا مضاعفا ، لأنهم كانوا السبب في وقوعنا في العذاب ، بيد أن الله يقول :و أنتم بدوركم سينالكم العذاب المضاعف لأنكم فعلتم الذنب ، و لأنكم اتبعتم السابقين من دون سلطان ، بيد أن للسابقين كلمة أيضا ، حيث يقولون للآخرين:

ماذا انتفعنا باتباعكم لنا ؟!

بينات من الآيات

بين الاجل والعمل:

[34]ان يعرف البشر أن عقاب أعماله ليست عاجلة و لكنها مؤجلة لوقت محدد ، إن ذاك يعطيه مزيدا من الكبح الذاتي ، و ينمي وجدانه الرادع و يربيه ، و لكن قد يزعم البشر أنه ما دام العقاب مؤجل فمن الممكن ان نستفيد من تأخير العقاب مرة بعد اخرى ، حتى نتوب أو نعمل صالحا فيرتفع العقاب رأسا ، و لكن القرآن يسفه هذا الزعم : بأن لكل أمة أجلا حدده الله ، و بالرغم من ان هذا الاجل مجهول إلا أنه معلوم عند الله ، و إذا بلغ أجله فلن يتبدل ، فعلينا اذا انتظار ذلك الاجل في كل لحظة ، ولا مفر منه و لا تأخير فيه ، و ليس لدينا قدرة على مقاومته إلا بالعمل الصالح الذي يجعل الأجل في صالحنا.

]و لكل أمة اجل[

أي وقت تستنفذ الأمة خلاله كل إمكانات التذكر و الايمان.

]فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة و لا يستقدمون]و كم يكون خطيرا هذا الأجل اذا جاء دون أن يعمل الانسان صالحا.

[35]و لذلك فعلينا أن نستعد للاجل المحدد الذي لا يتغير ، و الاستعداد لا يتم الا بالاستجابة لرسالات الله.

]يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي]فعليكم الاستجابة لهذه الرسالة ، التي تفصل لكم كل شيء تفصيلا.

]فمن اتقى و أصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون[

لا خوف عليهم بسبب أعمالهم الصالحة ، فهم لا يخشون بلوغ الأجل و نهاية الفرصة ، كما الطالب المجد لا يخشى الامتحان ، و كما البريء لا يخشى المحاكمة ، و هم لا يحزنون على ماضيهم الذي استغلوه بالعمل الصالح . استعدادا لهذا اليوم ، و ربمـــا تكون التقوى هي: الجانب النفسي و الاصلاح هو : الجانب العملي.

[36]بيد أن الخوف و الحزن من نصيب الكفار الذي يكذبون بالآيات بعد وضوحها ، فهي علائم صريحة على الحقيقة التي لا يصدقون بها استكبارا ، و استجابة لأهوائهم ، و عقدهم النفسية.

]و الذين كذبوا بآياتنا و استكبروا عنها[

إن جزاء هؤلاء الاقتران بالنار ، و التلاحم مع عذابها دون أن يجدوا خلاصا.

]أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون[

و خلود هؤلاء في النار يعتبر الجزاء المناسب لعنادهم الذي لا رجاء في إصلاحه ، و لاستكبارهم الذي جعل قلوبهم في صندوق حديدي لا ينفذ إليه النور و الهواء ، بالرغم من قوة ضياء النور أو زيادة دفع الهواء .

[37]إذا كم يكون ظلم البشر لنفسه كبيرا حين يجعل نفسه في هذا المأزق الخطير ، و يستكبر عن الحقيقة.

]فمن أظلم ممن إفترى على الله كذبا أو كذب بآياته]إن البشر حين يستكبر و يتطاول على الحقيقة يخدع نفسه و الآخرين بصنع بديـــل للحقيقة ، فهو من جهة يكفر بالحقيقة و الآيات و العلائم الواضحة التي تدل عليها ،و من جهة ثانية يخلق لنفسه أفكارا و ينسبها الى الله كبديلة عن الحقائق ، و جزاء

هؤلاء هو :أن تلك الحقائق التي كفروا بها ستحيط بهم و تنتقم منهم.

]أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب[

إن نصيب المؤمنين العاملين بالكتاب هو تحقق المكتسبات الرسالية الحسنة لهم ، أما نصيب الكفار الرافضين للكتاب فهو تحقق العقوبات التي ينذر بها الكتاب ..

]حتى اذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله]أي تلك الأفكار ، و أولئك الشركاء الذين كانوا يجسدون تلك الأفكار في الواقع العملي ، أين هم الآن ؟ و قد كنتم تعتمدون عليهم ، و تزعمون بأنهم يشكلون البديل المناسب عن الحقيقة ، و عن آيات الله!

]قالوا ضلوا عنا و شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين]كافرين بالحقيقة ، و بالتالي شهدوا على أنفسهم بأنهم يستحقون العذاب.

حوار التابع و المتبوع:

[38]لأن هؤلاء كانوا مستكبرين ، لذلك كانوا يفتخرون بأنسابهم و بعشيرتهم ، و بالسابقين من آبائهم و كبرائهم ، و حين اجتمعوا في النار ببعضهم ، كان بين التابعين و المتبوعين منهم حوار نافع لنا.

]قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن و الانس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها]بالرغم من ان الأمم اللاحقة تعتمد على الأمم السابقة في الدنيا ، لكنها فيالآخرة و لوضوح الحقائق عندهم جميعا يلعن بعضهم بعضا..

]حتى اذا اداركوا فيها جميعا[

أي اجتمعوا إلى بعضهم ، و أدرك بعضهم بعض.

]قالت أخراهم[

أي تلك الأمم المتأخرة.

]لأولاهم ، ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار]لأنهـم أضلوا و سنوا سنة سيئة ، فسرنا عليها فهم يستحقون ضعفا من العذاب.

]قال لكل ضعف[

لأولئك بسبب أسبقيتهم بالكفر ، لأنهم سنوا تلك العادات السيئة ، و روجوا لتلك الأفكار الباطلة ، و كل من يدعو الى فكرة باطلة فله عذاب من يعمل بها.

أما أنتم فعليكم ضعف من العذاب ، لأنكم اتبعتم أولئك من دون سلطان من الله أنزل عليكم ، فالذي يعمل السيئة بسبب شهواته عليه من العذاب بقدرها ، أما من يعملها تقليدا لغيره فعليه بالاضافة الى عذابها عذاب التقليد الباطل ، لأنــه يحرم شرعا أن تتبع أحدا مندون الله ، فان إتباعك له شرك و ضلالة بذاته ، إنه كفران بنعمة الحرية ، و تحطيم لكرامة الله عليك.

]و لكن لا تعلمون[

[39]و السابقون أجابوا أتباعهم بأنهم لم يزيدوهم باتباعهم شيئا ، فما الذي انتفع به فرعون من اتباع ملوك مصر له ، و ما الذي انتفع به هتلر من اتباع حكامالبلاد الاسلامية له و لأساليبه ؟ لا شيء.

]و قالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون]إن العذاب الذي يذوقه الكفار إنما هو بسبب ما اكتسبوه من أعمال ، لا بسبب هذا الشخص أو ذاك.

عاقبة المكذبين و المستكبرين

هدى من الآيات

في الدرس السابق . ذكرنا القرآن بسفاهة الاستكبار ، و في هذا الدرس يبين لنا جزاء الاستكبار ، الذي هو في الواقع متصل بطبيعة الاستكبار.

التكذيب بالآيات ، و الاستكبار عنها معناه الخلود الى الأرض ، و الاعتقال في السجون المادية ، و لذلك لا يعرج المستكبر في سماء التقرب الى الله ، و لا يحلق في أجواء المعرفة و الكمال ، و كأن أبواب السماء مغلقة في وجهه ، أما الجنة في الآخرة فأنها مغلقة دونهم و يستحيل عليهم دخولها ، كما يستحيل ولوج الجمل بضخامته في ثقب المخيط.

إن ذلك جزاء المجرمين بسبب جريمتهم التي ارتكبوها ، أما منزل هؤلاء في جهنم فأرضها من نار ، و سقفها من لهيب و دخان ، وهذا جزاء من يظلم نفسه.

و في الطرف الثاني : المؤمنون الذين يعملون الصالحات حسب طاقاتهم و وسعهميدخلون الجنة و يخلدون فيها . و أبرز نعمة يسبغها الله عليهم هي نعمة الراحة النفسية ، و الصفاء بين بعضهم ، حيث ينزع الله ما في صدورهم من غل و حسد و نفاق ، أما النعمة الثانية فهي : الأنهار التي تجري من تحتهم ، و النعمة الثالثة هي : رضاهم و تحقيق طموحاتهم، و شكرهم لربهم و شكر الله لهم ، حيث يناديهم بأن الجنة إنما هي ميراث اكتسبوه بأعمالهم.

بينات من الآيات

كيف يخسر المستكبرون

] [40]إن الذين كذبوا بآياتنا و استكبروا عنها[

الذين كذبوا بآيات الله زاعمين ان التكذيب يخدم ذواتهم ، و يشبع إحساسهم بالعلو والعظمة خسروا مرتين . مرة حين سدوا على أنفسهم بسبب التكذيب أبواب الرحمة ، و آفاق العلم ، و رحاب الحياة ، إذ أن التكذيب كان معتقلا حصينا سجنوا أنفسهم بين جدرانه الضخمة المرتفعة ، و الشرط الأول للاتصال بالحياة هو معرفتها ، و بعد المعرفة يسهل تسخير الحياة لأهداف البشر ، و الذي لا يعترف بالمعرفة ، و يكذب بآيات الحقيقة ، بل لا يعترف بأن هناك واقعـا عليه أن يوفق نفسه و أعمال حسبه ، كيف يتسنى له تسخير الحياة ؟! من منا يكفر بالحياة ، و يهدم على نفسه السلالم التي لابد أن يتسلقها ، و الخسارة الثانية انهم يخسرون مكانهم في الجنة ، و يدخلون النار.

ان التعبير القرآني يسمو الى منتهى اللطف و الدقة حيث يقول:

]لا تفتح لهم أبواب السماء [

ثم ان البشر يسمو بمعنوياته و بدعائه و بايمانه و بارادته و برؤيته البعيدة , و كلذلك مسلوب ممن يكذب بآيات الله ، لأنه لا يعترف بالله و لا يريد الايمان به.

إن ابواب السماء مفتوحة أمام أعمال المؤمنين و دعواتهم ، بعكس الكفار.

و يأتي القرآن ليبين الخسارة الثانية فيقول:

]و لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط[

و لانه مستحيل أن يدخل الجمل بضخامته في ثقب المخيط لصغره ، فأن دخول الجنة هو الآخر غير واقع.

]و كذلك نجزي المجرمين[

فليس ذلك فقط بسبب كفرهم و استكبارهم ، بل و أيضا بسبب إجرامهم العملي ، و بقدرة الله أيضا و قبل كل شيء.

[41]محل هؤلاء النار ، حيث يستقرون في جهنم و فوقهم ظلل من اللهيب و الدخان ، تغشاهم و تسترهم.

]لهم من جهنم مهاد و من فوقهم غواش و كذلك نجزي الظالمين]بظلمهم و بقدر ذلك الظلم.

و حسبما يبدو لي : إن الجمل الاعتراضية في القرآن كالتي سوف تأتي في الآية التالية و هي (لا نكلف نفسا إلا وسعها) إنها و الجمل النهائية مثل آخر الآيتين الأخيرتين وما أشبه هي إشارات الى الفطرة البشرية التي يهدي اليها العقل ، و يذكر بها الوحي ، و تبنعليها شرائع السماء جميعا ، فالجريمة و الظلم قبيحان و جزاؤهما يجب أن يكون شديدا ، و المستكبر المكذب بآيات الله .مجرم ظالم ، و هذهالاشارات تشكل القيم الأساسية في القرآن الحكيم.

عاقبة المؤمنين

[42]تلـــك كانت عاقبة المكذبين الظالمين ، فما هي عاقبة المؤمنين الصالحين ؟

أولا : هؤلاء لا يكلفون فوق طاقتهم ، فليس الايمان أو الواجبات شيئا شاقا حسبما يوهم الشيطان للبشر ، بل هو عمل ميسور.

ثانيا : ان مصير الايمان و الصلاح الجنة و الرضوان ، و صاحب الايمان و الصلاح هو صاحب الجنة و الرضوان ، ذلك حق لا ريب فيه.

]و الذين آمنوا و عملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون][٤٣]
ثالثا : أن الايمان بالله هو مثل للخروج من معتقل الذات الى رحاب الحقيقة ، و من نتائجه الاولية الواقعية في الرؤية ، و أن يرى الشخص نفسه ، و يرى الآخرين معه ، فلا تضيق نفسه بما أنعم الله عليهم ، ولا ينافق معهم ، ولا يسلب منهم نعم الله أو يحب ذلكو يعلم أن فضل الله على أي أحد يتناسب و طيبة نفسه ، و مقدار عمله ، و حكم الله في الحياة ، فاذا لماذا الحقد و الحسد ؟ و لماذا الفسق و التزوير و النفاق ؟ هذه الصفة تنعكس في الآخرة على شكل مؤانسة و صفاء بين قلوب المؤمنين.

]و نزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار]الرضا من نعم الله على المؤمنين في الجنة ، فهم كما رضوا في الدنيا بما قسم اللـــه عليهم و أسلموا لربهم ، راضون في الآخرة لأنهم رأوا عاقبة عملهم الصالح.

]و قالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله [اذا فهي نعمة كبرى لا يبلغها الفرد بذاته ، بل بالله سبحانه ، و من هنا يستوجب المزيد من الشكر ، و المزيد من الحمد و الرضا.

]لقد جاءت رسل ربنا بالحق[

كانوا يؤمنون بهذا الحق في الدنيا إيمانا غيبيا ، و ها هم يرونه عين اليقين أمامهم ، و كما ان المؤمنين يشكرون ربهم ، فان الله يشكرهم و يشعرهم بأن أعمالهم الصالحة هي التي أوجبت لهم هذا الفضل العظيم ، و بهذا يزدادون إحساسا بالرضا و الاعتزاز ، إذ فرق بين أن تحصل على نعمة صدفة أو تخطط لها و تتعب نفسك ، فتصل إليها بجهدك.

]و نودوا أن تلكم الجنة[

العظيمة الواسعة النعم.

]أورثتموها بما كنتم تعملون [

فأعمالكم الصالحة هي التي جعلتكم تملكون هذه الجنان إرثا حلالا

جزاء الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله

هدى من الآيات

في صورة حوار يجري مستقبلا بين أصحاب الجنة و أصحاب النار ، يجسد القرآن الحكيم حقائق الحاضر ، و أبرزها أن ما يقوله الله حق ، و أن لعنة الله على أولئك الذين يظلمون أنفسهم فلا يستجيبون للحق ، بل يصدون الناس عن سبيل الحق ، و يحرفون السبيل ليضلوا الناسو هم يكفرون بالآخرة.

بين الجنة و النار مرتفع من الآرض أشبه ما يكون بسور يقف عليه أئمة الصلاح ، الذين يعرفون المؤمنين و الكافرين بسيماهم ، و ينادون أصحاب الجنة و يسلمون عليهم . و يأذنون لهم بدخول الجنة ، و قد استجيبت كل طلباتهم ، فلا يطمعون في شيء آخر.

بينما لا ينظرون إلى أهل النار ، إذا صرفت أبصارهم تلقاء جهنم فزعوا من هول جهنم ، و خافوا ان يصبحوا من أهل النار من شدة فزعهم ، و قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين.

إن هذا الدرس يتابع فكرة الدروس السابقة التي هي تصوير للحقائق ، لعل البشر يخرج من قوقعة ذاته إلى رحاب الحقيقة.

بينات من الآيات

كيف نتذكر الحقيقة

[44]لكي يتغلب البشر على مشكلة النسيان في ذاته ، و يتمكن من تذكر الحقائق التي يهتدي اليها بعقله ، و يحيط بها علمه ، و بالتالي لكي يشاهد بأحاسيسه و ببصيرته الحقائق القادمة ، فعليه أن يتسلح بالتصور ، و تجسد الحقائق امامه يقرب بالخيال واقعيات المستقبل التي لا يعلم بها إلا رمزا.

مثلا :الجندي الذي يتدرب في المعسكر ، و الذي يعلم انه سوف يخوض في المستقبل معركة المصير ، و أنه لو تدرب جيدا فسوف يتغلب فيها و إلا فلا . على هذا الجندي أن يتصور أبدا ساحة المعركة ، و مدى المكسب فيها عند الانتصار ، و مدى الضرر عند خسارتها ، و كذلكالباحث في مكتبه ، و العامل في مصنعه ، و المدير في دائرته ، كل أولئك لو فكروا في مستقبل أعمالهم ، و تذكروا ذلك المستقبل اذا لعملوا أفضل و أفضل.

و القرآن الحكيم يصور لنا المستقبل في صورة حوار بين المؤمنين و الكافرين ، و هذا الحوار يتم بشكل مناداة فاذا بالقشور السميكة التي تحيط بقلوبنا تتفتت بفعل هذا الصوت المخترق.

]و نادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين]فما دام كلام الله حقا ، و وعده صدقا ، فلماذا التكذيب به ؟! و لماذا الامتناع عنالاستجابة له و فيه منافعه ؟! إن ذلك ظلم عظيم ، و رحمة الله تتمثل في جنته ، و توفيقه بعيد عن الظالم..

و سوف نتحدث إنشاء الله عن المؤذن الذي نتصور أنه صاحب الاعراف الآتي ذكره.

ظلم النفس و المجتمع:

[45]و الظالم لا يبقى في حدود ظلمه لنفسه . بل أنه سوف يظلم الناس أيضا ، و سوف يدعو الناس الى منهجه الباطل ، و يقف عقبة امام توجه الناس الى الله ، بل و لا يدع الناس يعملون الخير.

]الذين يصدون عن سبيل الله و يبغونها عوجا و هم بالآخرة كافرون][٤٦] [و بينهما حجاب[

و بين أهل الجنة و النار حجاب ، و الحجاب في الآخرة تعبير عن الحجاب في الدنيا بين المؤمن و الكافر ، ذلك هو الفرق بين فريقي المؤمنين و الكافرين ، و اختلاف جبهتيهما ، حيث أن المؤمن الذي لا يؤمن بهذا الحجاب يشك في إيمانه.

و بالرغم من اختلاط الناس ببعضهم في الدنيا فهم في الآخرة مختلفون جدا ، و بين الجنة و النار أعراف ، و هو مرتفع من الأرض يفصل بين الموقعين ؛ و يجلس عليه رجال معينون أهم ميزة فيهم هي : معرفتهم التامة بالناس.

]و على الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم[

و يبدو أن هذه الفئة هم القدوات و الائمة الذين يميزون بين الحق و الباطل ، و صفات أهلهما ، و بالتالي يعرفون كلا منهما ، هذه الفئة هم القادة المؤمنين فيالدنيا ، و في الآخرة قادة الناس جميعا ، فهم يميزون هناك كما في الدنيا بين الطائفتين ، و هؤلاء يعطون للمؤمنين الاشارة الخضراء لدخول الجنة.

]و نادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم[

و حين يدخل المؤمنون الجنة ، تملأ الجنة كل طموحهم و تطلعهم.

]لم يدخلوها و هم يطمعون[

[47]و يبقى هؤلاء الائمة متوجهين في الأكثر إلى أهل الجنة ، و إذا توجهت نظراتهم إلى أهل النار مرة واحدة أفزعتهم النار بما فيها من أنواع العذاب ، و طلبوا من ربهم نجاتهم منها.

]و اذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين[

هكذا ينسى الله الذين اتخذوا دينهم لعبا

هدى من الآيات

في جو النداء الصارخ و مع الحوار الساخن يذكرنا السياق القرآني بذات الحقائق التي يذهل عنها الناس و هم يصارعون المشاكل اليومية ، أولئك الناس الذين يعتمدون على العشيرة و الحزب و الزملاء.

و لذلك فهم يستكبرون عن الحقائق و لكن عند الله لا يغني كل ذلك عنهم شيئا ، و قد يستصغر البشر المؤمنين لقلة عددهم و ضعف عدتهم ، و يحلفون بالله أنهم منبوذون عنده ، و لكن الله يدخل هؤلاء الجنة ، و هناك يطفق أولئك المستكبرون المعتمدون على كثرة العدد و العدة بالسؤال من المؤمنين أن يعطوهم الفائض من مائهم ، و الفتات من نعم الله عليهم و لكن هيهات.

إن الكفار الذين حرموا على أنفسهم نعمة الدين ، و اتخذوه أداة للتسلية ، و استهانوا به ، و انبهروا بعاجل الدنيا . إنهم حرموا على أنفسهم بذلك نعم الآخرةأيضا إن الله ينساهم هناك كما نسوا الآخرة ، و كما انكروا آيات الله الدالة على الحقائق.

و الله لم يقصر في هداية الناس حتى يحتجوا عليه يوم القيامة ، بل جاءهم بكتاب مفصل و مبين في

كافة حقول الحياة ، خلفيته العلم و المعرفة ، و هدفه التوجيه و الهداية ، و نهايته السعادة و الرحمة ، بينما الكفار ينتظرون تطبيق آيات الكتاب عمليا حتى يؤمنوا به، و آنئذ لا ينفع الايمان.

بينات من الآيات

التصور أجنحة الحقيقة:

[48]في يوم القيامة حين ينشغل الجميع بأنفسهم ، يتفرغ أصحاب الأعراف و هم أئمة المتقين لمحاسبة الناس و استرجاع ذكريات الماضي.

]و نادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم[

أي ملامحهم التي تتأثر بالعذاب ، و تمسخ عن الانسانية الى صور مفزعة.

]قالوا ما أغنى عنكم جمعكم [

أي ما الذي أفادتكم الجماعة التي اعتمدتم عليها ، و زعمتم انها ستنفعكم في أوقات العسر و الشدة فأين هم الآن!

]و ما كنتم تستكبرون[

أي أين ذلك الغرور الذي جعلكم تستكبرون به ، أين القوة و أين الشباب و أين المال و أين الصحة ؟؟ و بالتالي أين تلك الماديات الزائفة التي غرتكم ، و جعلتكم تتطاولون على الحقيقة ، و تحسبون أنفسكم فوق الحق ، و أعلى من القيم ؟!

إننا اذ نتصور ذلك اليوم ، و تلك الساعة التي يخاطب أصحاب الأعراف واحدا منا إذا كان مستكبرا - لا سمح الله - لنعود و نرتب أوراقنا من جديد ، و نتساءل عما إذا كنا في ذلك اليوم غير قادرين على التوبة ، أو على العودة إلى الحياة للتوبة ، فما دمنا نملك فرصة الحياة اذا دعنا نتوب الى ربنا ، و نصلح انفسنا و نتقرب الى أصحاب الأعراف الذين مثلهم بيننا مثل الأنبياء بين أقوامهم ، يعرفون ملامح المؤمنين و ملامح الكفار ، و يتضرعون الى الله لأصلاح الناس بعد إصلاح أنفسهم ، نتقرب إليهم و نستمع الى نصائحهم التي تشبه نصائح الطبيب الذي يكشف المرض ، و يعرف ملامح المريض لعل ذلك يؤثر في مصيرنا ، و مرة أخرى ، أقول : دعنا نتصور ذلك الموقف الرهيب ، فان التصور أجنحة الحقيقة التي تجعلك تلامس الواقع المستقبلي ، و ترى الغيب البعيد.

[49]و ينظر أصحاب الأعراف الى أهل الجنة ، و يسألون أهل النار .

]أهؤلاء الذين أقسمتم[

و حلفتم زورا و كذبا ، و تماديا في غروركم و استكباركم.

]لا ينالهم الله برحمة[

هذه رحمة الله تغمرهم ، ثم يخاطبون المؤمنين:

]إدخلوا الجنة لا خوف عليكم و لا أنتم تحزنون[

فعلى الانسان ألا يزعم أن تأكيده و حلفه يغير الحقيقة ، بل يفضحه أكثر فأكثر ، فهناك يستبد به الخوف على مستقبله و الحزن على ماضيه.

[50]و يكون مصير الكافر بالحقيقة الاستجداء من المؤمنين ، الذين كان إيمانهمبها سببا لحصولهم على الجنة ، و تسخيرهم إياه لنعمه.

]و نادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا ان الله حرمهما على الكافرين][٥١] الكافرون لم يتحركوا عبر المنهج المرسوم بل و استهزؤوا به أيضا ، فبدل أن يزرعوا أحرقوا و بدل أن يبنوا هدموا و بدل أن يسيروا على الطريق أحرقوا معالمه كل ذلك جعلهم يعضون أناملهم حين الحصاد ، و يفترشون الأرض و يلتحفون السماء و يضلون الطريق.

الدين منهج الحياة:

[52]الدين منهج حياة يهديك الى العمل الصالح في الدنيا الذي يتجسد في الآخرة نعيما مقيما ، إنه أرض خصبة تزرعها و تأخذ نتاجها حين حصادها ، و معالم على الدرب تعمل على هداها حتى تبلغ غايتك .

و من الناس من يتخذ الدين لهوا يعمل به دون هدف ، أو حتى لعبا يضعه حسب مشتهياته ، فانه آنئذ لا ينتفع بالدين ، و هو بالتالي لا يحصد نتائجه.

]الذين إتخذوا دينهم لهوا و لعبا[

أما قيادة هؤلاء فهي بيد أهل الدنيا ، لأن الدنيا قد استعبدتهم.

]و غرتهم الحياة الدنيا[

إن هؤلاء ينسون مستقبلهم و يختصرون حياتهم في حدود الحاضر.

]فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا[

من ينسى يوم الحصاد ينساه الناس في ذلك اليوم ، لأنه قبلئذ كلما قالوا له : ازرع لم يسمع ، و جحد بآيات الله.

]و ما كانوا بآياتنا يجحدون [

قيمة العقل:

[53]قيمة العقل الاساسية انه يرشدك الى الحقائق المستقبلية ، و يجعلك تتجنب المشكلات و الصعوبات قبل وقوعها ، و الرشيد حقا هو : الذي يتنبأ بالمستقبل ، بينما الغبي حقا هو : الذي لا يعترف إلا بالواقع الحاضر ، فاذا قيل : إن هذا الجدار يريد أن ينقض ، اتكأ عليه و قال : انني لم أهدم الجدار ، و حين ينهدم الجدار سأقوم عنه ، و لكن اذا انهدم الجدار هل يبقى له إختيار ؟ كلا ..

كذلك المؤمنون و الكفار ، اولئك يعقلون المستقبل و يتنبؤون به ، و يعملون وفق الرشاد الذي يهديهم اليه العقل ، بينما هؤلاء ينتظرون وقوع الحقائق و حضورها عندهم ، و هذا ما يسميه القرآن بالتأويل ، أي عاقبة الأمر وما يؤول اليه ، و بعد التأويل و حضور المستقبل لا ينفع العلم به شيئا ، إذ آنئذ حتى الحمار يراه!!

]هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من

شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل]إن انتظار الشفيع ، أو العودة الى الماضي هو نوع من الغباء أيضا ، إذ كيف يبني الله الحكيم الجزاء على أساس عمل الآخرين ، و ليس على أساس عمل الشخص ذاته مباشرة أو غير مباشرة ؟! و كيف يعود الماضي ؟!

إن للانسان فرصة واحدة فقط هي مدة عمره ، فاذا انقضى أجله ، و لم يستفد من الفرصة ضاعت عليه نفسه و الى الابد .

]قد خسروا أنفسهم[

إن نفسك مقسمة على ساعات عمرك ، فكلما ضيعت ساعة أكل الندم جزء من نفسك.

أما الباطل الذي لا يستمد وجوده و شرعيته من الحق و الواقع ، فانه يضل كما السراب في الصحراء ، إن تصوراتك تعتمد على وجودك فاذا خسرت نفسك فهل تنفع تصوراتك و خيالاتك ؟ فالسعي مردود ، و الجهد خائب ، و هذا و ذاك في ضلال مبين.

]و ضل عنهم ما كانوا يفترون[

بالدعاء يستنزل المحسنون بركات الله

هدى من الآيات

في الدروس السابقة تذكرة بمصير المؤمنين و الكافرين ، و حان الآن وقت توجيه القلوب الى الله الذي لو عرفه البشر لصلحت سريرته و علانيته ، و معرفة الله تتم بآياته المنتشرة في السماء و الارض ، فهو الذي ابدع السماوات و الأرض ، و كلما توسع العلم في السماءأو تعمق في الأرض ، كلما ازداد معرفة بالله و بعظمته ، لقد خلق الله الخلق في ستة أيام علامة لقدرته و سيطرته التامة و المستمرة على الخلق ، و الدليل على ذلك : ان الله يدبر أمور الكون ، و هو الذي يجعل الليل يغشي النهار و يلاحقه باستمرار ، و هو الذي يسخر الشمس و القمر و النجوم فيأمرها و يجبرها على الطاعة ، ذلك لأنه خلق الخلق في البدء و أجرى أموره بصفة مستمرة ، لذلك فهو واسع المقدرة ، مبارك تنمو خلائقه و هو رب العالمين.

و على العباد ان يتوجهوا إلى ربهم بالدعاء و التذلل بروح متواضعة ، ذلك لأن الله يحب المتذللين له ، ولا يحب المعتدين الذين بسبب تكبرهم على ربهم ، و عدم تربيةأنفسهم بالدعاء يعتدون على الناس.

و بسبب معرفة الله ، و التذلل له تنمو عند البشر روح الاصلاح ، و من دونهما تفسد سريرته و تجنح نحو الافساد ، و الله أصلح الكون بخلقه الصالح و بهداه ، و إذا التزم الانسان الدعاء ، و خشى غضب الله ، و طمع في رحمته كان صالحا و محسنا.

بينات من الآيات

من هو الرب و ما هو دور الزمن ؟

[54]من هو رب البشر الذي يتوكل عليه ويستلهم منه هداه و منهجه ؟ أنه ليست هذه الأصنام الحجرية ، ولا تلك الاصنام البشرية ، الذي خلق السماوات و الارض ، و كانت خلقته متدرجة للخلائق ، لذلك فهو رب يربي الأشياء كما يربي الأشخاص .

]ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام]ربما تكون الأيام الستة رمزا لستة مراحل مرت بها الخليقة ، أو اشارة الى فترة من الزمن ممتدة و متدرجة ، وبالتالي إشارة الى دخول عنصر الزمن في ذات الاشياء ، أو تكون توجيها الى نقص الاشياء أو تطورها نحو الكمال وفق سنة الله سبحانه و بأمره ، إلا أن الفكرة التي نستوحيها من الأيام الستة في الخليقة هي : أنها بحاجة الى تربية الله و حسن توجيهه ، و الذي ربى الخلائق أحرى به بأن يتخذ ربا للبشر.

]ثم استوى على العرش[

فبعد ان خلق الخلق لم ينته اشرافه على الكون ، كما يصنع أحدنا الساعة و يكونها فتتحرك من دون أشراف له عليها ، كلا .. إن ربنا استوى على عرش السلطان و التدبير ، و اخذ يجري تلك السنن التي وضعها في الخلائق بعلمه و قدرته.

]يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا[

فالليل لا يغشى النهار بصورة طبيعية ، بل الله هو الذي يجعله يغشي النهار و يلاحقه باصرار.

]و الشمس و القمر والنجوم مسخرات بأمره[

ذلك الأمر المتجسد كل يوم و كل ساعة و لحظة.

]ألا له الخلق و الأمر[

الخلق الأول و الأمر المتجسد .

]تبارك الله رب العالمين[

الله مبارك لأن رحمته مستمرة و متنامية ، و مبارك لأن خلقه في تكامل ، و مبارك لأنه رب العالمين ، فهو الذي يعطيه القدرة و التطور و الرحمة.

الدعاء مصنع الانسان:

[55]و لكن أي رب ندعو ؟ الله أم الأصنام ؟

]ادعو ربكم[

انه ربكم غير تلك الآيات المخلوقة ، و ليكن دعاؤكم من أجل خروجكم من غلظة الأنانية الى رقة الضراعة ، ومن فقر الاستكبار و ذل المعصية الى غنى العبادة و عز الطاعة.

إن الانسان يولد - كما زبر الحديد - فيحتاج الى صقل ، و الدعاء هو : ذلكالمبرد الذي يصقل النفس الانسانية ، لأن الدعاء يولد في القلب إحساسا بالنقص ، و ثقة بامكان التغلب عليه ، و الدعاء يعرف الفرد بمواطن ضعفه و ضرورة جبرانها ، و الدعاء يجعلك واقعيا تعترف بجدواك ، لذلك فهو أفضل وسيلة لكبح شهوة الاعتداء على الأخرين و البطش بهم.

]تضرعا و خفية[

التضرع لكي يكون الدعاء واقعيا ، و لاصلاح الذات ، و لعلاج داء الاستكبار و مرض الفخر و العزة بالاثم ، اما الخفية فلاجل ألا يصبح الدعاء رياء ، و بالتالي تكريسا لمرض التكبر و الفخر.

]إنه لا يحب المعتدين[

الذين بسبب عدم تضرعهم لله و خضوعهم لعظمته يجنحون نحو الاعتداء على الآخرين ، و بدل اصلاح انفسهم بالطريقة السليمة فهم يحاولون تعويض نواقصهم عن طريق الظلم و اغتصاب حقوق الآخرين ، أو يحاولون تعويض شعورهم بالنقــص بالاستكبار على هذا أو ذاك.

إن رحمة الله قريب من المحسنين:

[56]الاحساس بالمحبة للحياة ، و بضرورة اصلاحها هو الشعور المنبعث من الخضوع لله ، و الدعاء اليه تضرعا و خفية ، و بالتالي فانه انعكاس ايجابي للايمان بربوبية الله سبحانه ، و محاولة تقليد هذه العلاقة (علاقة الربوبية (فيما يتصل بتعامل البشر مع الحياة، فكما ان الله يرحم العباد ، و يخلق الاشياء و يسخرها ، و يتسلط عليها من أجل اجراء السنن الاخيرة عليها ، و من أجل تكميلها و انزال بركته عليها ، كذلك عليه أن يتقمص صفة الخلق و البناء و الاصلاح لا صفةالاستهلاك و الهدم و الافساد.

]و لا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها[

و السؤال هو : كيف ننمي في أنفسنا صفة الاصلاح ؟

الجواب : عن طريق دعاء الله ، و المزيد من التقرب الى الله.

]و ادعوه خوفا وطمعا[

خوفا من عذابه و سلب نعمه ، وطمعا في المزيد.

]إن رحمة الله قريب من المحسنين[

الذين دأبهم ليس فقط إصلاح الحياة ، بل إصلاح الناس أيضا ، و العطـــاء من أنفسهم لهم ، إن الخوف و الطمع من الله يخلق في البشر صفة الاحسان الى بعضهم أكثر فأكثر.

الانسان بين سنن الطبيعة و بصائر التاريخ

هدى من الآيات

لكي نفهم علاقة الربوبية التي تسود بيننا و بين خالقنا ، تلك العلاقة التي تعني ان الله يتابع نعمه علينا ، و يبارك لنا ، و يكمل حياتنا ، لكي نفهم تلك العلاقة و نستفيد منها علميا و عمليا لابد ان نلقي نظرة على الطبيعة ، و نظرة الى التاريخ ، فمن الطبيعةنستوحي التطور المادي الذي يباركه الله ، و في التاريخ نتبصر آثار التكامل الاجتماعي و المعنوي.

لننظر الى المطر ، كيف يرسل الله الرياح مبشرات بالربيع و الرخاء ، و لتحمل السحاب المليئة بالماء و تساق من قبل الله الى بلد ميت ، فاذا بالماء يحيي الأرض و يخرج نبات كل شيء ، و هكذا كما في الربيع عندما يحيي الله الأرض و يبعث فيها الحياة ، كذلك في يومالقيامة يخرج الله الموتى ، و القضية بحاجة الى تذكر و تفهم.

بيد أن انزال المطر لا يعني الحياة ، بل يجب أن تكون الأرض مستعدة لتقبل النعمة و الاستجابة لها ، فالارض الطيبة تخرج نباتها باذن الله ، أما الارض الخبيثة فان نباتها يخرج نكدا ، كذلك آيات الله التي انزلت على الرسل بحاجة الى أرضية مناسبة لدى الانسان حتى يستفيد منها ، تلك الارضية هي أرضية الشكر و الاستجابة ، وإلا فلا تنفع وهذا أعظم درس نستفيده ، من النظر الى التاريخ ، فلقد أرسل الله نوحا الى قومه ، حيث دعاهم الى عبادة الله ، و حذرهم من عذابه العظيم ، بيد أن قومه إتهموه بالضلالة ، فنفى عن نفسه الضلالة و بين لهم أنه رسول من رب السماوات والأرض ، و أنه جاء لينصحهم لأنه يعرفمن دونهم تعاليم السماء ، و كيفية الاستفادة منها ، ثم بين لهم أنه لا عجب في أن يرحم الله عباده ، لأنه ربهم الذي ينزل عليهم بركاته دائما ، و يزيد لهم التكامل و التطور ، و أن رسالة الله تهدف الاستفادة من الانذار لكل البشر معنويا بالتقوى ، و ماديا بالرحمة.

بيد أن تكذيب الناس لنوح و رسالته سبب غضب الله لهم ، لأنهم كانوا قوما عمين عموا عن الحق و ضلوا فأضلوا.

بينات من الآيات

الادارة الحكيمة و القدرة المهيمنة:

[57]القرآن الحكيم يلفت نظر البشر الى الطبيعة الزاخرة بالحيوية و الجيشان ، و إنطلاقا من الحقائق الظاهرة المشهورة يبلغوا الحقائق الغيبية المعقولة.

الحقيقة المشهورة هي أن الرياح التي تبشر بالمواسم الخيرة و تحمل السحاب الثقال ، فيسوقها الله الى البلد الميت لينزل منها الماء و يخرج به الثمرات ، هذه الحقيقة المشهورة تكشف لنا أمرين:

الأول : أن وراء الطبيعة إرادة حكيمة تسيرها.

الثاني : أن تلك القدرة المهيمنة على الكون هي التي تخرج الموتى من الأرض و تبعثهم للحساب.

]و هو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته[

فالرياح لا تأتي عفويا ، بل يرسلها الله إرسالا ، و الدليل هو هدفية الظواهر ، فالرياح تهدف البشارة برحمة قادمة ، و البشارة هدف لا يمكن تحقيقه عبثا ، و من دون خطة حكيمة و فعل منظم.

]حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات]إن كل ذلك يتم بارادة الله و حسن تدبيره ، و لو لا ذلك لم تكن الصدفة قادرة على تحقيق هذه الأهداف ، إذ أن الهدف هو البشارة بالرحمة ، و إحياء البلد الميت ، و إخـــراج الثمرات ، و لا يمكن تحقيق ذلك بمجرد تحرك السحاب ، بل بمجموعة عوامل متفاعلة و متزامنةكأن تكون الأرض مستعدة ، و الطقس مناسبا ، و الأمن مستتبا ، و أن يكون مقدار المطر كافيا ، غير ناقص ولا زائد عن الحد ، و هكذا حتى يحيي الأرض و يخرج النبات ، و ذلك يدل على أن هناك هدفا وراء السحاب يجريه الله سبحانه بعلمه و قدرته.

و إذا تبصرنا قدرة الله في الطبيعة آمنا بأن هذه القدرة المطلقة الحكيمة هي التي تخرج الموتى للحساب ، فلا تبقى عقبة في طريق إيماننا بالبعث و النشور.

]كذلك نخرج الموتى[

و لكن لا يمكننا أن نفهم حقائق الكون من دون تذكر و تبصر و ربط للحقائق ببعضها.

]لعلكم تذكرون[

فالتذكر يربط الحقائق ، و يستنتج من خلاله المعلومات ، و يلقي بالمسؤوليات و الواجبات.

بين البصيرة و الاستنباط:

[58]حين يزود الانسان بسلاح البصيرة النافذة و يتذكر يستنبط الحقائق المختلفة ، أو بالاحرى الأبعاد المختلفة من الظاهرة الواحدة ، فمن ظاهرة السحاب و المطر و إحياء الأرض يتوصل إلى أن نبات الأرض مختلف بالرغم من أن الماء الذي ينزله الله على الأرض واحد ،مما يدل على أن استجابة الأرض للماء شرط أساسي لحياة الأرض ، كذلك استجابة البشر لرسالة الله شرط لانتفاعه بها.

]و البلد الطيب يخرج نباته باذن ربه و الذي خبث لا يخرج إلا نكدا]أي عسيرا و بخيلا.

]كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون[

فالذين لا يشكرون النعمة ولا يقدرونها حق قدرها لا ينتفعون بالآيات ، كما أن الأرض الخبيثة لا تنتفع بالمواسم الخيرة ، و في القصص التالية عبر كافية لهذه الحقيقة.

لماذا نوح بالذات ؟

[59]لأن الله رب العالمين و رب الانسان الذي يحب للبشرية التكامل و الرقي ، فقد أرسل نوحا الى قومه و لم يرسل غيره ، لأنه منهم و أثره في تطورهم أبلغ ، و لم يدع نوح قومه الى نفسه بل الى ربهم الله الذي لا إله غيره.

]لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم][٦٠] أما الملأ الذين كانوا يستثمرون الجماهير و يتسلطون قهرا عليهم فقد قاوموا رسالة الله.

]قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين[

إنهم وقفوا عقبة أمام انتشار نور الهداية بين الناس ، فاتهموا نوحا بالضلالة ، و زعموا أنهم يرون ذلك رؤية ظاهرة.

[61]و نفى نوح وجود أي نوع من الضلالة عنده ، و بين لهم انه رسول ارسل اليهم من قبل الرب الذي ينزل بركاته على العالمين.

]قال يا قوم ليس بي ضلالة و لكني رسول من رب العالمين][٦٢] و ينبغي أن يستجيب الجميع لنوح لعدة أسباب:

أولا :لانه مبلغ لرسالات الرب ، و من الطبيعي أن تكون تلك الرسالات ذات محتوى تكاملي للبشر ، لأنها صادرة من ربهم الذي يطورهم الى الأفضل.

ثانيا : لانه ناصح يعمل في سبيل رشدهم.

ثالثا و أخيرا : لأنه أعلم منهم ، و علمه مستلهم من الله ، و يرتبط بتعاليم الله و شرائعه.

]أبلغكم رسالات ربي و أنصح لكم و أعلم من الله ما لا تعلمون][٦٣] و ليس بعيدا أن يبعث الله رسولا لعدة أسباب هي:

أولا : لان الله رب الناس الذي ينزل بركاته المادية المشهودة عليهم في كل لحظة.

ثانيا : لان البشر بحاجة الى تذكرة حتى يهتدوا و يكتملوا ، و الرب يوفر كلما يحتاج البشر إليه.

ثالثا :لان الله لا يعذب الناس حتى يبعث سلفا رسولا إليهم ، فينذرهم ، و يوفر لهم فرصة التقوى و الحذر من العذاب ، و لكي يوفرلهم بالتالي فرصة الرحمة و الرخاء و الحياة السعيدة.

]أو عجبتم[

ولا عجب مما تقتضيه سنن الحياة و فطرة البشر ، و من ذلك:

]أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم و لتتقوا و لعلكم ترحمون][٦٤ [و لكن مع كل ذلك

البيان كذب قوم نوح برسالة الله ، و جاءت العاقبة المناسبة للمؤمنين حيث انجاهم الله ، و الكافرين أغرقهم الله لأنهم لم يستفيدوا من نعمة البصيرة.

]فكذبوه فانجيناه و الذين معه في الفلك و اغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين]هكذا تتجلى صفة الربوبية في قصة نوح و قومه ، إن الله يبعث رسالته رحمة بالناس و تكميلا لنواقصهم ، بيد انهم يرفضون الانتفاع بها ، كما الارض الخبيثة لا تستجيب للسماء حين تبعث اليها السحاب الثقال.

الانسان بين رسالات الرب و الأسماء التافهة

هدى من الآيات

تتكرر قصة نوح بين هود رسول الله و قومه عاد ، حيث أمرهم بتقوى الله ، و لكنهم اتهموه بالسفاهة ، و كادوا يكذبونه ، فنفى هود عن نفسه السفاهة ، و قال : إنه رسول من الله الذي ينزل بركاته على العالمين ، و بين أن ذلك لم يكن بعيدا عن سنن الله ، و عن حكمة العقول ، إذ ان الله أنزل بركاته المادية على عاد ، و جعلهم الوارثين للارض بعد قوم نوح و زادهم من نعمه ، فكان عليهم أن يعترفوا بنعم الله و يتذكروا أن الرب الرحيم الذي انعم بها عليها هو الذي أرسل رسالته المباركة بواسطته.

لكن عادا كذبوا هودا و تحدوه و نازلوه و استعجلوا العذاب ، بيد أن هودا كان يرى في تكذيبهم رجسا و غضبا ، لأنهم خضعوا لمجموعة أصنام لا رصيد لها من الواقع ، بل هي حروف بلا معاني و بلا سلطان من الله عليها ، ثم استجاب هود لتحديهم و طلب منهم الانتظار.

و قد أنجاه الله و الذين معه برحمة منه و أنهى مدينة عاد و من بها ممن يكذب بآياتالله لأنهم كفروا بالله.

و هذا مثل آخر لنعم الله التي تتجلى بها صفة الربوبية ، فلو استجاب لها البشر لانتفع بها ، و إلا فانها سوف تتبدل الى نقمة عليهم.

بينات من الآيات

إفتراءات الملأ:

[65]أرسل الله الى عاد واحدا منهم و هو أخوهم هود الذي دعاهم الى الله الذي لا ملجأ لهم إلا اليه ، و أمرهم أن يحذروا منه ويتقوه.

]و الى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون][٦٦] و هنا وقف جماعة من قومه يعارضوه ، و هؤلاء هم الملأ الذين اختاروا الكفر بوعي و إصرار ، و اتهموا هودا بالسفاهة لأنه تحدى حضارتهم ، و واجه قوتهم التي كانوا مغرورين بها ، زاعمين أن منهجهم في الحياة منهج سليم ، بدليل أنهم قد بلغوا عن طريقه الى هذهالحضارة ، و هذه القوة الكبيرة ، بل إنهم كادوا يتهمونه بالكذب ، و الفرق بين السفاهة و الكذب إنما هو في النية ، فالسفاهة هي الاصرار على الخطأ بنية صالحة و ذلك لقلة العقل ، بينما الكذب هو تعمد الخطأ مع العلم به و ذلك للوصول الى هدف باطل ، و قوم عاد كانوا يرون في هود الصلاح و الزهد ، لذلك لم يكونوا يجرؤون على إتهامه بالكذب لذلك[قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة و إنا لنظنك من الكاذبين][٦٧] و حين يصر صاحب الفكرة على فكرته برغم تحذير الآخرين له ، فانه يدلعلى انه عارف بفكرته واع لأبعادها ، و لذلك فهو ليس سفيها غير عارف بطبيعة فكرته.

و هود نفى عن نفسه السفاهة ، و أصر مرة أخرى على أنه رسول.

]قال يا قوم ليس بي سفاهة و لكني رسول من رب العالمين]الله الذي استوى على عرش السماوات و الأرض يدبر امورهما ، و يكمل خلقهما ، إنه هو الذي أرسل هودا إلى عاد ليكمل عليهم نعمه ، و يكمل حياتهم.

نزاهة الرسول دليل صدقه:

[68]لم يكن هودا داعيا الى نفسه بل الى ربه ، فلم تكن لديه مصلحة ذاتية في دعوته ، و كانت دعوته الى كل خير و حق ، فلذلك فهي في مصلحة الناس و عليهـم أن يهرعوا إليها.

]أبلغكم رسالات ربي و أنا لكم ناصح أمين[

و أمانة الانسان حقيقة ظاهرة ، لا يمكن أن يفرضها و يتكلف في التظاهر بها ، بل هي كما سائر الصفات النفسية الحسنة و السيئة ، تظهر على أفعال الفرد و أقواله ، شاء أم أبى ، لذلك كان الأنبياء (عليهم السلام) يستدلون بهذه الصفة الموجودة في أنفسهم على صدقرسالاتهم دون أن يكذبهم أحد ، لأنها كانت صفة ظاهرة.

[69]و يصدق البشر بالحقائق المألوفة بسهولة ، بينما الحقائق التي لا تقع إلا عبر فترات متباعدة لا يسهل التصديق بها ، مثلا : التصديق بالثورات و التحولات الاجتماعية الكبيرة ليس بسهولة و كذلك التصديق بموت أحد عزيز ، بالرغم من أن هذه و تلك حقائق واقعة وسنن فطرية ، و من هنا كان أحد العقبات الرئيسية في

طريق إيمان الناس برسالات الله هي انها لم تكن وقائع مألوفة ، فكان الأنبياء يذكرون الناس بأنها حقائق فطرية يصدق بها وجدان البشر ، و هي من السنن التي تقع بين فترة و فترة.

]أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم]ولا عجب في ذلك لأن الرب الذي يدبر أمور عباده ، و ينزل عليهم بركاته جدير بأن يهدي الانسان ، و يذكره بالحقائق ، ثم ان من رحمة الله أنه انزل ذكره على واحد منهم لأن هدفه هو إنذارهم ، و الانذار سيكون أبلغ لو كان عن طريق واحد منهم.

و لان قوم عاد كانوا مغرورين بقوتهم و بطشهم ، لذلك ذكرهم أخوهم هود بان هذه القوة نعمة من الله و ليست من أنفسهم ، بدليل أنها كانت قبلئذ عند قوم نوح فأخذها الله منهم و أعطاهم إياها ، فالقوة هذه يجب أن تكون مدعاة لقبول الرسالة شكرا لنعمة الله.

]و اذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح و زادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون]الفلاح و السعادة يأتيان نتيجة معرفة أسباب النعمة ، و عوامل الحضارة ، و اليقظة في المحافظة عليها ، لتستمر و تزداد ، لذلك حين يتذكر البشر أن النعم من عند الله سيكون واعيا لاستمرارها.

مواقف المجتمع المتخلف:

[70]و حين أفحم هود قومه ، و أثار فيهم دفائن عقولهم ، و استوضح لهم فطرتهم و وجدانهم ، لم يبق لهم سوى الاتكاء على ماضيهم فقالوا : إننا لا نغير واقعنا و لا نريد لانفسنا التطور الى الافضل لأن آباءنا كانوا هكذا ، فسوف نبقى نحن الابناءعلى سنة آبائنا ، و قال لهم هود : اذا لا رجاء في إصلاحكم .

]قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده و نذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين]لقد بلغ فيهم الجمود حدا يستعجلون معه العذاب ولا يرضون بالتغيير ، و حالهم حال كل الأمم المتخلفة و المغرورة ، أنهم يقبلون بالأمر الواقع حتى مع علمهم بفساده و خطورته عليهم ، و كلما يدعوهم المصلحون بضرورة تغيير الواقع لا يسمعون لقولهم ، لتشبثهم بالواقع القائم و خوفهم من أي تغيير.

[71]و قال هود و هو الذي يسعى لهدايتهم بكل وسيلة : أن الواقع الذي تعتزون به واقع فاسد ، و هو رجس و غضب ، رجس فيه كل ضلالة و انحراف ، وغضب فيه كل سوء و دمار.

]قال قد وقع عليكم من ربكم رجس و غضب[

و ربما تقدم الرجس لفظيا على الغضب لأنه سابق له واقعيا ، حين يبدأ الانحراف ، ثم يظهر في صورة عذاب.

[أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم و آباؤكم]

تلك القيم الزائفة التي تحجبكم عن رؤية الحقائق ليست سوى ألفاظ منمقة و أسماء بلا معاني.

[ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين][٧٢] و انتهت قصة قوم عاد بنجاة هود والمؤمنين من قومه ، و دمار الكفار لأنهم كذبوا بآيات الله و معالم الحقيقة ، و لانهم كفروا بالله و برسالته .

[فأنجيناه و الذين معه برحمة منا]

أي برحمة مشهودة و واضحة.

[و قطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا و ما كانوا مؤمنين]

رسالة الرب تبير سلطة المستكبرين
هدى من الآيات
و باختلاف بسيط في التفاصيل و لكن ضمن خط رسالي واحد ، يأتي (صالح) رسول الله الى قومه ثمود ليقول لهم : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.

ثم أوضح لهم أن هذه آية بينة واضحة ، قد جاءتهم من الله ربهم الذي لا زالت نعمه تترى عليهم ، فهذه ناقة الله اتركوها في أرض الله و لا تمسوها بسوء ، فان ذلك سوف يسبب لكم العذاب.

ثم بين لهم ان العلاقة التي تربطهم بالله هي علاقة الربوبية و العطاء ، حيث أورثهم الأرض من بعد قوم عاد حتى تمكنوا في الأرض و بنوا القصور و البيوت ، و أمرهم بأن تكون علاقتهم بالاشياء و الاشخاص علاقة إيجابية ، فلا يسعوا في سبيل الفساد بل في طريق الاصلاح و التربية ، بيد أن صالحا كما اخوته في الرسالة لم يجد الاستجابة المطلوبة ، حيث وقف المستكبرون عقبة في طريق انتشار الرسالة ، و حاولوا تضليل المستضعفين المؤمنين عن الرسالة ، و عقروا الناقة التي كانت آية إلهية ، تحديا للرسالة و إفسادا في الأرض.

و جاءت العاقبة حيث زلزلت الأرض من تحتهم فاصبحوا جاثمين في دورهم ، و انقذ الله صالحا الذي لم يذرف الدمع عليهم ، لأنه نصحهم نصيحة بليغة فلم يسمعوا له ، و هذه قصة جديدة لكنها تتكرر كل يوم لتعطينا عبرة جديدة ، لعلنا نهتدي بها الى الحقيقة.

بينات من الآيات

رسالات الله منطلق التحضر:

[73]يبدو أن ثمودا كما قوم عاد و قوم نوح ، بدأت حياتهم الاجتماعية بفهم سنن الله في الحياة و منها ضرورة الاصلاح ، و تسخير امكانات الطبيعة من أجل الأهداف النبيلة ، إلا انهم بعد نمو مدنيتهم ، و تواتر نعم الله عليهم فسدوا و أفسدوا ، فجاءت رسالة الله تحذرهم من عاقبة الافساد ، و تذكرهم بأن هذه النعم التي يرونها ليست ذاتية لهم ولا هي أبدية ، و إنما هي آلاء الله ، كانت عند قوم فأهلكوا بسبب فسادهم و افسادهم و أورثها الله لهم ، فاذا فسدوا و أفسدوا يهلكهم الله أيضا ، و ربما تكون الناقة التي اخرجها اللهلثمود من بطن الجبل آية كبيرة ، ربما تكون رمزا لتلك النعم ، فلو اهتموا بها و لم يمسوها بسوء ، و لم يتعرضوا لها بقتل لانتفعوا بها ، و لكن عذبهم الله.

]و الى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جئتكم ببينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله و لا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم][٧٤] [و اذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد و بوأكم في الأرض تتخذونمن سهولها قصورا و تنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله]لقد كانت تلك حضارتهم ، حيث استقروا في الأرض من دون خوف من الطبيعة أن تقسوا عليهم ، و ذلك بسبب توفر وسائل الحياة في تلك الأرض ، حتى كانت لديهم القدرة على نحت الجبل ليتخذوا منه بيوتا ، أو حتى رفع الأبنية فوق السهل قصورا ، و لكن كانت ثمود تتجه نحو الفساد شأنها شأن الحضارات التي تغتر بمدى قدرتها فتتآكل و تتداعى و تنهار ، لذلك وقف رسول الله اليهم صالح (عليه السلام) محذرا و قال:

]و لا تعثوا في الأرض مفسدين[

و الفساد ضد الاصلاح ، و ليس بين الفساد و الاصلاح عمل آخر و صبغة اخرى ، ذلك لان علاقتك بالاشياء قد تكون علاقة التربية و السعي للتغيير نحو الأفضل ، و أن تضيف اليها من نفسك شيئا جديدا كأن تبني الأرض ، و تنشأ الحقل ، و تربي الطفل ، و تصنع من الحديد آلة مفيدة ، و هذا كله إصلاح ، أو تكون علاقتك هي الانتفاع بالاشياء فقط ، فتملك البيت دون ان تبنيه أو ترممه ، و تأكل من الحقل دون ان تنشأ بديله أو تسقيه ، و تترك إبنك لتربية الشوارع و الأزقة ، و تستهلك الآلات و المكائن دون أن تصنع بديلها أو تقوم بصيانتها، و تلك كلها علاقة الفساد ، و المجتمعات قد تكون متجهة بصفة عامة نحو الاصلاح و البناء و التصنيع و تغيير الأشياء الى الأفضل ، فتكون آنئذ متجهة نحو الحضارة و المدنية ، أو متجهة نحو الاستهلاك و الانتفاع و التغيير نحو الأسوأ ، فتهدم حضارتها و تهوي نحو التخلف ، و رسالات الله تأمرنا بالاصلاح الذي يبني الحضارة و تسوق الأمة نحو التقدم.

صفات المستكبرين (الملأ: (

[75]إن حالة الاسراف و التبذير ، و صبغة الفساد و الاستهلاك من دونالاصلاح و الانتاج لا تنتشر مرة واحدة في المجتمع ، بل تتجلى أولا في الملأ منهم الذين يشكلون طبقة المستكبرين ، و ابرز صفاتهم هي:

إستهلاك المزيد من النعم ، و خلق تيار معارض للاصلاح ، و لأنهم يريدون أن يأكلوا أكثر مما ينتجون ، فانهم يسرقون انتاج الآخرين بشتى الوسائل و الحيل و يستضعفونهم ، و يتسارع المستضعفون نحو الرسالة الجديدة التي تبشر المجتمع بالاصلاح و العدالة ، فيبدأ الصراع المرير بينهم و بين أولئك المستكبرين ، و ينتهي الصراع بهلاك المستكبرين و نجاة المستضعفين باذن الله.

]قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما ارسل به مؤمنون]إن المستكبرين يحاولون إفساد الطبيعة و الانسان معا ، فلذلك تراهم يفسدون آراء المستضعفين و يجرونهم نحو التيه و الضلالة لكي يستمروا في استغلالهم ، و استهلاك المزيد من انتاجهم ، بيد ان طائفة من المستضعفين يسارعون الى الايمان ، و يقوم الصراع بينهم و بين المستكبرين.

[76]و لذلك تجد المستكبرين يكفرون بالرسالة ليس بمجرد أنها رسالة ، و انما لانها مبدأ يؤمن به المستضعفون و يتخذون منه أداة لصراعهم ضدهم ، و هذا يبدو جليا من أقوالهم حيث[قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون[

المستكبرون يريدون دينا يؤيدهم في استغلالهم للناس و تسلطهم عليهم ، و لا يؤمنون بدين يؤمن به المستضعفون ، و يتخذون منه وسيلة لنجاتهم ، و خشبة خلاص لهم من ظلمهم.

[77]و لكي يتحدى المستكبرون دين المستضعفين ، و يجردوهم من تلك الوسيلة التي تنقذهم من أيديهم ، عمدوا الى الناقة - رمز الرسالة الالهية عند ثمود - فقتلوها ظنا منهم ان إعدام الناقة يضع حدا

لتحرك المؤمنين ، لأنها رمز وحدتهم ، و عنوان نشاطهم الاجتماعي ، ولكنهم أخطأوا حيث ان عقر الناقة و ما تبعه من أعمال تخريب و إفساد عرضهم لغضب الله سبحانه و عجل في نهايتهم.

]فعقروا الناقة[

ومن المعروف ان واحدا منهم فقط هو الذي عقر الناقة ، و لكن البقية رضوا بعمله فكانوا كما لو أن الجميع اشتركوا في عقرها.

]و عتوا عن أمر ربهم[

حيث تجاوزوا الحد في الفساد برغم أمر الله لهم بالاصلاح.

]و قالوا يا صالح أئتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين]النهاية الحتم:

[78]و كما نهاية ثمود كذلك نهاية كل الطغاة المستكبرين كلما بالغوا في الفساد ، و انما يفعلون ذلك بعد تنامي حدة الصراع بينهم و بين أصحاب الرسالة اذ أنهم يضطرون آنئذ الى مقاومة الرسالة بالمزيد من عمليات التخريب و الفساد ، و هكذا أنزل الله على ثمود العذاب حيث ارتجت بهم الارض و تزلزلت من تحتهم ، و تهدمت مدنيتهم ، و ماتوا و هم جالسون دون ان يمهلوا حتى يمدوا ارجلهم استعدادا للموت.

[فأخذتهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جاثمين]

[79]إن البشر يهرع لمساعدة نظرائه و اخوته ، و لكن المستكبرين لم يحزنلهلاكهم أحد ، و هذا منتهى الخزي و العار الذي قد يلحق بأحد.

[فتولى عنهم و قال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي و نصحت لكم و لكن لا تحبون الناصحين]إن قصة ثمود عبرة لكل واحد منا كي يبادر لقبول النصح ، و يتجه نحو التربية و الاصلاح ، و يكون همنا الانتاج و الانشاء لا الاستهلاك و الافساد.

قوم لوط عاقبة الجريمة الخلقية

هدى من الآيات

و تكررت ذات الحقائق التي شهدناها عند عاد و ثمود في قصة لوط ، حيث بارك الله لهم في نعمه فطغوا بها ، و شذوا عن الصراط القويم في الانتفاع بها ، فاذا بهم يتخذون الفاحشة سبيلا لارضاء شهواتهم الجنسية ، انهم يأتون الرجال بدلا من النساء ، و يسرفون في الشهوات.

إنها مرحلة الغرور في قوم أنعم الله عليهم بالاستقرار و الأمن و النعم ، و تأتي صرخة السماء الهادرة تنذرهم عاقبة الفجور ، و لكن قوم لوط يحاولون إخراج لوط من قريتهم بتهمة التطهر ، و المجتمع الذي يصبح التقوى و التطهر جريمة فيه لا يرجى له الخير أبدا.

و تحين ساعة العقاب حيث ينجي الله لوطا و أهله المؤمنين بالرسالة ، و يهلك الآخرين و فيما بينهم إمرأته التي أصبحت من الهالكين بسبب إتباعها لهم ، و طريقة العقاب هي أن الله أنزل عليهم من السماء مطر السوء كما أنزل عليهم بركاته منقبل.

و هكذا ترى رسالات الله تحذر البشر من عاقبة أفعالهم السيئة و سلوكهم الشاذ ، و لكن أكثر الناس لا يشكرون نعمة الرسالة فيهلكون.

بينات من الآيات

قوم لوط من الألف الى الياء :

[80]أرسل الله لوطا الى قومه ، و يبدو لي - مرة اخرى - أن قوم لوط كانوا في البداية مستقيمين يسعون من أجل بناء حضارتهم ، لأن الخط العام لحركتهم كان سليما ، و كان مجمل سلوكهم سليما ، بيد أنهم حين بلغوا مرحلة من التحضر اصيبوا بالاسراف ، و جاء في بعض الأحاديث أنهم اصيبوا كذلك ببخل و إسراف و هاتان صفتان نابعتان من جذر واحد هو : عبادة المادة ، و الابتعاد عن القيم المعنوية.

و اذا كان قوم عاد قد اصيبوا بصفة الغرور و البطش و الظلم ، و اصيبت ثمود بالفساد و الاستكبار و الطبقية ، فان ترف قوم لوط دفعهم الى الشذوذ الجنسي ، فكانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء ، و قد يكون سبب هذا الشذوذ هو البخل ، حيث ان الشاب الذي تلتهب شهوته و لا يجد إمرأة يتزوجها إلا بمهر عظيم و بشروط قاسية ، شأنها في ذلك شأن المرأة في المجتمعات المرفهة التي تبحث عن الكماليات قبل ضرورات العيش ، إن هذا الشاب الذي لا يملك ذلك النشاط الذي يدفعه الى العمل و الانتاج و الحصول على المال ، يفضل الجنوح نحوالجريمة و اختيار الشذوذ الجنسي الرخيص على العلاقة الشريفة.

بيد ان السبب الاخطر للشذوذ هو الاسراف ، ذلك لان المجتمع الذي لا يتطلع نحو بناء المستقبل الافضل ، ولا يبحث عن قيم التضحية و الفداء و يملك قدرا كبيرامن فائض النعم و الوقت و المال ، يبالغ في الشهوات و يسرف فيها و يشذ عن سبلها السليمة ، فيشتري عذاب الله .لذلك أرسل الله لوطا الى قومه في تلك المرحلة من حضارتهم ، حيث قعدوا عن الطموحات الكبيرة و تركوا قيمهم الفاضلة ، أرسله ليحذرهم عاقبة الشذوذ.

[و لوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين] [81][إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون][٨٢ [أعوذ بالله من حالة الانزلاق في وادي الشهوات ، خصوصا لو شاع ذلك في المجتمع ، حيث يتواصى أبناء هذا المجتمع الفاسد بالجريمة و الشذوذ كما يتواصى المتقون بالصلاح ، و لقد أصبحت الجريمة و الشذوذ قيمة إجتماعية عند قوم لوط و لذلك لم يستمعوا الى نصيحته، بل اتهموه بالطهر و التقوى ، و أمروا باخراجه.

[و ما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون][٨٣] و الله سبحانه أنجى لوطا من تلك القرية فهاجر منها بأمره سبحانه ، و كذلك يهاجر المؤمنون من كل مجتمع يشيع فيه الفساد ولا يقدرون على إصلاحه.

[فأنجيناه و أهله إلا إمرأته كانت من الغابرين]

و لم تكن إمرأة لوط من أهله ، كما لم يكن ابن نوح من أهله ، لأنهما كانا على غير ملتهما.

[84]و جاءت أخيرا العاقبة السوء حيث دمر الله قرى لوط بعذاب بئيس يفصله القرآن في سور أخرى.

[و أمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين]لننظر الى عاقبتهم ، و نعتبر من قصصهم لكي لا نصبح مثلهم - لا سمح الله. -

رسالات الرب وسيلة الاصلاح الاقتصادي

هدى من الآيات

و أهل مدين كما ثمود و قوم لوط ، انهارت مدنيتهم على رؤوسهم بسبب فسادهم ، و أبرز مظاهر الفساد عندهم كان البخس في الميزان ، و إفساد الأرض زرعا و ضرعا ، و قطع طرق الخير على عابريها ، و الصد عن سبيل الله ، و تحريف الدين.

لقد جاءت رسالة الله على لسان شعيب لتنهاهم عن الفساد بعد الاصلاح ، و التخلف بعد التقدم ، و التدهور بعد النشاط ، فأنقسموا على أنفسهم فريقين ، فمنهم من آمن و منهم من كفر ، و الله سوف يحكم بين الفريقين ، و الزمن شاهد على صدق النبوءة.

و احتدم الصراع و بدأ الكفار بمنع الناس عن الايمان بالرسالة و اعتبار ذلك خسارة ، و انتهت قصتهم بعذاب أنزله الله عليهم في صورة رجفة قضت عليهم ، و شهد التأريخ ان الخاسرين إنما كانوا هم الذين كذبوا بشعيب لا المؤمنين به ، و تلك النعم التي اغتروا بها لمتنفعهم في ساعة العذاب.

أما شعيب فلم يحفل بمصيرهم لأنه نصحهم و أبلغهم رسالات ربهم ، فكفروا بها ، فلم يأسف لمصيرهم ، و يبدو لي : أن اهل مدين كما أصحاب الحضارات السابقة كانت علاقتهم بالأشياء و الاشخاص علاقة العطاء و التربية و الاصلاح فبنوا تلك المدنية ، و لكنهم بدلوا تلك العلاقة و أصبحت علاقتهم علاقة الاسراف و الاستهلاك و الافساد فدمرت حضارتهم.

بينات من الآيات

التمثيلية التاريخية:

[85]و تتكرر مشاهدة في التاريخ حتى ليكاد المرء يتصور أنها جميعا مشهد واحد لا يتغير سوى الممثلين فيه ، و أن كانت هناك اختلافات فانما هي في المظاهر الخارجية للأحداث ، فكل الجرائم و الانحرافات التي يبتلى بها المجتمع تنشأ من عدم التسليم لله و عدم اتباع مناهجه كاملا ، و الشرك به عن طريق طاعة غيره من الطواغيت و الأصنام الحجرية أو البشرية ، أو التشبث بالقشور و الأسماء التي لا يوجد وراءها شيء ، لذلك تجد رسالات السماء تؤكد أولا و قبل كل شيء على الوصية بعبادة الله ، ففي القصص السابقة بدأ كل نبي حديثه مع قومه بهذه الكلمة : إعبدوا الله.

]و إلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره]ماذا تعني عبادة الله ؟

عبادة الله لا تعني مجرد التسليم النفسي له ، بل و يجب التعبير عن صدق هذا التسليم عمليا في صورة الكفر بالطاغوت و التمرد ضد النظام السلطوي الذي يتخذ من القوة أداة للسيطرة و القهر ، و بالتالي الثورة ضد كل حكم لا شرعي .

إن أنبياء الله (عليهم السلام) كانوا يهدفون تغيير النظام السياسي في المجتمع ،من نظام شركي قائم على أساس الحاكم و المحكوم ، إلى نظام توحيدي يقوم على أساس رفض الحاكميات جميعا سوى حاكمية الله الحي القيوم ، و لذلك تجد الآيات السابقة التي تحدثت عن رسالات الله أكدت قبل كل شيء ضرورة رفض الالهة التي تعبد من دون الله ، و الذي يعني : رفض الحاكميات البشرية و التسليم لحاكمية الله و عبادته سبحانه.

و رفض أي نظام سياسي باطل لا يعني الفوضوية بل إقامة كيان سياسي صحيح مكانه ، ذلك هو كيان التوحيد القائم على رسالة بينة ينتفع بها المجتمع ، يؤمنون بها و يخضعون لها.

]قد جاءتكم بينة من ربكم[

فعليكم باتباعها ، تلك البينة هي رسالة الله و رسوله المطاع باذنه.

و بعد تثبيت دعائم السلطة السياسية السليمة ، أمر شعيب قومه بتصحيح مسيرة الاقتصاد ، و إصلاحه من إقتصاد قائم على اساس الاستغلال و الاستثمار الى اقتصاد قائم على أساس الوفاء بالحقوق ، و إعطاء كل ذي حق حقه بالكامل.

]فأوفوا الكيل و الميزان ولا تبخسوا الناس اشياءهم]حين يكون المجتمع رشيدا من الناحية الاقتصادية فانه لا ينهب و لا يغش ، بل و لا يفحش في الربح أيضا أو يسعى كل طرف للحصول على المنفعة الأكبر ، و هذا هو التطلع الأرفع الذي يجب أن يهدفه المصلحون في حقل الاقتصاد . أن يرى كل طرف منفعة الآخرين بمثل ما يرىمنفعته فلا يبخس أحدا شيئا.

و بعد النظام الاقتصادي ، يأتي دور الاصلاح في مجمل سلوك البشرية تجاه الأشياء و الأشخاص ، ذلك الذي أكدت عليه رسالات السماء ، حيث أمرتبضرورة إيجاد علاقة الاصلاح بين الناس و الطبيعة ، و بين الناس بعضهم مع بعض ، فلا يكون هدف المجتمع الانتفاع بالحياة فقط بل يكون هدفه:

أولا : تفجير طاقات الطبيعة لمصلحة الانسانية ، و تنمية هذه الطاقات ، و تطويرها الى الافضل ، مثلا : زراعة الأرض ، و صناعة المعادن ، و تعبيد الطرق ، و بناء الجسور ، و عمارة المدن ، و المحافظة على البيئة بكل أبعادها ، كالمحافظة على نقاء الهواء و الطيور و أنواع الوحوش و الدواب ، و أنواع الأسماك ، و بالتالي كل ما يصلح الأرض لا ما يفسدها.

ثانيا : تنمية طاقات البشر و مواهبه ، و المجتمع الراشد يسعى من أجل دفع المستوى الخلقي لأبنائه و المستوى التعليمي ، و يربي المزيد من الكوادر المتقدمة في كافة الحقول ، إنه مجتمع يربي القادة و المفكرين و المخترعين و الأبطال ، و لا يكتفي بذلك بل و يسعىمن أجل تعميم الحضارة على كل المجتمعات القريبة فيما يخص أبناءه و مساعدتهم على التقدم و النمو ، لذلك قال ربنا على لسان شعيب:

]ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها[

وقد تكررت هذه الكلمة في الآيات السابقة أيضا ، و يتساءل المرء لماذا جاءت هذه الكلمة فـي صورة النهي ، أو لم يكن الأفضل أن يقول ربنا سبحانه : و أصلحوا في الأرض ؟

أتصور أن هذه القصص بالذات تعكس وضع الحضارات في ظروف شيخوختها ، و تنامـي نقـاط الضعف فيها ، و أفول نجمها حيث أن الحضارة تنشأ و تتنامى فيها نقاط القوة ، و لكن الغرور و الارهاب و الاستكبار كل ذلك يبدل نقاط القوة فيها الى نقاط ضعف حتى تقضي عليها ، ورسالات السماء تسعى من أجل إيقاف تدهور الحضارات و دمار العمران بتوعية الناس بأسباب قوتهم السابقة ،و عوامل الانقراض و منها بل و من أبرزها هي : الفساد بعد الاصلاح . أي تحول تلك العلاقة الانتاجية و العمرانية و الابداعية التي كانت حاكمة سابقا بين أبناء المجتمع بعضهم مع بعض أو مع الطبيعة الى علاقة استهلاك و استغلال و ترف.

إن حالة الاستهلاك القائمة اليوم في بلادنا الاسلامية ، و صفة الترف و التوسع في الحاجيات الكمالية ، و الرغبة عن الأعمال الانشائية مثل العمران و التصنيع إنها جميعا تشكل أخطر عوامل التخلف عندنا ، و يا ليتنا نتدبر في هذه القصص لنكشـف فيها سر تخلفنا ،و أسباب النهوض ببلادنا بعد الركود و التخلف.

]ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين[

الهدم أصعب:

يزعم البعض ان الاسراف خير من الاقتصاد في المعيشة لانه يمتعك باللذائذ اكثر و بجهد أقل ، أو يزعم ان استغلال جهود الآخرين و استهلاك ما ينتجونه خير من الاجتهاد و الانتاج لانه تجاوز للتعب و الارهاق ، و اشباع للغرائز باقل قدر من العمل ، و بالتالي يزعم أكثر الناس أن الهدم خير وسيلة للدفاع ، و أفضل وسيلة لادارة الصراع بنجاح ، و لكن ما أبعد الحقيقة عن هذه المزاعم.

إنك حين تسرف في النعم فانك تهلك انسجة بدنك بقدر ما تستهلك من المواد ، و تفسد عاداتك و نفسيتك بقدر ما تفسد الطبيعة.

إنك حين تنتج فانك ترتفع الى مستوى الانتاج و تتكامل قدراتك و تنصقل مواهبك بذات النسبة و البلد الذي ينتج الفانتوم يختلف عن الذي يشتريها إختلاف الأم التي تنجب طفلا عن تلك التي تتبنى طفلا.

إن هذا البلد تتكامل قدراته و ترتفع الى مستوى انتاج الفانتوم ، إنه يصنع بدائللها و هكذا ، كذلك المزارع الذي يحرث الأرض و يسقي الحقل حتى يجني الثمرات ، ليس أبدا مثل ذلك الذي يلتهم الفاكهة دون أن يعرف قيمتها الحقيقية ، إن المزارع يتفاعل مع الثمار و يتكامل بها لانه ينتجها ، بينما الذي يأكل الفاكهة

يستهلك بقدر ما يستهلك.

و من قال ان الهدم أفضل وسيلة للدفاع ، و خير أداة في الصراع ؟

إنك حين تقتل جنديا عدوا تزداد قوتكم بقدر جندي واحد ، أما حين تضيف جنديا الى جنودك من أعدائك فان باستطاعة هذا الجندي أن يستقطب إليك جنودا كثيرين.

و حين تهدم مصنعا للعدو تزعم بأن قدرتك الاقتصادية ازدادت بقدر مصنع واحد ، و لكن هل هو واقع أم خيال ؟ بينما لو أضفت مصنعا الى مصانعك فان هذا المصنع يكمل حلقات مصانعك و يرفع النقص الموجود فيها ، و بالتالي يعطيك قدرة على تنامي مصانعك.

و فرق بين أن تحرق مزرعة للعدو أو تنشئ مزرعة إن المزرعة التي تنشأها لا تضيف قوة إقتصادية الى إقتصاد بلدك فحسب ، بل و تزيدك قوة إنتاجية ، بمعنى ان الحبوب المنتجة من المزرعة تصلح ان تزرع في أرض اخرى ، و ان اليد العاملة في المزرعة تقدر على أن تزرع اخرى ، و النظام المشجع على إنشاء مزرعة ينشئ مزارع عديدة و هكذا..

و هكذا يصبح البناء أفضل وسيلة لهدم كيان العدو ، و الاصلاح أفضل وسيلة لتصفية دعاة الفساد و دعائمه ، و صدق الله العلي العظيم حين يقول:

]ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين[

مراحل الانحطاط:

يتدرج المجتمع في الانحطاط عبر عدة مراحل ، ففي البداية تفسد السلطة السياسية ، ثم تفسد طريقة التعامل ، ثم أساليب الانتاج ، ثم فساد القيم و هو أخطر مراحل الفساد ، لذلك نجد شعيبا (عليه السلام) بدأ حديثه الناصح بالتحذير من الفساد السياسي و الاقتصادي، و من ثم الفساد الثقافي و القيمي.

فحذر من النهي عن المعروف و الصد عن سبيله ، و محاولة تضليل الناس عن سبيله الأقوم في الحياة ، و محاولة توجيههم الى السبل المنحرفة ، و أمرهم بتذكر الماضي حيث أنهم كانوا أقلاء فكثرهم الله بالسبل القويمة ، كما نصحهم بالاعتبار بما أصاب المفسدين السابقين، و أمر شعيب المؤمنين من قومه بالصبر حتى يحكم الله ، و تبين العاقبة.

[86]قد يفسد البشر عمليا ، بينما يبقى من الناحية النظرية مؤمنا بالقيم و معترفا بخطئه حين لا يعمل بها ، و يرجى لمثل هذا الشخص الفلاح بالتوبة ، و لكن إذا بقي على ضلالته العملية قد ينحدر شيئا فشيئا الى الكفر بتلك القيم رأسا ، أو لا أقل من تفسيرها تفسيرا خاطئا يتوافق مع سلوكه الباطل ، و هذا الشخص يصعب إصلاحه.

لأنه ليس فقط يعمل الأخطاء بعمد و إصرار ، بل و يدعو الناس اليها ، و قد يجر الآخرين الى إتباع منهجه ، و قوم شعيب بلغوا هذا الدرك الأسفل فنهاهم رسولهم (عليه السلام) عن ذلك و قال:

]و لا تقعدوا بكل صراط توعدون[

أي تهددون السالكين فيه من الذين يبتغون الوصول الى الله و الحق و العملالصالح.

]و تصدون عن سبيل الله من آمن به[

أي لا تسمحون للمؤمنين بالله أن يسلكوا السبيل الموصل اليه سبحانه.

]و تبغونها عوجا[

أي تحرفون نصوص الدين ، و تزعمون أن السبل الملتوية هي الطرق البالغة.

الثقافة التبريرية نسيج التخلف:

إن الأمم المتخلفة تصنع لنفسها نسيجا من الأفكار الباطلة ، و الثقافات التبريرية التي تكرس واقعها الفاسد ، و لكي تتجاوز الأمة هذه الثقافة التبريرية الكسولة عليها أن تصلح نظرتها الى الحياة ، و لا تزعم أن النعم الموجودة فيها مستمرة و ذاتية ، بل تتذكر ماضيها الحافل بالمشاكل و العقبات ، و كيف تحدتها ، و بفضل أي نوع من القيم و الأفكار ، ثم تدرس حياة المجتمعات الأخرى التي فسدت خزائنها ، كيف و بسبب أي نوع من السلوك زالت تلك المجتمعات ؟ لذلك ذكر شعيب قومه بماضيهم و بماضي المجتمعات الزائلة و قال:

[و اذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم و انظروا كيف كان عاقبة المفسدين][٨٧] و كانت نصيحة شعيب للكفار المناهضين لرسالته هي الكف عن مقاومتهم لنور الرسالة ، أما وصيته لأنصاره المؤمنين فهي الصبر و الاستقامة حتى يحكم الله بينهم وبين الكفار فقال:

[وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به و طائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين]

المكذبون برسالات الرب هم الخاسرون

هدى من الآيات

كانت رسالة شعيب التي نصح بها القوم ذات قيم فطرية ، يهتدي اليها العقل و تعارضها الشهوات العاجلة ، وقد تحدى الملأ شعيبا ، و الملأ هم كبار القوم الذين استكبروا في الأرض و جعلوا فيها الناس ضعفاء ، لقد تحدوا هذه الرسالة ليس بالحجة و إنما بالقوة ، حيثهددوه (عليه السلام) بالاخراج من قريتهم أو العودة الى دينهم الفاسد ، و تساءل شعيب : كيف تسمحون لأنفسكم إجبارنا على العودة الى ملتكم الفاسدة كرها ، أو ليس في ذلك شهادة على أن ملتكم فاسدة ، و أن منطق القوة و ليس القناعة هو السائد عليها ؟

و اذا كانت القوة حاكمة فقوة الله أعظم من قوتكم ، فلا نرضى بالتسليم لكم ، و الافتراء على الله كذبا ، و الكفر بنعمة الهداية التي أسبغها الله علينا فأنجانا بها من الملة الفاسدة.

و هل يستطيع البشر أن يتجاوز إرادة الله ؟ كلا .. لذلك لا يستطيع أحد أنيكره أحدا على فكرة الباطل ، لان الله ربهما و المطلع على شؤونهما . لا يسمح بذبح حرية أحد إلا بمشيئة ، أو تقصير الانسان نفسه ، فاذا توكل البشر على ربه ، و اعتمـد على قوته ، فانه خير من يفتح بينه وبين عدوه بالحق ، إذا فحري بالبشر الاعتماد على الله في مقاومة تهديد أهل الباطل ، وعدم الخشية من تمكنهم منه

بينات من الآيات

المستكبرون العائق الأكبر:

[88]الناس العاديون يستقبلون رسالات الله بفطرتهم النقية ، لو لا أن المستكبرين الذين يستغلون جهود الضعفاء يفرضون عليهم نهجا فكريا معينا بالقهر ، و هؤلاء هم الذين يشكلون حينا السلطة السياسية ، و حينا السلطة الاقتصادية ، و حينا السلطة المسماة بالدينية ، بيد أنها جميعا سلطة قهرية تسرق إرادة الانسان ، و هذا نموذج من قهرهم ، أنهم هددوا شعيبا (عليه السلام) بالاخراج من القرية لو عارض نهجهم السياسي.

]قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب و الذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا

قال أولو كنا كارهين]و الكلمة الأخيرة تدل على صفة الجبر و القهر في السلطة القائمة في مجتمع مدين ، و بالتالي على نظام الطاغوت الذي يعتمد على الملأ من الناحية الطبقية ، و على الاستكبار من الناحية الاجتماعية و الثقافية ، و على الارهاب من الناحية السياسية.

الصمود شاهد صدق:

[89]الذي يحمل رسالة الله الى الناس حقا لا يتنازل عنها تحت ضغط الظروف ، و تلك شهادة بينة على صدقه ، أما الذين يفترون على الله الكذب و يدعونأنهم رسل الله باطلا ، فانهم يتركون الرسالة حين يتعرضون للضغط ، من هنا قال المؤمنون من قوم شعيب:

]قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها]و حيث أن الله أنجاهم من ضلالة الطاغوت بالرسالة ، فالعودة الى ملتهم السابقة إنما تكون بعد وعي كاف ببطلانها ، فيكون ذلك تكذيبا متعمدا للحــق ، و جحودا سافرا بآيات الله ، و العذاب سوف يكون عليهم مضاعفا.

ومن جهة أخرى العودة الى الملة الباطلة التي أنقذهم الله منها لا تكون ممكنة بالقهر و الاكراه ، لان الله قد ضمن للبشر حريته و كرامته ، و لن تكون القوى الشيطانية قادرة على إلحاق أي نوع من الأذى ، أو إيجاد أي قدر من التأثير على أحد من دون مشيئة الله واذنه سبحانه ذلك لان قوى الطاغوت لا تعصي الله عن غلبة - سبحانه - أو بتجاوز ملكوته .. كلا ، و إنما لأن الله أمهلهم و أعطاهم فرصة الاختيار الحر لفترة محدودة لهذا فان الطاغوت لا يقدر على جبر المؤمنين على الكفر لأن الله لا يسمح له بذلك.

]و ما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما]و كما ان قدرة الله مهيمنة على الكون فلا يقدر الكفار على تجاوزها ، كذلك علمه النافذ في كل شيء ، و لكي يقاوم المؤمنون قوى الطاغوت المادية يلتجؤون أكثر فأكثر الى قوة الله المعنوية و يقولون:

]على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق [المؤمنون لا يسعون نحو تحقيق الانتصار على عدوهم بالباطل ، أي دون أن يكون لديهم مؤهلات النصر ، أو دون أن يكونوا أفضل من عدوهم ، بل إنما يريدون الفتحبالحق.

]و أنت خير الفاتحين[

الخسارة العظمى:

و اقتربت النهاية لقوم شعيب ، حيث انهم اعتمدوا على القوة المادية زاعمين أنها كل شيء ، وأن من يخسرها فانه يخسر كل شيء ، لذلك قالوا للمؤمنين : انكم لخاسرون ، يزعمون أن الثروة و السلطة و الجاه التي يملكونها و التي يحرمون المؤمنين منها تعتبر خسارة ، بينما المؤمنون يعرفون ان القيم الباطلة التي يقوم عليها بناء مجتمع الطغيان و الفساد تنسف كل تلك الماديات الظاهرة.

و من هنا أخذت قوم شعيب الرجفة فاذا بهم جاثمون ، و اذا بالخسارة الحقيقية هي من نصيبهم هم ، أما شعيب فلم يأسف لهم لأنه قد أبلغ رسالات ربه ، و قدم النصيحة لقومه ، و لكنهم كفروا بها فكيف ييأس عليهم.

[90]ان النظــرة المادية الضيقة التي يرى بها الكفار الأمور تجعلهم محدودين جدا ، لا يفهمون حقائق الحياة ، و هؤلاء يرمون الناس بالسفه و بالجنون ، و يزعمون أن الذي لا يعمل للربح المادي العاجل خاسر لحياته ، لذلك تجد الملأ من أهل مدين يعتبرون إتباع شعيب خسارة كبيرة لهم.

]و قال الملأ الذين كفروا من قومه لان اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون]و منتهى ما يستطيع الملأ المستكبرون ان يلحقوه من الأذى بالمؤمنين هو : منع بعض النعم المادية عنهم ، و هذا ما كان ولا يزال الطغاة يهددون الثوريين به ، و لكن من الذي تكون له عاقبة الدار ؟!

[91]إن الله سبحانه يعطي فرصة محدودة للبشر ليمتحن إرادتهم فيها ، و مدىقدرتهم على مقاومة إغراء الشهوات ، و قد منح هذه الفرصة لقوم شعيب ، وها هم الآن استنفذوا فرصتهم و اقتربت ساعة المصير .

]فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين[

وكانت الرجفة قوية الى درجة أن الله لم يمهلهم حتى يتخذوا حالة الاستلقاء استعداد للموت ، بل وقعوا على وجوههم ذلة و هوانا.

معيار الخسارة:

[92]و هنالك تبين ذلك الواقع الذي حذر منه شعيب ، و آمن به القوم المؤمنون و هو : أن الخسارة و الربح إنما هما بالقيم لا بالمصالح العاجلة.

[الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها]

إنتهت فرصتهم ، و تداعى كيانهم ، و زالت مكاسبهم ، حتى يخيل للانسان انه لم يكن شيئا موجودا.

[الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين]

[93]أما شعيب فقد ترك قومه الهالكين و هم صرعى دون أن يذرف عليهم قطرة دمع.

[فتولى عنهم و قال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي و نصحت لكم فكيف ءاسى على قوم كافرين]

أسباب الحضارة و مراحل حياة الأمم

هدى من الآيات

بعد أن ذكرنا القرآن الحكيم بقصص الأولين من الرسل و قومهم ، عاد ليبين لنا عبرا من التاريخ و أبرزها:

/1أن الأمم تسير عبر مراحل ثلاث : مرحلة الشدة و الضنك ، ثم مرحلة الرفاه و الرخاء ، ثم مرحلة الفساد و الهلاك ، و رسالات السماء حاضرة في هذه المراحل ، و إرادة الله مهيمنة عليها.

/2هلاك الأمم ليس قدرا محتوما عليها ، إنما هو بسبب كفرهم و عدم التزامهم بالأوامر و التوجيهات ، فاذا آمنوا و اتقوا الله فتح الله عليهم بركات السماء.

/3وراء الرخاء الظاهر قد يكمن مكر الله الخفي الذي ينبغي ألا يؤمن و الذي يأتي ليلا في حالة النوم ، أو نهارا في حالة اللعب و الغفلة ، و أنما يخسر البشر حين يأمن مكر الله وما تخبؤه الأيام من شدة و مكروه .

/4توارث الأمم هذه الارض ، و لابد من ان يتعض اللاحقون بمصير السابقين ، و ليعرفوا هذه الحقيقة : أن الذنوب تحيط بالانسان ، و تأخذه في حين غفلة ، ذلك لأن الذنب يسبب عمى القلب أيضا.

/5بالرغم من أن الله يبعث رسله الى الأمم حين تتدهور ، لكن كفرهم السابق و ذنوبهم التي أعمت قلوبهم لا تدعهم يؤمنون برسالات الله ، كما لا تدعهم يفون بعهد الله عليهم ، لذلك كانت الأمم هذه لا عهد لها و لا دين و بذلك هلكت.

بينات من الآيات

المصاعب امتحان و تربية:

[94]في هذه الآية نجد حكمة الصعوبات التي تعصر البشر و الهدف التربوي منها ، الذي لو عرفه الانسان وسعى اليه فليس فقط لا يتضرر منه ، و إنما يستفيد منها كثيرا يقول الله:

]و ما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء و الضرآء لعلهم يضرعون]فالضراعة هي هدف البأساء و الضراء في الحياة ، و البأساء حسبما يبدو لي : كل سوء يصيب البشر بأيديهم كالحروب ، و الفقر الناشئ من وضع اجتماعي سيء ، و الظلم و الارهاب ، بينما الضراء هي : الخسارات التي تصيب البشر بالطبيعة كالامراض و الضغط و ما أشبه.

و الضراعة هي : العودة الى واقع الذات و ما فيه من نقص و عجز و انحراف ، بعيدا عن أي غرور أو إستكبار ، أو عزة بالاثم ، و الضراعة الى الله تعطينا الثقة بقدرتنا على تجاوز كل ذلك بعون الله.

و ربما تكون هذه الآية توضيحا لبداية انطلاقة المجتمعات و شروطها الواقعية ، و هي ظروف قاسية يمر بها المجتمع فيتحداها بالضراعة ، و هي وعي الذات و ما فيه من نواقص يجب تكميلها ، و امكانيات يجب تفجيرها.

[95]و بعد الضراعة و تكميل النواقص بالتوكل على الله ، و بالاعتماد على قيمه السامية ، تأتي مرحلة الرفاه حيث تتبدل الصعوبات الى يسر و سلامة ، و من بعدها تأتي مرحلة الرخاء حيث تفيض النعم عن الحاجة ، و هناك يفسد المجتمع بسبب الطغيان و الترف و البطش فيصيبه الدمار ، بيد أن الدمار لا يصيب المجتمعات شيئا فشيئا بل يصيبهم فجأة و من دون شعورهم به.

]ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا[

أي حتى كثرت النعم و أصبحت عفوا و زيادة تترك.

]و قالوا قد مس آباءنا الضرآء و السرآء فأخذناهم بغتة و هم لا يشعرون]لا حتميات بل حقائق:

[96]إن هذه المسيرة الدورية في المجتمعات ليست ضرورة حتمية ، أو سنة إلهية ، بل حقائق تاريخية باستطاعة البشر تغييرها عن طريق الايمان و التقوى ، فان الايمان ضمانة ايديولوجية و ثقافية و اجتماعية لبقاء عوامل الحضارة ، و التقوى ضمانة تشريعية سياسية و اقتصادية و سلوكية لبقاء إطارات الحضارة.

]و لو أن أهل القرى آمنوا و اتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء و الأرض [ربما تكون البركات هي كل ما يكمل حياة البشر و يطورها للافضل.

]و لكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون[

إذ أن الظروف القاسية التي تصيب البشر تأتي بسبب تكذيبه للحقائق ، و اكتسابه للمنكرات من هنا نستطيع أن نستنبط فكرة جديدة في فلسفة التاريخ ، و فلسفة الحضارات بين الفكرتين المتطرفتين و هما:

الفكرة الأولى : التي تقول ان للحضارات دورة حياتية حتمية مثل مراحـــل الحياة للشخص ، من الطفولة الى الشباب الى الشيخوخة فالموت.

و الفكرة الثانية : التي تقول أن الحضارات انما هي نتيجة فكرة حضارية تنمو حولها و بها امكانيات

المجتمع حتى تصبح حضارة.

و الفكرة الثالثة : التي يمكن استنباطها من هذه الآيات - لو صح التفسير الذي فسرناه بها - هي:

أن هناك سببين للحضارة ، سبب طبيعي هو تحدي الصعوبات الفاسدة من ظروف قاسية أو من صراعات اجتماعية ، إذ ينشا من هذا التحدي الضراعة فاصلاح النواقص فالرخاء و الرفاه ، و هذا السبب الطبيعي يتحرك وفق سنن طبيعية تقريبا كسائر القوانين الاجتماعية.

و السبب الثاني هو : الايمان بفكرة رسالية و الالتزام بمناهجها (الايمان و التقوى) و لهذا السبب سنته الذاتية ، بمعنى أن الحضارة تبقى مع الايمان و التقوى.

[97]و لان هلاك المجتمعات الفاسدة يكون فجائيا بعد تراكم السيئات ، و إحاطتها بالذين يكتسبونها ، فان علينا أن نترقب بأس ربنا في كل لحظة ، ليلا و نهارا ، في حالة النوم أو في حالة الغفلة!!

]افامن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا و هم نائمون][٩٨] [أوأمن أهل القرى ان يأتيهم بأسنا ضحى و هم يلعبون][٩٩] [افامنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون [من هم الخاسرون ؟ الخاسرون هم الذين يحسبون ان تراكم المكاسب الظاهرية ، و بناء العمارات الشامخة ، و الشوارع المعبدة و المضاءة ، و المصانع الكبيرة ، و الملاعب الواسعة ، و الجيوش المسلحة بأحداث الأسلحة ، إن كل ذلك يكفي في بناء الحضارة و تحقيق طموحات البشر .. كلا ، ان ذلك ما كان ليتم لولا القيم السليمة ، و التطلعات المشروعة ، و المناهج الصائبة ، و لولا ذلك لحملت الحضارة نقيضها في ذاتها ، حيث يلتف عليهم العذاب من حيث لا يشعرون فيقضي عليهم ، ذلك هو مكر الله ، إن المدنية القائمة على الظلم أو الطغيان، و المجتمع القائم على الاستغلال و الطبقية ، و الثقافة القائمة على المصالح الذاتية كل ذلك مهدد بالزوال في كل لحظة و بصورة مفاجئة.

إذ أن المظلومين المتسغلين ، و المستضعفين المقهورين سوف ينتفضون بعد أن يطفح بهم كيل الغضب ، فلا يهابون الموت فيدمرون كل شيء في لحظة ، و الله سبحانه ينزل عليهم صاعقة من عذابه بعد أن تنتهي الفرصة الممنوحة لهم ، و الأجل المحـدود لاختبارهم ، فيقضي عليهم ، انه مكر الله ولا يأمن مكره أحد.

ان المكر هو : الالتفاف حول شيء و أن يأتيه الأمر من حيث لا يحتسب الفرد ، و الذي لا يحسب لمكر الله حسابا يخسر ، لأنه يبني دون أن يملك ضمانة لاستمرار بنائه ، و هو أشبه بجيش لا يسد على نفسه الثغرات الخلفية ، و ينظر فقط من جهة واحدة ، حيث أن العدو يأتيه من الخلف فيقضي عليه ، إن على البشر أن يلاحظ

خلفيات الأمور ، و عوامل الهدم و الدمار ، و قيم التقدم و الاستمرار.

[100]لكـي يكون لديك بصيرة نافذة ، تعرف بها عوامل الدمار التي لا ترى ظاهرا ، عليك أن تعتبر من التاريخ ، و تدرس حال الأمم التي بادت و أورثك الله الأرض من بعدهم ، أولئك الذين أحاطت بهم ذنوبهم ، و أغلقت قلوبهم فلم تسمع الحقيقة ، و أنت أيضا مع مجتمعكيمكن أن يصيبكما الله بذنوبكما ، فتغلق قلوبكما و تندحر حضارتكما.

]او لم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها[

أو لم يكن ذلك الاستخلاف و التوارث هداية كافية لهم ليعرفوا.

]أن لو نشاء اصبناهم بذنوبهم[

كما أصاب الله أولئك بها الذين من قبلهم ليكونوا هم الوارثين.

]و نطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون[

آثار الذنوب:

إن الذنوب تعكس خطين من الآثار السلبية في حياة البشر.

الخط الأول : في الواقع الخارجي ، فالظلم و الارهاب و الجريمة كل ذلك يخلف الخراب و الغضب و التحدي في واقع الطبقية و المجتمع.

الخط الثاني : في الانسان العامل بالذنب ، فالظلم يغشي القلب ، و يضعف الارادة ، و يقتل الوجدان ، و يحجب العقل ، و كذلك الارهاب و الجريمة ، والقرآن يشير الى أن هلاك الأمم كان يتم بسبب تراكم آثار الذنوب على كلا الخطين ، فمنجهة كان الله يصيبهم بذنوبهم و تراكمات آثار الخطين في الواقع الخارجي ، و من جهة ثانية كان الله يطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون بسبب تراكمات الآثار النفسية ، و لا يقدرون على الاستجابة لمغيرات الحيـــاة أو الانتباه الى أجراس الخطر التي كانت تدق على مسامعهم ، بل حتى أنهم كانوا يكذبون بآيات العذاب و هي قادمة اليهم ، فمثلا كان بعض الهالكين من الأمم السابقة يرون سحابة العذاب فيزعمون أنها سحابة رحمة ممطرة ، فتمطر عليهم العذاب بدل الرحمة ، كذلك بعض الأنظمة اليوم تزعم أن الانتفاضات الجماهيرية انما هي من خارج أراضيها ، بينما هي من الفساد في ذات النظام.

[101]و من علائم طبع القلب و انغلاقه عن الاستجابة للمتغيرات ، أو فهم إشارات الخطر : أن الرسل كانوا يأتون إليهم بالبينات و الآيات الواضحة و لكنهم يكذبون بها ، حتى يدمر الله عليهم قريتهم.

]تلك القرى نقص عليك من أنبائها و لقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل]إنهم كذبوا بالقيم اول ما انحرفوا ، فجاءت الرسل تنذرهم بالخطر من بعد أن تراكمت ذنوبهم و احاطت بهم فلم يعبأوا بذلك.

]كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين[

حين يكفر المرء يؤثر الكفر في قلبه فينغلق دون التوجيه السليم ، ذلك لأن الكفر يأتي نتيجة الاستكبار عن الحق ، و الغرور بالذات ، و حين يستجيب المرء للكفر يزداد تكبرا و غرورا ، و هكذا حتى تنسد منافذ قلبه جميعا ، حيث أن الاستكبار عدو الفهم السليم.

[102]و الله سبحانه حين أهلك الأمم السابقة لم يهلكهم إلا بعد أن توافرت فيهم أسباب الهلاك و منها : نقض العهد ، و الفسق ، أما نقض العهد فهو حالة نفسية تنعكس في تعامل الانسان مع القيم و التزامات البشر ، فالكذب و الغيبة ، و التهمة و إخلاف المواعيد ، و الغش و التدليس ، و النفاق كل ذلك من مظاهر نقض العهد ، حيث يتظاهر الفرد بشيء و يتعهد به ظاهرا و لكنه ينقضه ، وكذلك عدم الدفاع عن الوطن ، و عدم التعاون في مقاومة الظلم أو مواجهة مشكلات طبيعية.

أما الفسق فهو تجاوز الحد في السلوك الشخصي مثل : أكل الحرام ، و التهاون في الحقوق.

[و ما وجدنا لاكثرهم من عهد و ان وجدنا اكثرهم لفاسقين]٣ + ٣٩٦

الظلم بآيات الله و عاقبة المفسدين

هدى من الآيات

بعد الحديث عن تلك المجتمعات التي بادت و هلكت بسبب فسادها ، جاء الحديث يبين لنا عاقبة مجتمع

آخر أعرق حضارة و أشد جاهلية و أطول صراعا ، ذلك هو مجتمع فرعون و ملائه ، و يطول الحديث القرآني حول هذا المجتمع هنا وفي سور أخرى ، ربما لأنه أقرب صورة للمجتمعالذي سوف يتكون بالاسلام.

موسى) عليه السلام) يبعثه الله بالآيات البينات الى فرعون وملائه من المستكبرين حوله ، و لكنهم يظلمون الآيات ، فاعتبر بعاقبة هؤلاء المفسدين ، تلك العاقبة المشتركة في الجذور و السنن بالرغم من الاختلاف في التفاصيل المشتركة بين قوم موسى و قوم نوح و هود و صالح و لوط و شعيب ، تلك العاقبة التي لو استخلص المرء عبرها لاستطاع أن يتجنبها.

و جاء موسى) عليه السلام) الى فرعون ليعرف نفسه بأنه رسول رب العالمين ،و أنه يجب ألا يقول على الله إلا الحق ، و انه جاء ببينة من الله و برسالة هي إنقاذ بني إسرائيل المستضعفين.

و تحدى فرعون موسى (عليه السلام) و طالب بالآيات إن كان صادقا ، و استجاب موسى (عليه السلام) لتحديه فالقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ، و نزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين.

و هكذا بدأ الصراع بين فرعون و رسول الله الذي يحدثنا السياق عنه عبر دروس عديدة.

بينات من الآيات

ظلم الحقائق:

[103]الظلم قد يقع على البشر و قد يقع على فكرة أو حقيقة ، و البشر المظلوم لا بد أن يأخذ حقه عاجلا أم آجلا ، كذلك الحقيقة المظلومة التي ترك الظالم العمل بها أو حتى الاعتراف بها ، و حين تظلم الحقيقة يعم الفساد ، و عاقبة الفساد هي الهلاك ، و هكذا كانت قصة موسى مع قومه.

]ثم بعثنا من بعدهم[

أي من بعد تلك الرسالات و أولئك الرسل.

]موسى باياتنا إلى فرعون وملائه[

كما في المجتمعات السابقة كذلك في مجتمع فرعون ، كان الناس منقسمين الى الملأ و هم كبار القوم و العامة.

]فظلموا بها[

أي بتلك الآيات ، و الآيات هي العلامات التي تدل على الحقيقة ، و الظلم بها يعني ظلم الحقيقة أو بالأحرى ظلم الانسان لنفسه عن طريق ظلم الحقيقة و كفره بآياتها.

]فأنظر كيف كان عاقبة المفسدين[

أو لم يهلكوا بخزي و عار ، إن الفساد هو كل حركة مخالفة لسنن الله في الحياة ، و مخالفة لآيات الحقيقة ، و إذا تدبرنا في هذه المجموعة من الآيات ابتداء من الآية (٥٦) من هذه السورة حيث تقول : (و لا تفسدوا في الارض بعد إصلاحها (و حتى آخر القصص التي تحكي عن صراع الأنبياء مع مجتمعاتهم الجاهلية يتبين لنا هذا المعنى العام للفساد و هو مخالفة سنن الله و آيات الحقيقة.

[104]و الله سبحانه يصلح العالم ، و ينزل عليه بركاته ، و يكمل وجوده و يطوره نحو الأفضل ، فهو رب العالمين ، و لذلك فهو يبعث رسولا من لدنه الى البشر لذات الغاية التي من أجلها سخر الشمس و

القمر و النجوم ، و لذات الهدف الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته.

]و قال موسى يا فرعون اني رسول من رب العالمين[

بين التكذيب و التصديق:

[105]كان الرسل (عليهم السلام) يؤكدون في دعوتهم على هذه الحقيقة و هي : أن الكذب على الله جريمة كبيرة و ذنب عظيم ، و هذا التأكيد يكشف للناس أنهم) عليهم الصلاة و السلام) لابد أن يكونوا واحدا من نوعين من الرجال : فاما أن يكونوا مجرمين من الدرجة الاولى - حاشاهم - و سيرتهم حافلة بالأمانة

و الصدق و الفداء و هذه الصفات تكشف للناس غير ذلك ، و إما ان يكونوا صادقين ، و لولا هذا التأكيد المكرر على أن الافتراء على الله ضلالة كبرى و جريمة نكراء ، لكنا نحتمل أن يكون النبي كاذبا لمصلحة الناس مثلا دون أن يعرف أهمية الكذب أو مدى قبحه ، و موسى)
عليه السلام) بدأ حديثه مع فرعون بهذه الكلمة.

]حقيق على ان لا أقول على الله إلا الحق[

أي يجب ألا أقول على الله إلا الحقيقة ، و هذا الوجوب أعرفه جيدا و أعترف به ، فاني بعيد عن الكذب على الله بسبب اعتبار ذلك جريمة ، و أكثر من هذا اني أملك بينة واضحة على ذلك.

]قد جئتكم ببينة من ربكم فارسل معي بني إسرائيل[

لقد كانت رسالة الله على موسى ذات صفة إجتماعية واضحة ، حيث طالب موسى فرعون بكف الظلم عن بني إسرائيل الذين استضعفهم فرعون ، و من المعلوم ان موسى (عليه السلام) كان يهدف أيضا نجاة فرعون و قومه من ضلالتهم ، لكن بدأ رسالته من حيث كان الانحراف الكبير أو الفساد العظيم ، و هكذا ينبغي ألا تكون دعوة المصلحين في الفراغ ، بل متجهة الى أكبر انحرافات المجتمع لكشفها و إصلاحها.

[106]أما فرعون رأس هرم المجتمع الفاسد ، و قائد الملأ الكاذب فانه تحدى موسى (عليه السلام) ، و طالبه بالآية التي جاء بها.

]قال إن كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين][١٠٧] و استجاب موسى (عليه السلام) للتحدي فورا.

]فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين[

] [108]و نزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين[

كانت يده (عليه السلام (التي تشع بالبياض . آية واضحة على صدق رسالته.

تضليل الملأ ضد رسالات الله
هدى من الآيات
كانت تلك الرسالة رسالة الله ببيناتها و دلائلها ، فلننظر الى ذلك الطرف لنرى ما هو جواب المستكبرين من قوم فرعون ؟

انهم اعتمدوا على عدة وسائل لمقاومة رسالة الله ، و لم يكن بينها بالطبع الاهتداء بها او مواجهتها

الحجة بالحجة.

فأولا : قالوا لموسى انه ساحر عليم ليضللوا الناس عن رسالته.

ثانيـا : استثـاروا حب الأمن لدى الناس ، و اتهموا موسى بتعكير الأمن عليهم.

ثالثا : توسلوا الى القوة و اعتقلوا موسى و أخاه.

رابعا :جمعوا المشعوذين من سحرة البلاط ، و هكذا جاء السحرة لفرعون و لكن لم يكن لهم رسالة اجتماعية أو اصلاحية بل جاؤوا اليه طلبا للمال و الجاه ، فوعدهمفرعون أن يجعلهم من المقربين إليه ، فسألوا موسى (عليه السلام) أن يلقـي ما لديه أولا ، فتحداهم موسى و طالبهم بالمبادرة ، فلما ألقوا سحرهم سحروا أعين الناس و استرهبهم سحرهم و قد كان سحرا عظيما.

و هكذا جمع الطاغوت كل قواه المادية لمقاومة الرسالة ، و لكن ترى هل يقدر علـى ذلك ؟

هذا ما يتحدث عنه القرآن الحكيم في الدروس القادمة إنشاء الله.

بينات من الآيات

التهم الرخيصة:

[109]في الاجابة على تلك الأدلة الفطرية الواضحة قال الاشراف و المستكبرون من قوم فرعون : إن موسى ساحر عليم ، في محاولة لتضليل الجماهير المستضعفة.

]قال الملأ من قوم فرعون أن هذا لساحر عليم[

و الناس كانوا يعرفون السحرة آنئذ ، و يعرفون انهم يستخدمون ما عندهم من علم و فن ليس في خدمة الناس و انما في خدمة السلاطين أو خدمة أغراضهم الدنيئة ، و دائما يحاول أعوان الطاغوت إلقاء شبهة معينة بين الناس من النوع الذي يعرف الناس أمثاله ، فمثلا : لوقام مفكر أصيل بنشر ثقافة ثورية عالية بين الناس اتهمه أولياء الطاغوت بأنه صحفي عميل ، أو كاتب مأجور ، لان الناس يعرفون كثيرا من الصحفيين العملاء و الكتاب المأجورين ، حتى أنهم يشتبهون فعلا في المفكر الأصيل ، أو إذا قام عالم دين تقدمي صالح لقيادة ثورة الجماهير قالوا : انه رجل دين رجعي ، لأنه كثيرا ما رأى الناس مثل ذلك.

[110]ثم توسل أشراف قوم فرعون بما يتوسل إليه عادة كل الطغاة من اتهام الثوار بمحاولة تعكير صفو الأمن على الجماهير فقالوا:

]يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون[

و ثالث أسلوب استخدمه الملأ من قوم فرعون لمقاومة رسالة الله كان الاعتقال ، باعتباره حاجزا بين صاحب الرسالة و بين الجماهير ، و أما الاسلوب الرابع فكان حشد كل الذين يرضون ببيع علمهم و فنهم لقاء أجر محدود لمصلحة السلطات الطاغوتية لذلك.

] [111]قالوا أرجه و أخاه و أرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم]أي إسجنه هو و أخاه ، و أرسل الشرطة ليحشدوا السحرة.

[112]و يبقى السؤال : ما هو السحر ؟

إن اساس السحر هو : التأثير في الخيال في الطرف الثاني لكي يزعم شيئا معينا غير الحقيقة ، و

السحر قد يكون عن طريق غسيل الدماغ الذي يستخدمه العلم الحديث ، أو عن طريق الدعايات الباطلة ، و قد يكون عن طريق بعض أنواع الشعوذة ، مثل ما فعله سحرة فرعون حيث وضعوا الزئبق في أجسام لينة تشبه العصي ثم القوها فتحركت بفعل تحرك الزئبق بحرارة الشمس ، و على العموم ليس السحر سوى استخدام الوسائل الطبيعية الغير معروفة للناس في سبيل إقناع الآخرين بغير الحقيقة.

[113]و السحرة أولئك المأجورون الذين لم تكن لديهم رسالة في الحياة إلا إشباع شهواتهم العاجلة و قد سألوا فرعون قبل كل شيء عن الأجر.

]و جاء السحرة فرعون قالوا ان لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين]و يبدو ان السحرة كانوا يخشون الهزيمة بسبب معرفتهم ببطلان سحرهم ، وأنهم لا يقولون الحق ، كما يبدو أنهم قد اجهدوا انفسهم في الحصول على كل وسيلة ممكنة من وسائل السحر ، و لهذا سألوا فرعون الأجر.

[114]أما فرعون الطاغوت الذي رأى أن كيانه يتداعى تحت ضربات عصى موسى المعجزة ، فانه كان كريما في إعطاء الوعود.

]قال نعم و إنكم لمن المقربين [

حيث عرف فرعون أن طائفة السحرة يجب أن تكون على مقربة منه لمواجهة الظروف الطارئة ، كما أن الملوك و الرؤساء و طغاة اليوم يصطحبون معهم رتلا من الصحفيين المأجورين ، و المستشارين العملاء الذين باعوا ما لديهم من فكر و علم و أدب من أجل تدعيم نظام الظلم والقهر.

التحدي الرسالي:

[115]و حشدت الجماهير ، و وقف موسى يتحدى كل ذلك الكيان الطاغوتي ، فرعون و جنوده و سحرته ، يتحداهم وحده بالتوكل على الله ، والثقة المطلقة بوعـــده الصادق بنصره ، لذلك.

]قالوا يا موسى اما ان تلقي و اما ان نكون نحن الملقين][١١٦] [قال القوا فلما القوا سحروا اعين الناس و استرهبوهم و جاؤوا بسحر عظيم]٣ ان موسى (عليه السلام) واثق من النصر لانه على حق ، و لأنه يعتمد على ركن شديد هو الله سبحانه ، لذلك أمرهم بأن يخرجوا ما لديهم من مكر و سحر ، كما أمر نوح (عليه السلام) قومه بأن يجمعوا أمرهم و ان يأتوا اليه من دون نظرة و مهل.

و هكذا كل الدعاة الى الله سبحانه يتحدون الأنظمة الطاغوتية دون خوف ، و ينازلونهم في ميدان المواجهة الشاملة ، و هذا بذاته دليل صدقهم و اعتمادهم فقط على الله ، وعلى الحق الذي يحملون رسالته.

الرسالة تتحدى التضليل و الارهاب.

هدى من الآيات

و جاءت مرحلة الحسم ، و أوحى الله سبحانه الى موسى بالقاء عصاه ، فاذا بها تتحول الى ثعبان عظيم يبتلع سحر قوم فرعون ، و اذا بالحق الذي كان يبشر به موسى أصبح واقعا ، والباطل الذي كان يحذر منه تبين بطلانه للجميع.

و إنهزم فرعون و قومه و ذلوا ، و كان أول من عرف عظمة المعجزة سحرة فرعون أنفسهم حيث وقعوا ساجدين لله ، و هتفوا بأنهم آمنوا برب العالمين رب موسى و هارون ، و إرتاع فرعون ، و عرف أنه لا يجديه السحر و المكر شيئا ، و أن عليه أن يستخدم آخر الأسلحة و هو سلاح الارهاب ، فقهر سحرته و قال لهم : أتؤمنون بموسى قبل أن يصدر الاذن مني و اقرر نهاية المعركة لصالح موسى باعتباري ملكا ، ثم اتهمهم بما يتهم كل طاغوت من يخرج عليه ، إتهمهم بأنهم يهدفون إشاعة الفـــوضى و المؤامرة على أمن البلد ، و يريدون إخراج الناس ،و هددهم بانه سوف يصلبهم أجمعين.

أما المؤمنين فانهم تقبلوا التهديد بكل رحابة صدر و قالوا : إن الموت هو جسر العبور للعودة الى الله تعالى ، و قالوا له : ان تهمك باطلة ، و انما تريد أن تعذبنا لأننا آمنا بآيات ربنا ، و علامات الحقيقة حيث جاءتنا ، وطلبوا من الله سبحانه ان يمدهم بالصبر ، وأن يختم عاقبتهم بالخير.

و هكذا أسدل الستار على مشهد آخر من مشاهد صراع الحق و الباطل.

بينات من الآيات

التوكل على الله سر العظمة:

[117]موسى الذي تحدى كل ذلك الطغيان الجاهلي العظيم بسحره و جبروته و ارهابه لم يفعل ذلك بقدرته الذاتية ، بل بالقدرة المعنويـــة - بالتوكل على الله - و هذا هو سر العظمة ، إذ لو كان موسى يملك سحرا أقوى ثم يتحدى سحر السحرة ، أو كان يملك جيشا اكبر ثم يتحدى الطاغوت فرعون ، أو يملك جماهير أكثر إذن ما كان له هذا الفخر و هذه العظمة ، انما كان يتحدى الجاهلية بعصاته التي يخشى منها حين يلقيها ، لانه لا يعرف كيف تتحول الى ثعبان ، و حين وقف موسى أمام السحرة و رأى سحرهم العظيم ، و أنهم استرهبوا الجماهير ، وكادوا يضللونهم أوجس في نفسه خيفة ، لانه يخاف من غلبة الجهال و دول الضلال كما جاء في الحديث ، و لكن يشاء ربه امتحان الناس بهذا السحر ، و امتحان استقامته ، و حين ينتصر موسى بعصاه حينذاك تكون عظمة موسى ، لانه يعتمد على الايمان ، و يضحي بنفسه في هذا المجال ، لذلك يؤكد ربنا على الوحي في مواجهة الجاهلية و يقول:

]و اوحينا الى موسى ان الق عصاك فاذا هي تلقف ما يأفكون]أي تبتلع إفكهم و إنحرافهم و كذبهم.

[118]و حين يصبح الحق واقعا عينيا يؤمن به الجميع ، و لكن قبل ذلك لا يؤمن به سوى أصحاب البصائر النافذة و الرؤى الصادقة.

]فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون[

إنهم عملوا الباطل وأرادوا تكريسه ، و لكن الحق و هو سنة الله و فطرته و قانونه في الحياة هو الذي انتصر أخيرا ، فالظلام في الليل يزيله بصيص نور شمعة ، و كما ان هذه الشمعة قطعت الظلام كذلك النور في النهار ، و كذلك العدالة الاجتماعية و كذلك في المقابلسقوط الظلم و انهيار الفساد.

[119]أما قوم فرعون فلحقهم الخزي و الهزيمة.

]فغلبوا هنالك و انقلبوا صاغرين[

[120]و المفاجئة كانت حين ألقي السحرة ساجدين ، تلك كانت الاصابة في مقتل النظام الماكر.

]و القي السحرة ساجدين[

] [121]قالوا آمنا برب العالمين[

] [122]رب موسى و هارون[

فلسفة الاستبداد:

للاستبداد و الدكتاتورية فلسفة يعتمد عليها ويشيعها الطاغوت بين الناس ، هذه الفلسفة هي قاعدة

كل تشريعاتها ، و منطلق كل تصرفاتها ، و هي : المحافظة على الأمن ضد العدو الخارجي أو الداخلي ، حتى ان الطواغيت يصطنعونعادة أعداء وهميين ، أو يستزيدون عداء الشعوب فيختلقون الحروب لكي يعتمدوا عليها في ترسيخ كيانهم الباطل ، و فرعون كذلك عاد الى تلك الفلسفة الباطلة لكي يخرج من ورطته المخزية ، حيث انهار عمود من أعمدة حكمه و هو السحر ، و وقع السحرة ساجدين لله لذلك.

]قال فرعون ءامنتم به قبل أن اذن لكم[

إن فرعون إنطلق من فكرة خاطئة هي : أن ملكه و نظامه هو اساس أمن البلد ، لذلك فانكم حين آمنتم بموسى قبل ان تستصدروا الأذن مني فانكم خالفتم هذا الاساس ، لذلك قال فرعون:

]ان هذا لمكر مكرتموه في المدينة[

أو بالتعبير الشائع اليوم انها مؤامرة قمتم بها في البلد.

]لتخرجوا منها اهلها فسوف تعلمون[

[124]و عاد الى السلاح الاخير و هو الارهاب ، ذلك السلاح الذي تعتمد عليه الديكتاتورية قبل كل شيء ، بالرغم من أنها لا تصرح به ، و من أهم نتائج الصراعات الرسالية مع الديكتاتورية هو : فضح اعتمادها على الارهاب ليعرف الجميع أن الادعاءات الاخرى إن هي إلاغطاء لهذا السلاح.

]لأقطعن أيديكم و أرجلكم من خلاف[

أي تقطيع الرجل من طرف و اليد من طرف آخر.

]ثم لأصلبنكم اجمعين[

و ذلك للجمع بين النوعين من أنواع الاعدام ، الاعدام بنزف الدم من اليدو الرجل المقطوعتين من اليمين و اليسار ، و الاعدام بالصلب في جذوع النخل ، و ذلك بشد الفرد على الجذوع حتى يقضى عليه تنكيلا به ، و ليشهد موته كل الناس فيكون رادعا لهم عن الايمان بالرسالة.

] [125]قالوا إنا إلى ربنا منقلبون[

] [126]و ما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا افرغ علينا صبرا و توفنا مسلمين]و هكذا استعد السحرة التائبون لمواجهة مكر فرعون و كيده ، تضليله و إرهابه ، فمن جهة قالوا له : إن غضبك علينا ليس إلا لأننا عدنا الى حريتنا و إستقلالنا و آمنا بالحق من دون إذنك ، و من جهة ثانية تضرعوا الى الله ليرزقهم الصبر الشامل ، و الاستقامة حتى الموت ، و ذلك لمواجهة إرهاب فرعون و بذلك أتم الله حجته على سائر الملأ من قوم فرعون الذين ظلوا على جهالتهم خشية فرعون و بطشه ، حيث ان السحرة أيضا تعرضوا لمثل ذلك و لكنهم صبروا و استقاموا بالتوكل على ربهم ، و أتم الله حجته على بطانة المستكبرين عبر التاريخ انهم قادرون على التوبة الى الله إن شاؤوا ، كما فعل سحرة فرعون التائبون ، و أتم حجته على الناس ليعلموا ان إيمان المؤمنين لم يكن بدافع مصلحي أبدا.

حكمة حياة البشر تجربة إرادته

هدى من الآيات

و انتهت الجولة الاولى من المعركة بين موسى و فرعون و ملائه بانتصار الرسالة ، و استعادة موسى حريته ، و اتبعته الجماهير المستضعفة من قومه ، و جاء المستكبرون يخبرون فرعون بأن موسى و قومه يفسدون عليه الأمر ، و يهدمون نظامه الطاغوتي ، و يتمردون عليه و على نظامه السياسي و الديني ، فخطط فرعون لمرحلة جديدة من الارهاب و قال : سنقتل أبناء بني إسرائيل و نبقي على نسائهم أحياء و نستخدم القوة القهرية عليهم ، و قال موسى لقومه و هو يحثهم على مقاومة الضغوط استعينوا بالله - بالايمان به ، و بالثقة بوعده ، و بالمناهج الثورية التي وضعتها لكم القيادة الحكيمة - و أمرهم بالصبر و بين لهم أن الأرض ليست ملكا لفرعون و قومه حتى يستحيل انتزاعها منهم ، بل هي ملك لله يعطيها

من يشاء من عباده ، و العاقبة للمتقين.

أما قوم موسى فقد فرغ صبرهم و قالوا له : إننا تحملنا الأذى قبل و بعد مجيئكإلينا ، و لكن موسى طمأنهم و قال : عسى ربكم أن يهلك عدوكم و يستخلفكم في الأرض بالانتصار عليهم ، و الهدف من استخلافكم هو : اختياركم ، و امتحان عملكم بعد الانتصار.

بينات من الآيات

بعد العسر يأذن الله بالنصر :

[127]و ينصر الله سبحانه الرساليين في أوقات الأزمات الشديدة كما نصر موسى عندما أراد فرعون سحق رسالته بالسحر ، بيد أن من واجب الرساليين آنئذ ألا يدعو لحظة واحدة لا يستفيدوا منها في توعية الجماهير و تنظيمهم ، و ترسيخ دعائم الثورة ، و هدم أسس النظامالفاسد ، و ذلك استعدادا لجولة جديدة من المعركة الساخنة مع النظام الطاغوتي ، فهذا موسى (عليه السلام) بعد ان انتصر على فرعون ، و استعاد منه حريته ، جمع حوله الأنصار ، و أخذ يفسد نظام فرعون الطاغوتي من كل جهة ممكنة ، و يهدم أساس كيانه و هو الاعتماد على السلطة السياسية الطاغوتية التي يمثلها فرعون رأس النظام ذاته ، و أيضا السلطة الدينية و الثقافية الفاسدة ، التي كان يمثلها : الكهنة و الاحبار لذلك جاء كبار رجال فرعون و مستشاروه اليه يخبرونه بالأمر و يحذرونه منه.

]و قال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى و قومه ليفسدوا في الارض و يذرك و إلهتك]يبدو لي : أن مرادهم بالفساد في الارض هو هدم الانظمة التفصيلية ، و الكيانات و المؤسسات المختلفة للدولة ، بينما المراد من ترك فرعون هو ترك سلطانه السياسي ، و المراد من ترك الالهة ترك خلفية هذا النظام السياسي و الثقافي.

[128]و حين استخدم فرعون سلاحه الأخير ، و أراد تصفية المستضعفين جسديا ، أمر موسى قومه بالاستعانة بالله ، و يتساءل المرء : ما هي الاستعانة بالله ؟

و نعرف الاجابة اذا تذكرنا بأن لله الأسماء الحسنى ، و حين يؤمن العبد بربه يسعى لتجسيد ما استطاع من تلك الاسماء في ذاته ، فالعزة لله و لرسوله و للمؤمنين ، و حين يتصل العبد بالله تتجلى فيه صفة العزة الالهية ، كما تتجلى فيه صفة القدرة ، و عدم الخضوع لضغوط الشهوات ، أو الاستسلام للمتغيرات الآنية العاجلة ، و بقدر ذلك تتجلى فيه صفة الرحمة و الشدة و الحكمة و العلم و .. و..

و كلما زادت الاسماء الالهية الحسنى في المؤمن تجليا و ظهورا كلما أصبح أقدر على مواجهة المصاعب و تسخير الحياة ، و الله سبحانه خلق لعباده وسائل للتقرب اليه ، و للاتصال بينابيع قدرته و عظمته ، و الأخذ بتلك الوسائل هو الاستعانة بالله ، فكلما تمسك المؤمن بتلك الوسائل كلما أصبح اشد قدرة و أكبر عظمة ، و التقوى هي جماع تلك الوسائل ، أما تفاصيلها فهي تلك المناهج التشريعية المعروفة في الاسلام وفي سائر الرسالات.

و من أبرز تلك الوسائل هي : الولاية الالهية التي تتجلى في القيادة الرسالية النابعة من المبدأ ، حيث ان الاستعانة بالله تعني بالضرورة المزيد من التمسك بهذه القيادة ، و توحيد الجهود تحت رايتها ، لذلك فحين أمر موسى (عليه السلام) قومه بالاستعانة باللهكان يعني كل ذلك ، و لكن مع ذلك ركز موسى (عليه السلام) على صفتين أساسيتين هما : الصبر و التقوى ، الصبر لرؤية المستقبل و الاستقامة على مشاكل الحاضر ، و التقوى للالتزام بكل المناهج المفصلة التي تضمن تفجير الطاقات ، و استغلال المواهب ، و تربية الشخصيةالرسالية العاملة ، و بالتالي توفير كافة عوامل النصر في الفرد و المجتمع الرسالي من عوامل مادية أو معنوية .. من هنا:

]قال موسى لقومه استعينوا بالله و اصبروا ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده و العاقبة للمتقين]و

معرفة هذه الحقيقة وهي :أن السلطة الحاكمة ليست أبدية ، و إنما هي نتيجة عوامل و معادلات سياسية اجتماعية ، و انه لو غيرنا المعادلة و العوامل سقطت السلطة ، و جاء بديلها السلطة الأكثر قوة و كفاءة ، و هي حكومة المتقين ، معرفة هذه الحقيقة تفجر طاقات الجماهير المستضعفة و تعطيها الأمل و الصمود.

[129]و أما قوم موسى فقد طفح كيلهم ، و كاد اليأس يحيط بقلوبهم حيث:

]قالوا اوذينا من قبل ان تأتينا و من بعد ما جئتنا]و لكن حين تفقد الامة قدرة الاحتمال من شدة الضر الذي يصيبها ، و حين تتضرع الى الله و ينقطع أملها من النجاة بالوسائل الاصلاحية المتدرجة ، و تعرف أن تغييرا جذريا في شخصيتها و في علاقاتها مع بعضها ومع الطبيعة أنه الكفيل بنجاتها ، و هذا لا يمكن إلا عنطريق الايمان بالله و برسالاته ، حينذاك فقط تنزل عليها رحمة الله سبحانه لذلك ذكرهم موسى و..

]قـــال عسى ربكم ان يهلك عدوكم و يستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون]و الانتصار إنما هو بهدف الامتحان ، و على الأمة ألا تفكر في ذلك الانتصار الرخيص الذي هدفه استعلاء طائفة ، و استكبار فريق مكان فريق آخر ، بل تفكر سلفا أن الانتصار لا يحصل لفريق أو لحزب أو لطائفة بل للمبدا ، و تعمل الأمة في هذا المجال حتى تنجح باذن الله.

لذلك فان الحركات الحزبية التي همها انتصارها هي لا انتصار الأمة ، تفشل في الأكثر ، لأن الله لا ينصر أمة إلا بعد أن تتضرع إليه ، و يكون هدفها رساليا خالصا.

و هكذا نصر الله عباده بالغيب

هدى من الآيات

و هذا مشهد آخر من مشاهد الصراع بين الرسالة و الرجعية الجاهلية ، حيث أن الله أراد أن يهدي آل فرعون عن طريق كسر غرورهم ، و تذليل نفوسهم المستكبرة بالمصائب و المشكلات ، و لكنهم استكبروا و كانوا يزعمون أن الخير والرفاه هو الأصل في حياتهم و هو منهم ، وأما الشر والمصائب فهي من نحس موسى (حاشاه) و لم يكونوا يشعرون بأن كل خير أو شر إنما هو من عند الله ينزله بسبب أعمال العباد.

و حين لم تنفع هذه الوسيلة في هدايتهم ، بل صرحوا بأن الآيات هذه (سواء العصى و اليد البيضاء أو المصائب و المشكلات كالجدب و نقص الثمرات) لا تجديهم نفعا ، و أنهم لن يؤمنوا بالرسالة مهما كان ، آنئذ أخذهم بالعذاب.

و لقد أرسل الله عليهم الطوفان ، و انتشر فيهم الجراد و القمل و الضفادع و الدم بأمر منه سبحانه و كانت هذه الآيات مفصلة و واضحة ، لكنهم استكبروا عنها وكانوا قوما مجرمين ، فاذا كانوا فاسدين فكريا و عمليا.

إنهم كانوا يتوسلون بموسى كلما يقع عليهم الرجز ، و يصيبهم العذاب ، و يتعهدون له بالايمان لو كشف الله عنهم الرجز ، و لكنهم كانوا ينكثون كلما كشف الله عنهم العذاب لأجل محدد.

و كانت تلك المصاعب و المصائب تستهدف هدايتهم ، و لكن حيث كفروا و استكبروا حان وقت الانتقام و العذاب ، فأغرقهم الله في البحر بسبب تكذيبـم و غفلتهـم عن آيات الله ، و عواقب التكذيب بها.

بينات من الآيات

الغرور سبب الكفر:

[130]سبب كفر الانسان و تكذيبه بآيات الله هو استكباره و غروره ، و كلما كانت حضارة الانسان و مدنيته و غناه أكثر كلما كان غروره أكبر.

و لكي يكسر الله غرور البشر ، فيرتفع عنهم هذا الحجاب الكثيف فيرون الحقيقة ، فانه يبعث اليهم رسولا ينذرهم و يحذرهم ، ويعمل بكل طاقته في سبيل إثارة فطرتهم ، و تنوير قلوبهم ، و إيقاظهم من السبات ، و لكن إذا ظل أولئك كافرين و مستكبرين عن الحقيقة فهنايتخذ ربنا سبيلا اخر لهدايتهم هو : إبتلاؤهم في أموالهم أو في نفوسهم ببعض البلاء العام ، فاذا لم ينتفعوا بها أيضا أخذهم الله بالعذاب الشديد ، لذلك أخبر الله عن آل فرعون و قال:

]و لقد أخذنا آل فرعون بالسنين[

أي بالقحط و الجدب ، و كانوا قبل ذلك مغرورين بالأنهار التي تجري من تحتهم ، و بالنيل الذي فجر الله به خيرات الأرض لهم.

]و نقص من الثمرات[

كان المطر يملأ مراعيهم خضرة ، و يملأ نيلهم ماء فيسقي البساتين فتزداد الثمرات ، و لكن حين قل المطر أصبحت الصحاري جفافا و البساتين يابسة.

]لعلهم يذكرون[

فيعرفون أن هذه المدنية ليست من ذاتهم بل من الله سبحانه.

[131]البشر قد يغفل و قد ينام و قد يغمى عليه ، و لكنه بالمعالجة يتذكر و يستيقظ و يحس ، أما الذي فسدت رؤيته و انحرفت ثقافته فانه لا تنفع معه المعالجة ، فمثلا : البشر العادي حين تراه قد استغنى و لا يحتاج الى أحد يستبد به الغرور و الاستكبار ، و لكن إذا فقد سبب غروره و افتقر عادت نفسه الى حالته الأولية و تقبل الهداية.

أما البشر المعقد الذي تحضر و استبدت به ثقافة خاطئة ، و فقد فطرته الأولية ، فان تلك الثقافة تبقى معه حتى بعد رحيل النعم عنه ، و عودته الى الحالة الطبيعية ، فلا يزال مغرورا بذاته و بمنجزات آبائه و بمكاسبهم ، لذلك لا يصدق نفسه حتى أن نـــزل عليه البلاء ، بل ويزعم ان هذا البلاء انما سببه بعض الطوارئ الخارجة عن ارادته ، و انه إستثناء إذ يزعم أن الحضارة جزء من ذاته ، و معلولة عن عنصره و عن بلده و عن أفكاره ، لذك ترى قوم فرعون ينسبون الحسنة الى أنفسهم و السيئة الى موسى (عليه السلام. (

]فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه و ان تصبهم سيئة يطيروا بموسى و من معه]يقولون ان السيئة انما هي بسبب موسى ، كما تنسب الأنظمة الفاسدة اليوم المشاكل كلها الى الحركات الثورية ، حيث تزعم انها - دون فساد أنظمتهم -سبب التخلف الاقتصادي و التبعية و الارهاب وما أشبه.

]الا إنما طائرهم عند الله و لكن أكثرهم لا يعلمون [المشاكل ليست بسبب هذه الحركة أو تلك الفكرة ، و إنما بسب النظام ذاته و بسبب فساد الاعمال ، و الله هو الذي يقدر الخير و الشر ، و الحسنة و السيئة حسب قوانين دقيقة و ثابتة عند الله سبحانه ، يجريها ربنا بحكمته البالغة و بعلمه النافذ ، و معرفة هذه الحقيقة تعطي البشر قدرة على التحكم في الحياة.

التطرف في الكفر:

[132]و بلغ الكفر و الجحود بآل فرعون حدا بنوا بينهم و بين الحقيقة سدا منيعا من الجحود ، و تشبثوا بسلسلة من الأفكار المخدرة التي تفسر كل آيات الحقيقة و معالمها ببعض التفسيرات الباطلة.

]و قالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين]فموسى (عليه السلام) لا يزال

عندهم ذلك الساحر العليم الذي يعـــرف كل وسائل السحر ، و هدفه ليس هداية البشر بل تسخير الناس لأهدافه الخاصة ، لذلك فهم مصرون على الكفر به ، و بآياته أنى كانت واضحة.

و هذه المرحلة السحيقة من الكفر هي أخطر دركات السقوط ، حيث يصنع الفرد لنفسه تابوتا من المسلمات الفكرية و يصمم على الاحتفاظ بها أنى كان الثمن ، إنه عين الضلالة و قمة التعصب الأحمق.

على الانسان أن يبقى أبدا مفتوح العين ، يقظ الضمير ، نابه الروح ، و لا يقتل وجدانه تحت مطرقة شهواته ، و لا يعمي عينه بمسامير بغضه و حقده ، ولا يميت ضميرهبحب أو بغض.

إن كثيرا منا يزعم انه اذا فتح عينه مرة واحدة ، و اتخذ طريقا لنفسه يستطيع أن يبقى على ذات الطريق الى الابد ، و يستغني عن عينه ، ولكن كلا .. إن عقل الفرد يتكامل ، و روحه تكبر حتى تتسع لمزيد من الحقائق ، و فكره ينمو ، و العالم يتغير ، و آيات الحقيقةترى .. و لذلك فعلى الانسان أن يبقى أبدا على يقظة و انتباه ، و يستغل كلما لديه من وسائل اكتشاف الحقيقة من عقل و ضمير.

[133]و لأن آل فرعون افقدوا أنفسهم نعمة البصيرة ، و اختاروا التفسير الخاطئ لكل الحوادث ، فان الآيات المختلفة التي توالت عليهم لم تزدهم إلا رسوخا في الكفر ، و توغلا في الجحود ، لذلك أرسل الله عليهم الطوفان ففاضت أوديتهم حتى دخل الماء بيوتهم ، فنصبوا الخيام في الصحراء ، ثم ارسل الله عليهم الجراد فأكلت محاصيلهم الزراعية ، و انتشر فيهم القمل ، و الحشرات ، و الضفادع التي توالدت بسرعة في برك الماء المكونة من الفيضانات ، و ابتلوا بالدم ربما بسبب الرعاف أو بعض الأمراض الآتية بسبب بعض الجراثيم (كما قال بعض المفسرين) و لكن كل ذلك لم ينفعهم علما و هدى.

]فارسلنا عليهم الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم آيات مفصلات فاستكبروا]و تعالوا عن الحقيقة ، و زعموا أن ذواتهم هي أعلى من الحقيقة ، و أرادوا تغيير قوانين الكون حسب أهوائهم ، لا تزكية ذواتهم حسب أنظمة الكون.

]و كانوا قوما مجرمين[

حيث انهم ظلموا أنفسهم باستكبارهم عن الحقيقة ، إن تقدم البشر في أي حقلمن حقول الحياة انما هو رهن بمعرفة أنظمة الكون ، و استغلال هذه المعرفة من أجل تسخير الحياة ، و تبدأ مسيرة القهقرى حين يستهين بهذه الأنظمة ، و يتعالى عنها فيظلم نفسه بذلك.

كذب و إستكبار:

[134]و لقد أتم الله حجته على آل فرعون بتلك المصائب التي توالت عليهم ، إذ ان البلاء يكشف الحجب الكثيفة التي يجعلها الفرد على عينيه مثل : التعصب ، و الحقد ، و الحب المفرط ، و لكن إذا انكشف البلاء عادت الحجب ، و عادت مشكلة الجحود.

]و لما وقع عليهم الرجز[

وهو العذاب الآتي بسبب الانحراف ، و الشذوذ في الطبيعة أو في السلوك.

]قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك[

إن نظرتهم المادية الضيقة لم تزل لاصقة بأذهانهم ، إذ انهم لا يزالون يزعمون أن الهدف من بعثة موسى هو الانتفاع من وجوده في كشف الضر عنهم ، و لم يفقهوا دور المعنويات في حياة البشر ، و أن رسالات الله تنفع البشر في رفع معنوياتهم ، و وضع برامج صائبة لهم، وليس فقط في دفع البلاء الذي يصيبهم بسوء أعمالهم ، أما آل فرعون فقد كانت نظرتهم الى الدين و الى حاملي رسالته كنظرة كثير منا حيث نريد الدين لمصالحنا الذاتية لذلك قالوا:

]لئن كشفت عنا الرجز[

و الرجز يكشفه الله بالتوبة و العمل الصالح ، و لكنهم نسبوا الأمر الى موسى (عليه السلام) لقصر نظرهم.

]لنؤمنن لك و لنرسلن معك بني اسرائيل[

[135]و لكن هل كانوا يصدقون ؟ كلا..

]فلما كشفنا عنهم الرجز الى اجل هم بالغوه اذا هم ينكثون]عهدهم و يعودون الى سابق كفرهم و جحودهم ، وعند ذاك تكتمل حجة الله عليهم ، إذ لا يمكنهم في يوم الانتقام التعلل بأنهم إنما كفروا غفلة أو جهلا ، فقد عرفوا الحقيقة و لجؤوا إليها ، و تعهدوا بالوفاء لها عندما احاط بهم البلاء ، و الآن ينقضون العهد ، و هذهالتجربة يمر بها كل فرد و كل مجتمع ، حيث أن الله سبحانه يأخذ البشر بالبأساء و الضراء لكي يرفع عن أنفسهم حجب الغفلة و النسيان ، و لكي يحتج عليهم لو عادوا الى الكفر بعد الايمان في أوقات العسرة.

سوء المصير:

[136]و حان ميعاد الانتقام ، و اغرق الله آل فرعون في البحر بسبب تكذيبهم بآيات الله ، و بالتالي بالحقائق التي وراءها ، و بسبب غفلتهم عنها و عن دورها في سعادتهم و خلافتهم.

]فانتقمنا منهم فاغرقناهم في اليم بانهم كذبوا بآياتنا و كانوا عنها غافلين][١٣٧] و كما انتقم الله من آل فرعون لتكذيبهم بآيات الله ، أنعم الله على بني إسرائيل لتصديقهم بها ، و أورثهم الأرض المباركة ذات الخيرات الوفيرة.

]و اورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون[

و يقهرون من قبل فرعون و قومه ، و هم بنو إسرائيل ، أورثهم الله.

]مشارق الارض و مغاربها التي باركنا فيها و تمت كلمت ربك الحسنى علىبني إسرائيل[

كل ذلك بسبب تصديقهم بالحقيقة تصديقا نظريا و عمليا ، والشاهد على تصديق بني إسرائيل بالحقيقة هو صبرهم و استقامتهم.

]بما صبروا و دمرنا ما كان يصنع فرعون و قومه[

من زخرف ، و صور ، و أسلحة ، و أدوات ، و أمتعة .. و .. و..

]و ما كانوا يعرشون[

من بنايات فخمة ، و حدائق ، و حقول ، و تماثيل ، و بالتالي دمر الله أموالهم المنقولة و غير المنقولة بسبب كفرهم ، و هكذا ينتقم الله للحقيقة.

بنو إسرائيل و الردة الجاهلية

هدى من الآيات

أفضل ساعات البشر و خير أيامه إيمانا و هدى هي ساعة عسرته ، و يوم بؤسه ، لانه لا يستكبر هنالك على الحقيقة ، و لا يغتر بما لديه من قوة و منعة ، و كذلك أفضل مراحل الأمة هي مراحل الثورة حيث تتعرض للضغوط و تتحدى الصعاب.

و بنو إسرائيل حين تعرضهم للاستضعاف من قبل آل فرعون و قومه استقاموا على الطريقة و صبروا ، و لكن بعد أن أنجاهم الله ، و أورثهم الأرض دفعهم ضعفهم السابق و ذلتهم الى محاولة تقليد الآخرين في عبادة الأصنام و في مظاهر الدنيا ، فحين أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، طلبوا من موسى (عليه السلام) أن يجعل لهم صنما كما لأولئك القوم ، فذكرهم موسى بأنه لا مستقبل لعبدة الأصنام ، و أن عملهم باطل ، و انه كيف يبحث لهم عن إله غير الله وهو فضلهم على العالمين ، بما أنعم عليهم من التوحيد و النصر ، ثم ذكرهم أيامهم السابقة ، حيث كانوا يتعرضون لأنواع العذاب على يد فرعون ، و منها تقتيل أبنائهم ، و إستحياء نسائهم ، و أن ذلككان بلاء عظيما ، و تزكية لنفوسهم ، و حين أنجاهم الله يعودون للكفر.

و يمكننا أن نستلهم من هذه القصة كيف أن الأمم تفسد بعد الاصلاح ، و كيف أن التوجيه ينفعها ، و أن السقوط ليس سنة حتمية.

بينات من الآيات

الكفر بعد الايمان:

[138]هيأ الله أسباب النجاة لبني إسرائيل ، تلك الأمة الفتية التي تستعد الآن لبناء حضارتها بعد تخلصها من سلطة الطاغوت ، فتركوا أرض مصر باتجاه فلسطين بعد أن هيأ الله لهم أسباب العبور على البحر ، و قبل أن تجف أقدامهم من آثار العبور اصيبوا بنكسة إيمانية ، حيث مروا على قوم يعبدون أصناما لهم فطالبوا موسى (عليه السلام) و هو رسولهم و قائد مسيرتهم باتخاذ إله لهم كما لأولئك القوم.

]و جاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة]إن بني إسرائيل كانوا يعيشون تحت سيطرة الطاغوت سياسيا و ثقافيا ، و كانت علاقاتهم الاقتصادية ببعضهم منسوجة حسب تلك السيطرة ، وقام موسى (عليه السلام) و المؤمنون من أصحابه بتفجير ثلاث ثورات متتالية لانقاذ قومه من السيطرة - السياسية ، فالثقافية ، فالاقتصادية - (و قد سبق الحديث عن ذلك في تفسير سورة البقرة) و يبدو أن هذه المرحلة هي مرحلة الثقافة التي تحمل أيضا في طياتها تصفيــة آثار السيطرة السياسية أيضا.

إن قوم موسى عاشوا ردحا طويلا من الزمن و هم يعانون الذل و الخضوع و الاستسلام للآخرين ، و كانت السياسة الطاغوتية لفرعون هي التي فرضت عليهمهذه الحالة ، و لكنهم على أي حال تأثروا بها نفسيا ، فحين أنقذهم الله غيبيا بقيت آثار تلك السيطرة عالقة بنفوسهم ، و لم يقدروا على ممارسة حريتهم و الحضور في ساحـــات الحياة ، و اتخاذ القرارات المناسبة فيها اعتمادا على أنفسهم ، لذلك حنوا الى حالتهم السابقة فطالبوا موسى باله - كما لهم آلهة - و الاله هو السلطان الاجتماعي و السياسي و الثقافي ، و رمز هذا الاله هو الصنم ، و بنو إسرائيل في هذه الصفة كانوا تماما مثل الشعوب التي تتحرر من الاستعمار السياسي ، و لكنها تقلد الغرب و الشرق في أنظمتها و ثقافتها ،و كأنها تخرج من الاستعمار القسري و تعود الى الاستعمار اختياريا ، و ذلك لاستمرار قابلية الاستعمار في أنفسهم.

أما موسى (عليه السلام (فقد شرح لقومه أولا العامل الداخلي لهذا الطلب و هو الجهل و قلة الوعي.

]قال إنكم قوم تجهلون[

[139]و بين لهم ثانيا : ان وضع هؤلاء هالك و لا دوام له ولا إستمرار ، إذ أن الوضع الفاسد لا يملك رصيدا واقعيا ، كشجرة مجتثة من فوق الأرض ، ظاهرها شجرة ، و واقعها حطبة.

و بين ثالثا : أن العمل الذي يقوم به الانسان في اطار النظام الفاسد هو عمل باطل ، و ينتهي الى الدمار حتى و لو كان ظاهر العمل حسنا ، مثلا : ظاهر البناء أنه عمل جيد ، ولكن إذا كان المهندسون و البناؤون و مصانع الحديد و معامل الاسمنت كلها تعمل من أجل بناء معتقل أو قاعدة صاروخية تقذف المستضعفين فان هذا العمل تخريب و ليس بناء ، كذلك كل عمل لا يكون ضمن إطار صالح أو هدف

مقدس فانه باطل و ينتهي ، لذلك قال موسى (عليه السلام) لقومه:

]إن هؤلاء متبر ما هم فيه و باطل ما كانوا يعملون]العبودية لله = تحرر الانسان:

[140]ثم بعد أن وضح فساد الوضع الذي يدعون اليه ، شرح لهم موسى بأن الرب الذي أنقذهم من سلطان فرعون ، و حررهم من الطاغوت خير لهم مما يدعون اليه.

]قال اغير الله ابغيكم إلها و هو فضلكم على العالمين]إن الله فضلهم بالحرية و العلم ، و أن يقودوا أنفسهم بعيد عن ضغوط الطاغوت ، و هم يريدون العودة الى العبودية.

إن البشر حين ينفي ألوهية أي شيء أو أي شخص من دون الله سبحانه فسوف يكون محررا ، مسلطا على نفسه بقدر ما يأذن الله له.

[141]و الله سبحانه هو الذي أنجاهم من آل فرعون و بطشهم و قهرهم بالتوحيد ، و إن فكرة التوحيد التي أنقذتهم من تلك الورطة ، أولى بالاتباع من تلك الثقافات الجاهلية التي سهلت استعبادهم و استغلالهم.

]و إذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب]أي يحملونكم الارهاب و العذاب.

]يقتلون أبناءكم و يستحيون نساءكم و في ذلكم بلاء من ربكم عظيم]و هل هناك نعمة أفضل من التحرر من إرهاب الطاغوت و سيطرته ، و كم يكون البشر غبيا لو أراد العودة الى العبودية بعد الحرية ، و التعاسة و البؤس بعد الرفاه و الراحة.

إن استمرار حالة الثورة التي رافقت نجاة الأمة من الطاغوت هو أفضل وسيلة للخلاص من عوامل الانتكاس في الثورة ، وهذا ممكن مع تذكر أيام الطاغوت و كيف تغيرت.

تنمية روح الايمان بالله

هدى من الآيات

و واعد الله موسى ثلاثين ليلة لميقاته ، و ذهب موسى الى الميقات بعد أن وصى أخاه هارون تلك الوصايا المؤكدة ، التي كان الرسل (عليهم السلام) يوصون بها قومهم باتباع سبيل الاصلاح ، و ترك سبل المفسدين ، و جاء موسى لميقات ربه و هو يحمل رجاء قومه بالنظر الى الله ، فلما كشف لربه عن هذا الطلب الغريب النابع عن جهل الناس بالله و بصفاته الحسنى ، أمره ربه بالنظر الى الجبل فان استقر مكانه فقد يكون لكلامه وجه ، و لكن الجبل تدكدك و خر موسى صعقا ، و أغمي عليه من هول المنظر ، و لما أفاق قال سبحانك أنت منزه عن هذا الطلب و أنا اول المؤمنين بك ، و ربما كانت تلك هي البداية الظاهرة للثورة الثقافية التي يقوم به الرسل بعد و قبل السيطرة على السلطة ، حيث أن الله سبحانه أوحى الى موسى (عليه السلام) برسالاته ، و أنه كلمه من دون الناس تكليما ، و أن عليه أن يأخذها بقوة، و أن يمتلأ قلبه رضا بها و شكرا ، حتى يدافع عنها بكل قوة.

و كتب الله لموسى في تلك الألواح التي أنزلها ما ينفع الناس من كل شيء ، و في كل حقل ، و ذلك بهدف تزكية الناس ، و بيان تشريع مفصل لهم ، و أمره بالدفاع عن هذه الرسالة ، و أن يبلغها قومه حسب الظروف المختلفة ، ففي كل ظرف يعملون بأحسن ما في الرسالة ، و أكثرها تطبيقا على ذلك الظرف ، و حذره من الفسق و عدم تطبيق بنود الرسالة ، و قال له سأريكم دار الفاسقين.

بينات من الآيات

حكمة الغيبة:

[142]مع انتصار بني إسرائيل تلك الفئة المستضعفة التي آمنت بموسى و برسالته الاجتماعية ، ازداد تعلق الجماهير بقائدهم موسى (عليه السلام) تعلقا شخصيا ، و كان من الضروري تحول هذه العلاقة من شخص موسى (عليه السلام (الى رسالته و قيمه ليستمر خطه من بعده و ربما لذلك غاب موسى (عليــه السلام) بأمر من ربه عن قومه أربعين ليلة ، و كانت غنية - كما سيأتي في الدرس القادم - بأمتحان عسير لقومه ، كشف ما بهم من نقاط ضعف ثقافية و اجتماعية ، و أعطى لموسى (عليه السلام) فرصة كافية لتربيتهم وهدايتهم.

]و واعدنا موسى ثلاثين ليلة و اتممناها بعشر[

وسيأتي في الدروس القادمة حكمة إتمام الثلاثين بعشر.

]فتم ميقات ربه أربعين ليلة [

أما وصية موسى (عليه السلام (لخليفته و أخيه هارون فكانت هي ضرورة المحافظة على الاصلاح.

]و قال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي و أصلح و لا تتبع سبيلالمفسدين[

لقد سبق الحديث عن أن الأمم في بداية انطلاقها تهتم بالبناء و الانتاج و الاصـــلاح ، أما بعدئذ فانها تقوم بالاستهلاك و الهدم و الفساد ، و عندها كان الرسل (عليهم السلام) يحذرون الناس من الفساد ، فأوصى موسى أخاه بهذه الوصية عندما تخلص بنو إسرائيلمن الطاغوت ، و خف عندهم شعورهم الثوري السابق.

و يتبين من الآية كما من سائر الآيات : أن قوم قوم موسى (عليه الســلام) كانوا فريقين ، مصلحين و مفسدين ، و كانت تجربة غياب قائدهم و منقذهم كافية لفرز هذين الفريقين ، و بالتالي تزكية المجتمع عن طريق تصفية فريق المفسدين.

من أين تبدأ الثورة الثقافية ؟

[143]لا يزال بنو إسرائيل تلك الطائفة التي عاشت فترة طويلة في ظل الطاغوت ، و تعرضت لعمليات غسل الدماغ من قبل السلطة الظالمة ، لا تزال هذه الطائفة تحمل رواسب الماضي بعد تحررها ، و لابد من تفجير ثورة ثقافية فيها ، و لكن من أين تبدا هذه الثورة ؟

الثورة تبدأ من إصلاح جذر مشكلة الثقافة عند البشر ، حيث أن الانسان يحن نحو الماديات الظاهرة ، و ينسى المعنويات ، و يغفل عن الغيب ، يغفل عن غيب القيم ، و عن قدرة الله و حكمته و رحمته ، ، يغفل عن المستقبل و ما فيه من امكانيات ، و يلتجئ الى الظواهر فيالحاضر ، الى ما يشاهده من قوة السلطة الجبارة ، و ما يراه من امكاناته الحالية ، فيخضع لها ، و يستسلم لاتجاهها.

و رسالات السماء توجه الناس الى الله ، الى غيب الغيوب ، الى ملهم القيم و مالك المستقبل ، الى مبعث الأمل المشرق ، و إذا تعلق الانسان بالله (الغيب (فانهيتخلص من كل رواسب الثقافة المادية ، لذلك بدأ الله في إصلاح قوم موسى)عليه السلام) إنطـلاقا من هذه النقطة ، حيث كان قوم موسى يلحون عليه بأن يريهم ربهم و مــرة قالوا له : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، و مرة صنعوا لانفسهم عجلا و زعموا انه هو إله موسى و هكذا ، لذلك راح موسى يدعو الله أن يريه نفسه و هو يعلم ان الله لا يرى.

]و لما جاء موسى لميقاتنا و كلمه ربه قال رب أرني أنظر أليك قال لن تراني و لكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا]هدف المعجزة:

هناك فكرة تقول : بأن كثيرا من طلبات الرسل ، بل و كثيرا من أوامر الله لهم ، تهدف تبليغ الرسالة بطريقة صارخة ، حين أمر الله نبيه إبراهيم (عليه السلام) بذبح إبنه كانت الحكمة من وراء ذلك نسخ

عادة جاهلية معروفة آنئذ و هي ذبح الأبناء لله أو للأصنام ،و لكن حين أمر إبراهيم بذبح ابنه و لم تعمل السكين ، كانت تلك المعجزة أبلغ أمرا في النفوس ، و أقدر على نسخ هذه العادة من الموعظة الكلامية ، و كذلك حين طلب موسى (عليه السلام) من ربه بأن ينظر اليه ، كانت دعوته هذه بهدف صنع واقعة عينية تذهب مثلا في الآفاق، و تتناقلها الألسن ، حتى تنتزع من النفوس جذور المادية ، و لذلك طلب موسى (عليه السلام) المستحيل و هو رؤية ربه و تجلى الله للجبل و جعله دكا متهاويا على نفسه ، و وقع موسى مغشيا عليه.

]فلما افاق قال سبحانك تبت إليك و أنا أول المؤمنين]و يبقى السؤال : ما هي مناسبة اندكاك الجبل مع استحالة النظر الى الله ؟

و الجواب : أن قدرة الانسان محدودة بشكل انه لا يتحمل رؤية جبل يندك ، و هوأهون شيء في ميزان قدرات الله سبحانه التي لا تحد فكيف يرى الله ؟ و ينظر اليه ؟ و هو مبعث القدرة و الحكمة و الرحمة و العظمة و .. و .. و بالتالي الاسماء التي لا تعد و لا تحصى ، فكيف يراه البشر المحدود . الذي يتناهى في ضعفه و محدوديته ؟ (سبحان الله) ؟!

[144]و حين ترسو قاعدة التوحيد الراسخة على أساس الايمان بالغيب ، فان بناء الثقافة الأصيلة و التشريع السليم سيكون قويا و رفيعا ، لذلك فان ربنا أوحى الى موسى (عليه السلام) برسالاته التي تمثل الثقافة و التشريع.

]قال يا موسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتي و بكلامي]و عبر الرسالة اصطفى الله القيادة السليمة المبدئية التي تجسد الولاية الالهية في الأرض ، و ميز هذه القيادة بكلامه سبحانه المباشر لها ، و لكنه أمر موسى (عليه السلام) في المقابل بحراسة رسالاته ، و العمل بها ، و الشهادة لها ، و أيضا الاطمئنان اليها و الرضا بها ، و الاحساس بانها نعمة كبيرة يجب ألا يفرط بها أبدا.

]فخذ ما اتيتك و كن من الشاكرين[

محتوى رسالات الله:

[145]ماذا كان في رسالات الله و كتبه ؟

كان فيها أولا : رسالة متكاملة بالنسبة الى كافة شؤون الحياة في الثقافة و السياسة و الاقتصاد و .. و ..

]و كتبنا له في الالواح من كل شيء موعظة و تفصيلا لكل شيء]ثانيا : كان في الكتب موعظة لتزكية نفوس البشر ، و اثارة عقولهم ، و استجلاءفطرتهم.

ثالثا : كان فيها تشريع مفصل للحياة ، و لتلك السبل التي يهتدي اليها العقل و الفطرة.

]فخذها بقوة[

أي اتبعها و أنت قوي الارادة ، لتتحدى الضغوط التي تترى عليك من اتباع هذه الرسالة من لدن ذاتك و شهواتك ، أو من جانب المجتمع المحيط بك.

إن أهم ميزة في القيادة هي : الثقة بالرسالة التي تحملها ، و الاعتماد عليها ، مما يستقطب ثقة الجماهير بها و بالرسالة.

أما الجماهير فان اتباعها لتلك المناهج لا يكون إتباعا أعمى ، بل سوف يكون إتباعا واعيا بعد دراسة الظروف المحيطة بها ، ليعرفوا أي منهج هو الأقوم في هذا الظـــرف أو ذاك ، و كذلك بعد دراسة الحكم

ذاته و هل جاء دائما أو خاصا بظرف معين ؟

]و امر قومك يأخذوا بأحسنها [

إن تقييم الأحسن من الحسن إنما هو وظيفة الأمة ، و من هنا يدخل الوعي و العقل في الساحة.

]سأوريكم دار الفاسقين[

الذين لا يتبعون الاحكام الشرعية كلها ، فان دارهم ستكون مهدمة على رؤوسهم ، و تلك عبرة كافية لكم بألا تعصوا ربكم في مناهجه.

كيف يضل المتكبر ؟

هدى من الآيات

انها آيات الله الكريمة التي اوحى بها الى موسى (عليه السلام) ، إنها كانت وسيلة لاختيار الله موسى (عليه السلام) قائدا و إماما لقومه ، بيد أن الله حذر قوم موسى من التهاون في الأخذ بدساتير الله، و حذرهم بأن ذلك سيهدم دار الفاسقين الذين يعصون أوامرالله ، و بين في هاتين الآيتين ان الفسق قد يكون شخصيا فيهدم دار الفاسق ، و قد يكون إجتماعيا فانه سوف يسبب في الهلاك و حبط الأعمال ، و الفسق الاجتماعي يتمثل في هدف المجتمع ككل ، إذا كان هدفا باطلا نابعا من التكبر بغير حق ، و محاولة السيطرة على الآخرين، إذ ان ذلك سوف يسبب في الكفر بالآيات ، و قلب المقاييس الفطرية ، حتى يصبح الرشد غيا عندهم ، و الغي رشدا ، كل ذلك بسبب التكذيب بآيات الله و الغفلة عنها.

هــذا من الناحية الفطرية ، أما من الناحية العملية فان أعمال هؤلاء تحبط و لا تنفع شيئا ، لأنها تسير في الاتجاه الباطل ، حتى و لو كان العمل صحيحا من الناحيةالجزئية ، إلا أنه بسبب الأعمال الخاطئة و الفاسدة ، فان تلك الاعمال سوف تغطي على حسنات هذا العمل الجزئي ، كما أنه لو كانت مجمل أعمال الفرد أو المجتمع صحيحة فان هفواته الجزئية تغفر له ، لأن الحسنات يذهبن السيئات. **كيف يضل المتكبر ؟**

هدى من الآيات

انها آيات الله الكريمة التي اوحى بها الى موسى (عليه السلام) ، إنها كانت وسيلة لاختيار الله موسى (عليه السلام) قائدا و إماما لقومه ، بيد أن الله حذر قوم موسى من التهاون في الأخذ بدساتير الله، و حذرهم بأن ذلك سيهدم دار الفاسقين الذين يعصون أوامرالله ، و بين في هاتين الآيتين ان الفسق قد يكون شخصيا فيهدم دار الفاسق ، و قد يكون إجتماعيا فانه سوف يسبب في الهلاك و حبط الأعمال ، و الفسق الاجتماعي يتمثل في هدف المجتمع ككل ، إذا كان هدفا باطلا نابعا من التكبر بغير حق ، و محاولة السيطرة على الآخرين، إذ ان ذلك سوف يسبب في الكفر بالآيات ، و قلب المقاييس الفطرية ، حتى يصبح الرشد غيا عندهم ، و الغي رشدا ، كل ذلك بسبب التكذيب بآيات الله و الغفلة عنها.

هــذا من الناحية الفطرية ، أما من الناحية العملية فان أعمال هؤلاء تحبط و لا تنفع شيئا ، لأنها تسير في الاتجاه الباطل ، حتى و لو كان العمل صحيحا من الناحيةالجزئية ، إلا أنه بسبب الأعمال الخاطئة و الفاسدة ، فان تلك الاعمال سوف تغطي على حسنات هذا العمل الجزئي ، كما أنه لو كانت مجمل أعمال الفرد أو المجتمع صحيحة فان هفواته الجزئية تغفر له ، لأن الحسنات يذهبن السيئات.

بينات من الآيات

طريق الانحدار:

[146]كما السيارة إذا وضعت في طريق منحرف تعمل كل أجزائها في ذلك المسير و بصورة منحرفة ، حتى اذا كانت سليمة بحد ذاتها و غير معطبة ، كذلك المجتمع اذا توجه نحو تطلعات خاطئة ، فان كل أعضائه تعمل في ذلك الطريق و بصورة خاطئة.

التطلع السليم للمجتمع هو بناء ذاته ، و التعاون على الخير مع سائر المجتمعات ، أما اذا تكبر في الأرض

، و تطلع نحو استعباد الآخرين و استثمار طاقاتهم ، فانه ليس فقط ينحرف في هذه الجهة ، و فيما يخص علاقاته بالآخرين فحسب ، بل سوف ينحرف بكل أبعاده حتى فيما يتصل بعلاقاته الداخلية ، ذلك لأن الله لم يجعل في جوف الناس قلبين ، إنما هو قلب واحد فاذا كان متكبرا باحثا عن المجد الذاتي ، متخذا نفسه و ليــس الحق محورا و معيارا ، فان كل تصرفانه ستكون مصبوغة بصبغة التكبر.

لذلك لا يكون الفرد مؤمنا و عاملا بآيات الله و رسالاته اذا تطلع نحو استعباد الآخرين ، و تكبر في الأرض بغير الحق ، و أراد أن يتعالى بما لا يحق له.

]سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق]يبدو لي : أن كلمة الآيات هنا تعني الآيات التشريعية حسب السياق ، حيث كان الحديث في الآية السابقة حول رسالات الله و كلامه.

]و أن يروا كل آية لا يؤمنوا بها[

و الآية هنا - حسبما يبدو لي - تعني الآية التكوينية مثل المعاجز ، و عبر التاريخ ، و التطورات التي تبين الحقائق و هكذا الان القلب المتكبر لا يبحث عن الحقيقة ، بل عما يخدم ذاته ، و يشبع غروره ، و لذلك فهو لا يلتفت الى الحقائق و لا يهتم أو يؤمن بها حتى إذا رآها رأي العين ، و هو كذلك لا يبحث عن الطريق السديد لانه قد انحرف بوعي و إصرار.

]وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا و ان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا]إنهم منحرفون و لذلك فهم يبحثون عما هو منحرف.

]ذلك بانهم كذبوا باياتنا و كانوا عنها غافلين[

إن تكذيبهم الأول بآيات الله جعلهم ينصرفون عن الحقائق ، و يغفلون عن أهمية الآيات التشريعية ، إن البشر ينحرف أول ما ينحرف بسبب اختياره السيء ، و لكنه ينحدر بعدئذ نحو الكفر و الجحود بصورة أقرب الى اللا إختيار..

العاقبة في الحقل العملي:

[147]تلك كانت عاقبة المتكبرين الفكرية : أنهم لا يهتدون الى الحقيقة لا عن طريق رسالات الله التي يصرفون عنها ، و لا عن طريق الحقائق و العبر الواقعية ، اما عاقبة المتكبرين العملية فهي : أن أعمالهم الصالحة تحبط بسبب أعمالهم السيئة ، و التي تكون إستراتيجيتهم الأصلية دون تلك.

]و الذين كذبوا باياتنا و لقاء الاخرة حبطت اعمالهم]لان الخط العام لحياتهم خط منحرف ، لذلك فان العمل الجزئي لم ينفعهم شيئا ، بل سوف يحبط و لا يؤدي مفعوله ، و الواقع أن سبب حبط العمل ليس عدم إيمانهم فقط ، بل لأن عدم الايمان يؤدي بهم الى سلسلة من الانحرافات العملية التــي تكون هي السبب لحبط العمل ، لذلك قال ربنا سبحانه:

]هل يجزون إلا ما كانوا يعملون[

عجل السامري و رواسب الجاهلية الفرعونية

هدى من الآيات

و أبتلي قوم موسى في غيابه لمناجاة ربه بالعجل ، حيث اتخذوا عجلا مصنوعا من حليهم و ذهبهم إلها ، لقد كان جسدا له خوار و زعم السامري انه إلههم ، و لم يعرفوا أن الرب هو الذي يهدي الناس الى سبل السعادة ، و هذا العجل لا يفعل ذلك ، و هكذا ظلموا أنفسهم و حين انكشفت لهم الحقيقة ندموا و عرفوا مدى الضلالة التي وقعوا فيها قالوا : لئن لم يرحمنا ربنا و يغفر لنا لنكونن من الخاسرين ، و هذا الدعاء يكشف ان قوم موسى تجاوزوا مرحلة الصنمية بعد التوبة.

و عندما عاد موسى (عليه السلام) من مناجاة ربه غضب ، و كان آسفا كيف عبد قومه العجل و نادى فيهم ، بئسما خلفتموني من بعدي ، أهكذا ينقلب الناس بعد غياب قادتهم ، و ألقى موسى الألواح التي كانت برفقته و فيها رسالات الله ، ألقاها جانبا لأنها لا تنفع قوما تركوا الايمان الى الشرك ، و أخذ برأس أخيه هارون و هو يستفسر منه الوضع ، و يسحبه من ذلك القوم الضال ، و لكن هارون (عليه السلام)وضح له الحقيقة و هي : أن قومه استضعفوه ، و أنهم هموا بقتله ، و لذلك فهو ابقاهم حتى يعود موسى (عليه السلام) و طلب هاورن من أخيه بألا يشمت به الأعداء ، ولا يجعلهم يفرحون بمعاملة موسى لأخيه المعارض لهم ، كما طلبه بألا يفسر سكوته الظاهر بانه نابع من رضاه بالوضع ، كلا .. بل إنه كان سكوتا غاضبا بانتظار الفرج القريب.

بينات من الآيات

لماذا العجل ؟

[148]لماذا عبد بنو إسرائيل في غياب موسى الى الطور العجل ، و اتخذوه إلههم ؟

يبدو أن رواسب الجاهلية الفرعونية التي عاش بنو إسرائيل في ظلها قرونا ، و التي كانت تعبد العجل و تتخذ منه رمزا للرخاء الزراعي ، إنها كانت السبب في صناعة العجل ، إلا أن الحلي من الذهب و الفضة كانت مادة لهذه الصناعة ، لأن بني إسرائيل حين رحلوا عن أرضمصر حملوا معهم حليهم ، و كانوا يعتزون بها باعتبارها الرصيد الاقتصادي الوحيد الذي كانوا يملكونه ، فحين ظهرت رواسب الجاهلية الكامنة على السطح ، صنعوا من الحلي عجلا ، فهم في الواقع كانوا يعبدون الذهب و الفضة و الرخاء باعتبار ان شكل العجل يدل على ذلك الرخاء ، و باعتبار أن العجل صنع من الحلي.

و هكذا دلت الحادثة على ان التحول السياسي الذي حدث في بني إسرائيل لم ينعكس على ثقافتهم ، و كانوا يحتاجون الى ابتلاء ليظهر واقعهم فيعالجه المصلحون ، و ربما لذلك واعد ربنا موسى ثلاثين يوما ثم أضاف اليها عشرا حتى يكون الجو مهيئا للسامري بأن يشيع نبأ كاذبا هو : أن موسى قد مات ، و يظهر واقع السامري و ما كان ينتظره من موت موسى ليخرج بدعته ، و هكذا وقع السامري في المصيدة المنصوبة.

]و اتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار]الخوار : صوت الثور ، و ربما كان السامري قد صنع جسد العجل و هيكله بطريقة معينة بحيث كان يخور اذا دخل فيه الريح ، أو كانت القبضة التي أخذها السامري من أثر الرسول هي التي جعلت العجل يخور.

]ألم يروا أنه لا يكلمهم و لا يهديهم سبيلا[

بينما الله كان يكلم موسى تكليما ، و قد فصل له و لقومه رسالاته التي تهديهم سبل السلام.

]اتخذوه و كانوا ظالمين[

و أي ظلم أكبر من الشرك بالله و الردة بعد الايمان ، إن عجل بني إسرائيل كان مثلا للقيادة الباطلة التي كان السامري يسعى من أجلها ، لقد كان العجل يخور - كما القيادات الباطلة تنطق بما لا يهدي سبيلا ، و بما لا يوضح علما حقيقيا - و كان جسدا هيكلا و لكن بلا روح ، كذلك القيادات الباطلة لا تعطي الأمة روحا معنوية.

[149]و جاء موسى (عليه السلام) ، و انفضحت الكذبة الكبرى ، التي اعتمدتها الردة الجاهلية و هي موت موسى (عليه السلام) ، و ندم الجميع و سقط في أيديهم ، و ظهرت الحقيقة المخفية و هي : أنهم قد ضلوا ، و آنئذ تابوا الى ربهم.

]و لما سقط في ايديهم و رأوا انهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا و يغفر لنا لنكونن من الخاسرين

]يبدو لي أن رحمة الله هنا متمثلة في هداية الله التي من دونها يبقى البشر فيالضلالة.

امتحان و فرز:

[150]كانت عبادة العجل امتحانا عسيرا لقوم موسى (عليه السلام) و تصفية للعناصر الضعيفة و الخائنة في المجتمع الرسالي الذي ينبغي أن يقود المجتمعات الأخرى ، و يشهد عليها ، لذلك حين عاد موسى الى قومه كان غضبان أسفا.

]و لما رجع موسى الى قومه غضبان اسفا[

يبدو لي ان الغضب هو الرفض الشديد لشيء ما مع القيام بعمل ما من أجل تغييره و إصلاحه و تعويضه ، بينما الأسف هو : رد الفعل النفسي تجاه حادثة سابقة قد وقعت خطأ ، و موسى (عليه السلام) كان متأسفا لما وقع عليه قومه سابقا من انحراف و ضلالة ، وغاضبا عليهمالآن لما هم فيه من نقص و قلة فهم و وعي..

]قال بئسما خلفتموني من بعدي[

لقد تركت وصيي كقائد لكم و كشاهد عليكم.

]اعجلتم امر ربكم[

و أردتم الوصول اليه قبل ميعاده.

إن قوم موسى كانوا لا يزالون في مرحلة الايمان بالحضور و الشهود لا بالمستقبل و الغيب ، وهذا كان أحد العوامل لتسارعهم الى عبادة العجل باعتباره إله موسى ، كما كان السبب في طلب فريق منهم رؤية الله بأعينهم.

]و القى الالواح و أخذ برأس أخيه يجره إليه[

كان موسى يحمل معه الالواح التي فيها موعظة و هدى ، فاذا به يرى قومه قد شكوا في أصل الربوبية فلذلك ألقاها جانبا ، و أخذ يعالج هذه المشكلة ، و بدأ بسؤال أخيه و خليفته باعتباره القائد عليهم من بعده ، و لكن هارون (عليه السلام) أوضح له الحقيقة.

]قال ابن ام ان القوم استضعفوني و كادوا يقتلونني فلا تشمت بي الاعداء و لا تجعلني مع القوم الظالمين]أي لم أكن أنا بنفسي قادرا على مقاومة الردة ، لأنهم أفقدوني قومي و جعلوني ضعيفا ، و جردوني من أسلحتي ، و لذلك فقد كادوا يقتلونني لو لا أنني أمسكت عنهم بانتظار عودتك ، و افتضاح كذبهم ، لذلك فمن الخطأ أن تحملني مسؤولية عملهم أو تجعلني معهم.

[151]و هنا أدرك موسى حقيقة الأمر و..

]قال رب اغفر لي و لاخي و ادخلنا في رحمتك و انت ارحم الراحمين]و مرة اخرى أعتقد أن أبرز مظاهر رحمة الله هي هدايته للانسان ، و ان يعصمه من أن يزل في الظروف الصعبة.

عاقبة عباد العجل:

[152]و تلك عاقبة الرافضين لعبادة العجل ، أما عاقبة المستسلمين للعجل و الراضين بعبادته فانه سيلحقهم غضب من الله ، يتمثل في ألوان العذاب الآتية من حكم الطاغوت ، و انحراف المجتمع ، و من

نقص في بركات الله تلك التي تأتي من القيادة السليمة في المجتمع.

كما يصاب هؤلاء بذلة حيث أن انحراف القيادة من قيادة رسالية الى قيادةصنمية تسلب كرامة الانسان ، و تحوله الى أداة ذليلة بيد الاصنام البشرية الحاكمة.

]ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم و ذلة في الحياة الدنيا و كذلك نجزي المفترين]أي الذين يكذبون على الله إفتراء عليه ، و الذين يتخذون طريقا خاطئا و يصورونه لأنفسهم طريقا سليما سينالهم غضب من ربهم.

[153]أما اذا تاب هؤلاء الى ربهم ، و آمنوا بالله إيمانا صادقا ، و لـــم يتركـــوا سيئة الى سيئة أخرى ، مثل أن يتركوا الرأسمالية بعد معرفة تناقضها و إنحرافها الـــى الشيوعية كلا .. إنما تركوا السيئة الى الصراط المستقيم ، أولئك يرحمهم الله.

]و الذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها و امنوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم]ربما يكون معنى كلمة)بعدها) أي إنه بعد إنتهاء آثار السيئة الأولى سوف تأتي رحمة الله.

عاقبة التقوى في الدنيا و في الآخرة

هدى من الآيات

و عادت الظروف الطبيعية للأمة بعد ذلك الامتحان العسير ، و عاد الى موسى هدؤوه بعد الغضب ، فاذا به يأخذ الألواح ليقرأ فيها الهدى و الرحمة.

حيث كانت تهدي الناس الى السبل السليمة المؤدية الى رحمة الله ، و الرحمة و الهدى يشترط فيهما الرهبة و التقوى له سبحانه.

و هذه الرهبة لا تدخل قلب البشر لو لم يؤمن ايمانا صادقا بالله ، و الايمان الصادق لا يكون الا بعد معرفة الله - في الغيب الذي لا تراه الأبصار - و كان في قوم موسى نزعة مادية ، لذلك طالب ممثلوهم و هم سبعون رجلا مختارا ، طالبوا موسى برؤية الله جهرة ، فأخذتهم الرجفة الشديدة فصرعتهم ، و توسل موسى الى ربه أن يعيدهم و قال : ان هذا الطلب انما هو من السفهاء ، و ان هذا امتحان منك ، و انك رب الهداية ، و انك تضل من تشاء حين لا تريد هدايته ، و انك ولينا جميعا فاغفر لنا ما سلف من ذنوبنا ، و انت ارحم الراحمينفانزل علينا رحمتك و نعمك.

ان الهدى الذي كان في كتاب الله لموسى كان يدعو البشر الى الالتزام بالخط المستقيم بين حاجات الدنيا و تطلعات الأخرة ، لذلك دعى موسى (عليه السلام) بأن يكتب الله لهم الحياة الحسنة في الدنيا و الآخرة . و هذا لا يكون الا بالتوجه الى الله ، و ربنا الكريم بين له أن عذابه انما هو من نصيب من يشاء ، واما رحمته فهي واسعة ، و هي للذين يتقون و يزكون أنفسهم و يؤمنون بآيات الله.

بينات من الآيات

حكمة الغضب:

[154]يصور القرآن الحكيم النبي موسى (عليه السلام) عبر آياته العديدة شخصية سريعة الغضب ، مما يطرح هذا السؤال : هل كان موسى فعلا كذلك أم ان ظروفه كانت تستدعي ذلك ؟ بحيث لو وضعنا أيوب مثل الصبر و الهدوء في مكانه لكان يفعل ذلك أيضا ؟

الواقع : ان بني إسرائيل كانت امة مستضعفة اعتادت الذل و الهوان ، و كانت بالرغم من ذلك شديدة العلاقة بموسى باعتباره منقذا لها ، لذلك كانت هذه الامة بحاجة ماسة الى التدخل المباشر من قبل

موسى في شؤونها اليومية ، و التدخل المباشر لم يكن ممكنا بصورة هادئة ، انما بطريقة تثير دخائل و أعماق هذه الامة التي اعتادت الصياح و الزجر.

من هنا نعرف أن غضب موسى (عليه السلام) كان يسكت كلما كانت الظــروف العادية ترجع الى الامة ، بأعتبار ان غضبه ليس لنفسه و انما لرسالته و لله .

]و لما سكت عن موسى الغضب[

و يبدو لي أن غضب موسى لم يسكت عنه الا بعد تصفية العناصر الخائنة ، و قتلأعداد كبيرة منهم ، و قبول توبة البقية ، بعدئذ أخذ موسى عليه السلام يخطط لبناء مجتمع سليم.

]أخذ الألواح و في نسختها هدى و رحمة[

ان التخطيط للحياة الاسلامية في المجتمع انما يكون بعد ارساء قاعدة التوحيد في النفوس ، لذلك أخذ موسى (عليه السلام) يشرح ما في الألواح للجماهير بعد انتهائه من تصفية العناصر الخائنة ، و كانت الألواح تهدي الناس الى طريق رحمة الله و نعمته ، و لكن هذهالنعمة ليست الا للمتقين.

]للذين هم لربهم يرهبون[

كيف نصفي الشوائب:

[155]و لا تزال في نفوس بني إسرائيل بعض الرواسب الجاهلية ، لذلك قام موسى)عليه السلام) بعملية جديدة من أجل ترسيخ دعائم التوحيد في النفوس ، و ذلك حين اختار سبعين شخصا من قومه ليرافقوه في مناجاته بطور سيناء ، و كان هؤلاء يمثلون الشعب ، و ينقلون طلباته لله سبحانه ، فجاء هؤلاء و طلبوا رؤية الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة فقضت عليهم ، الا أن موسى (عليه السلام (دعا ربه بإعادتهم الى الحياة.

]و اختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل و اياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا]حيث طلبوا من هؤلاء السبعين رؤية الله فنقل هؤلاء طلب السفهاء الى الله ، أجل .. كانت تلك فتنة امتحن الله بها عباده ، فمن اهتدى فانما بفضل الله سبحانه ، و من ضل فانما باذن الله.

]ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء و تهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا و ارحمنا و أنت خير الغافرين]ان ربنا سبحانه يجري تحولات اجتماعية ، و تغييرات طبيعية من فقر و غنى ، و صحة و مرض ، و عزة و ذلة ، و حر و برد ، و رخاء و قحط ، كل ذلك بهدف امتحان البشر ليستخرج كلما في ذاته من قوة أو ضعف ، و قدرة أو عجز ، و لكي يصلح نفسه و يكمل نواقصه ، فمن اهتدى الى هذه الحقيقة ، و توكل على الله ، و استغفر من ذنوبه ، و سعى من اجل اصلاح ذاته ، فان الله سيرحمه و يغفر له ، انه يرحمه بتكميل نواقصه ، و يغفر له باصلاحه لها.

واجب الانسان:

[156]و الله سبحانه يكتب للناس و يقدر لهم الحسنات و السيئات حسب أعمالهم ، و مدى ايمانهم أو كفرهم ، و يبقى على الانسان أن يتطلع الى اكتساب الحياة السعيدة في الدنيا و الآخرة ، و يعمل من أجلها حتى يبلغ مناه ، ان التطلع الى الأفضل يخلق في القلب دافعاالى العمل ، و آنئذ يحتاج البشر الى الخطة المتكاملة ليتحرك عبرها نحو الهدف ، و تلك الخطة هي مناهج الله سبحانه ، لذلك قال اصحاب موسى:

]و اكتب لنا في هذه الدنيا حسنة و في الآخرة إنا هدنا إليك [ان هذا التطلع السامي الذي يمكن ضمانة تنفيذه عن طريق التوكل على الله ، و الثقة بانـــه سوف يكتب ذلك ، انه من أبرز سمات المؤمنين الصادقين ، الا أنه بحاجة الى عمل جاد ، لذلك بين الله سبحانه ذلك و[قال عذابي أصيب به من أشاء و رحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون و يؤتون الزكاة و الذين هم بآياتنا يؤمنون]ان عذاب الله مهيأ للمذنبين ، بيد أن الأصل هو رحمة الله التي وسعت كل شيء ، فتلك الرحمة هي مهوى تطلع البشر ، و معتمد ايمانه و توكله ، ومنطلق تحركه.

بيد أن رحمة الله مشروطة بما يلي:

أولا : التقوى و التعهد بالقيام بالواجبات.

ثانيا : الزكاة و هي العطاء من كلما يملكه الانسان من مال و علم و جاه ، و قد جاء في الحديث:

"زكاة الجاه بذله ، و زكاة العلم نشره "ثالثا : الايمان بكل الآيات سواء كانت في مصلحة الشخص العاجلة أو لم تكن ، و عدم تبعيض الاسلام بقبول الجانب السهل منه ، و ترك الجوانب الصعبة ، كأن يصلي الشخص و لا يزكي ، أو يحج و لا يجاهد كلا .. ان رحمة الله لا تسع قوما يجزؤون الدين و يأخذون ببعضه فقط.

و يضع عنهم إصرهم و الأغلال التي كانت عليهم
هدى من الآيات
في سياق قصة موسى (عليه السلام) يذكر القرآن الحكيم برسالة محمد (صلى الله عليه و آله) ليربط الحاضر بالماضي ، و ليعطي درسا حكيما منتزعا من حقائق تاريخية ، و ليشجع اليهود على إتباع الرسالة الجديدة ، و منهج القرآن في الاستدلال منهج فطري يستفيد من أقرب جهة الى القلب و الوجدان ، و هنا يبين أن الرسالة الجديدة تدعو الى ذات القيم التي كانت في رسالة موسى (عليه السلام) بالاضافة الى انها مكتوبة عندهم في التوراة و الانجيل ، فلماذا الكفر بها ؟!

ان هذه الرسالة - كما تلك الرسالات - تأمر بالمعروف الذي يتوافق مع فطرة البشر ، و تنهى عن المنكر ، و تحل لهم الطيبات و تحرم عليهم الخبائث ، و الهدف منها دفع ثقل الشرك و الاستعباد ، و فك أغلال المجتمع الفاسد ، و السلطة الفاسدة ، و الفلاح إنما هو من نصيب أولئك الذين آمنوا بهذا الرسول و قووا جبهته ، و نصروه و اتبعوا رسالته ، و جعلوها نورا يهتدون بها في الحياة.

و الرسالة هذه إنما هي من الله سبحانه الذي له ملك السماوات و الأرض الذي لا إله إلا هو . و هو يحي و يميت ، و على الناس اتباع هذه الرسالة التي هي ملك لهم جميعا ، و بذلك يضمنون لأنفسهم الهداية باذن الله ، و ليس قوم موسى كلهم على ضلالة ، بل إن فريقا منهميأمرون بالحق و يهدون اليه ، و يجعلونه مقياسا لتقييمهم.

بينات من الآيات

من خصائص الرسول (ص(

[157]رسالات الله تتميز بأنها للناس جميعا بعيدا عن أي تمييز قومي أو إقليمي أو عنصري أو ما اشبه ، و هي تدعو الى بناء أمة واحدة ذات رسالة سماويــة ، و رسول واحد ، و الرسول في هذه الرسالة ينتمي الى تلك الأمة التي تتمحور حول الرسالة ، و لذلك يكون من أبرز صفاته أنه أمي ، و أنه نبي يوحى إليه ، و أنه رسول يحمل لهم رسالة فيها مناهج لحياتهم.

]الذين يتبعون الرسول النبي الأمي[

و كلمة - الأمي - كما يبدو لي منتزعة من الأمة ، التي يقول عنها ربنــا في آية أخرى (و إن هذه أمتكم

أمة واحدة و أنا ربكم فاعبدون) (١) و هناك من قال بأن الكلمة منتزعة من الأم بأعتبار أن الرسول لم يكون قارئا أو كاتبا ، أو الى أم القرى.

]الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة و الانجيل]مكتوب بصفاته و أسمائه ، كما هو مكتوب بالقيم التي يدعو اليها.

]يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر[

و كل رسالة سماوية تثير دفائن العقول ، و تنطلق بصميم الفطرة ، و تنسجم معحقائق الكون التي يشهدها أكثر الناس ، و يبدو لي أن المعروف هنا هو ما يعرفه قلب البشر السليم ، و المنكر ما ينكره.

]و يحل لهم الطيبات و يحرم عليهم الخبائث[

و الطيبات و الخبائث هما أيضا مما يبينه الوحي ، و يصدقه العقل.

]و يضع عنهم إصرهم و الاغلال التي كانت عليهم[

الإصر هو : الثقل ، و البشر يعيش في ذاته ثقل المادة ، حيث يحن الى ما في الحياة من زينة ، و ينهار أمام شهوات النساء و الثروات و المناصب و يضغط عليه واقع اليوم دون حقيقة المستقبل ، و هكذا يصبح البشر ان لم يقصمه الله جزءا من الطبيعة ، يتحرك حسب عواملها و تغيراتها.

و رسالات الله تنقذ الانسان من أصله ، و ترفع عنه هذه الثقل المادي بتوجيهه الى العالم الأعلى ، عالم الروحيات ، و عالم المستقبل القريب في الدنيا ، و المستقبـل البعيد في الآخرة.

و كما ترفع الرسالة أصر البشر ترفع الاغلال الآتية من الأصر ، مثل الأغلال الاجتماعية التي يفرضها النظام السياسي ، أو الاقتصادي الحاكم على المجتمع ، و القوانين المعيقة للتقدم ، و الكبت و الديكتاتورية و الارهاب الفكري الذي يمنع تفجير النشاط ، و تفتق المواهب.

شروط الفلاح

و عاقبة هذه الرسالة الفلاح و السعادة ، و لكن بشرط أن يؤمن البشر بها ، و أن يعظمها و يوقرها ، و أن ينصرها عمليا باتباع كل مناهجها ، و أن يتخذ قيمهاو معاييرها ميزانا لتقييم أحداث الحياة ، و تفسير متغيراتها ، و معرفة الناس.

]فالذين آمنوا به[

إيمانا واقعيا بأن سلموا له أنفسهم ، و لم يتكبروا أو يتعالوا عليه.

]و عزروه[

أي جعلوه كبيرا في أنفسهم ، أكبر من شهواتهم و من ضغوط الحياة.

]و نصروه[

أي قدموا له امكاناتهم ، و جعلوها في خدمة رسالته.

]و اتبعوا النور الذي أنزل معه[

و هو القرآن ، و كما يستضيء البشر بنور المصباح في الليل ، كذلك استضاؤوا بنور القرآن في ليل الحياة

، فرأوا به و من خلاله ما في الحياة من خير و شر ، و حق و باطل ، و هدى و ضلالة.

]اولئك هم المفلحون[

أي السعداء في الدنيار والآخرة.

كيف نعرف الله ؟

[158]معرفة الله سبحانه تسبق سائر المعارف الدينية ، و هي تتم بطريقة فطرية ، و بالتذكرة بما في الكون من آيات ، و بما في النفس من بحث و وله ، و حين يتذكر البشر و يعرف ربه يسهل عليه أن يعرف رسالة ربه لما فيها من تناسبو تناغم ، فرسالة الله شاملة واسعة الرحمة ، لطيفة المناهج ، متينة الاركان كأي اسم آخر من أسمائه الحسنى ، فهي كما الشمس و القمر ، و مثل السماوات في سعتها و قدرتها ، و مثل الأرض في متانتها و استقرارها ، و مثل ظاهرة الحياة فيما تعطيها للنفوس من حرارة الحياة ، لذلك كان من أقرب الطرق الى معرفة الرسالة و الرسول هو معرفة الله، و التذكر بعظمته و قدرته و لطفه و رحمته ، و لذلك أيضا كان يستشهد الرسل بالله على صدق رسالاتهم.

]قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا[

و كما أن رحمة الله وسعت كل شيء ، كذلك رسالته فهو.

]الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي و يميت]و مثلما يحيي الخلق ماديا فهو يهديهم بالرسالة التي هي حياة معنوية ، و مثلما يميتهم ماديا فهو يضلهم حين يكفرون بالرسالة فيموتون و هم أحياء.

]فآمنوا بالله و رسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله و كلماته]و إنما يدعوكم الى الله لا الى نفسه ، و هو أسبق الناس الى الايمان بالله و برسالاته التي اوحيت اليه.

]و اتبعوه لعلكم تهتدون[

إن إتباع الرسول سوف ينتهي بالبشر الى الارتفاع الى مستوى معرفة الحقائق بأنفسهم.

[159]ليست رسالات الانبياء مبعث خلاف و نزاع ، و لا هي انزلت لتكون أداة للعنصرية و الطائفية ، لذلك فهي تؤكد أبدا على وحدة الرسالات ، و أهمية القيم ،و أن من يتبع القيم الرسالية فهو على صراط مستقيم حتى و لو لم يلتزم بخط معين في هذا الاتباع ، لذلك أكد القرآن الحكيم هنا أيضا على أن الحكم الكاسح بكفر بني إسرائيل جميعا خطأ ، بل أن بعضهم على صواب ما دام يلتف حول رسالة السماء ، و يشكل أمة واحدة ، و ما داموا يرشدون الى الحياة الفاضلة عن طريق الحق ، و يحكمون الحق في علاقاتهم الاجتماعية ، و في مواقفهم من الناس أو من الظواهر الحياتية.

]و من قوم موسى أمة يهدون بالحق و به يعدلون[

الرجز عقبى الظلم بعد الايمان

هدى من الآيات

بنو إسرائيل فريقان : فريق يؤمن و هي الأمة الحقة ، و الفريق الثاني : ظالم و أول سماتهم اختلافهم ، و استمرار التقسيمات الطبيعية القبلية بينهم ، و عدم شكرهم لربهم على ما رزقهم من المن و السلوى ، و ظلل عليهم السحاب ، و أن ذلك ظلم لأنفسهم.

و حين أمرهم الله أن يسكنوا القرية ليأكلوا منها حيث شاؤوا ، و يستغفروا الله عن ذنوبهم حتى يغفر لهم خطيئاتهم ، و أن يزيد المحسنين الذين يتجاوزون العمل بالواجبات الى الاحسان.

بيد ان هذا الفريق الظالم بدلوا قولا غير ما قيل لهم ، فأرسل الله عليهم رجزا من السماء بسبب ظلمهم .

و هناك تجربة لا تزال ماثلة في ضمير التاريخ من ظلم هؤلاء لأنفسهم ، انهمكانوا في قرية حاضرة البحر و قريبة منه ، و كانوا يتجاوزون حدود الله سبحانه في حرمة الصيد في يوم السبت ، و لكي يمتحن الله هؤلاء كانت الحيتان تأتيهم في يوم السبت ظاهرة على البحر ، بينما لا تأتيهم في غير السبت ، و اختلف الناس ثلاثا في هذه القرية ، ففريقعملوا الجريمة ، و فريق سكتوا عنها ، و فريق نهوا عنها ، و حينما سألهم البعض : لماذا تعظون قوما أهلكهم الله بالمعصية ؟ أجابوا : لاننا نأمل في هدايتهم و لنتم الحجة عليهم ، و كانت العاقبة أن الله عذب الفريقين الأولين و أنجى الفريق الثالث ، و عذبهم بأن مسخهم قردة خاسئين.

كيف انتكس بنو إسرائيل بالتبرير

هدى من الآيات

و أعلن ربنا سبحانه حكمه الحاسم الذي جاء نتيجة ذلك السلوك الفاسد لبني إسرائيل حيث عصوا رسالات ربهم ، و كان ذلك الحكم هو سيطرة الطاغوت عليهم الى يـوم يبعثـون حتى يسومهم سوء العذاب ، ذلك لأن الله سريع العقاب و هو غفور رحيم.

و كان من مآسي بني إسرائيل تشتتهم في البلاد ، كل جماعة منهم سكنوا منطقة ، و كان بينهم الصالحون و غيرهم ، و قد امتحن الله بني إسرائيل بالحسنات لعلهم يشكرون ، و امتحنهم بالسيئات لعلهم يتوبون اليه و يعودون الى شرائعه و مناهجه.

و يبدو أن بني إسرائيل هبطوا بعدئذ الى درك التخلف الثقافي ، حيث انتشرت فيهم الثقافة التبريرية ، فخلف من بعد ذلك الجيل جيل فاسد ثقافيا حيث كانوا يهتمون بمظاهر الدنيا ، و يزعمون بأن الله سيغفر لهم و لكن كيف يغفر الله لهم و هم لم يتوبوا توبة نصوحا ، بدليل أنهم لو وجدوا مثل تلك المظاهر لأخذوا بها أيضا ؟!

إن تلك الأفكـار التبريرية التي كانت تشجع على الفساد بأمل الاستغفار لم تكن أفكارا دينية ، لان ميثاق الكتاب و عهده يقضي بألا ينسبوا الى الدين إلا الحق ، و كان الحق السليم هو الاهتمام بالآخرة و أولويتها على عرض الدنيا.

و في ظلمات تلك العصور كان يشع نور الطليعة الرسالية الذين تمسكوا بقوة بالكتاب ، و أقاموا الصلاة ، و كان همهم هو إصلاح الناس بعد إصلاح أنفسهم ، و الله لا يضيع أجر هؤلاء حيث أنه بنسبة عملهم كان يرفعهم.

بينات من الآيات

التقليد داء المجتمع :

[١٦٧] لقد مسخ فريق من بني إسرائيل قردة خاسئين ، و بالرغم من ان ذلك الفريق السيء الحظ قد هلك بعد ثلاثة أيام أو سبعة أيام حسب ما جاء في التاريخ ، إلا أن تلك الحالة قد استمرت بعدئذ في أجيال بني إسرائيل التي عصت ربها و اتبعت شهواتها ، أو حتى لم تحترمقوانين الدين .

ما هي تلك الحالة ؟

لابد أن نعرف مسبقا أن أبرز سمات القرد هو التقليد و التشبه بالآخرين ، و هذا يستدرج منتهى درجات الذلة و القماءة ، و لذلك فان الحالة التي استمرت مع الأجيال الصاعدة من بني إسرائيل كان الاستعباد و الذلة ، حيث سلط الله عليهم طاغوت الظلم و الارهاب ، و أنظمة القهر و الديكتاتورية فاذاقتهم سوء العذاب ، و ذلك بسبب عصيانهم لربهم أو سكوتهم عن المعاصي .

[و إذ تأذن ربك]

أي أعلن ذلك بوضوح كاف ..

[ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب]ما داموا في معصية الله أو بالسكوت عن المعاصي ، و إذا غيروا ما بأنفسهم غير الله لهم حالهم ..

[إن ربك لسريع العقاب]

بالرغم مما يتراءى للبشر ان عقابه بطيء .. كلا إنه سريع يلحق بالبشر في الدنيا ، وقبل الوقت الذي يسوف العاصي فيه التوبة ، و يمني نفسه بتأخر العذاب .

ثم إن عقاب الله ما دام ثابتا لا محالة ، فان كل آت قريب يحدوه إليه الليل و النهار بسرعة فائقة ، و لا يقدر البشر على الفرار منه إلا اليه سبحانه ، و بالعودة الى مناهجه ، و إصلاح الفاسد ، ذلك لان رحمة الله واسعة ..

[و إنه لغفور رحيم]

نتائج الظلم الاجتماعي :

[١٦٨] الظلم الذي مارسه بنو إسرائيل من هتك حرمة السبت كان ظلما إجتماعيا عاما و سبب في تبدل النظام السياسي ، و تسلط الطغاة على الحكـــم و قيامهـــم باضطهاد الشعب ، (كما تكونوا يولى عليكم) و كان من نتائج هذا الظلم الاجتماعي و اشباهه الانهيار في مجتمعهم ، حيث تساقطت حدود المجتمع و تفرقت بنو إسرائيل مجموعات .. مجموعات ..

[و قطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون و منهم دون ذلك]و كانت تلك بدورها مرحلة من مراحل سقوط هذا المجتمع المؤمن ، حيث تفرقواو اختلفوا ، و لكن بقيت فيهم أمة صالحة و أمم متدرجة في الصلاح ، و لكن الله أنزل عليهم الحسنات حينا و السيئات حينا لكي يختبرهم و يمتحن مدى صمودهم أمام إغراء الحسنات و عذاب السيئات ..

[و بلوناهم بالحسنات و السيئات لعلهم يرجعون]

حيث أن فلسفة الاختبار هي : ظهور ما خفي على الانسان من واقعه الضعيف حتى يصلحه و يكمل نفسه .

ثقافة التبرير :

[١٦٩] أما المرحلة الاخطر التي هبط اليها بنو إسرائيل فقد كانت انتشار الثقافة التبريرية التي تتخذ من الدين ستارا لاتباع الشهوات ، كما هـــو الحال عند بعض المسلمين حيث انهم يعملون المعاصي بعد التحايل على الدين ، بزعمهـــم بطريقة أو بأخرى ، فيرابون باسم البيع ، و يسكتون عن الظالم باسم أنه ولي الأمر ، أو باسم أن العصر هو عصر التقية و الانتظار ، أو يشجعون الخلافات باسم أنها الاولى بالاهتمام ، و هكذا .. كانت بنو إسرائيل في هذه المرحلة تتوسل ببعض النصوص و تفسرها حسب آرائها ، و تعمل المعاصي باسمها .

[فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب]

و لكنهم لم يعملوا به و أنما كانوا ..

[يأخذون عرض هذا الأدنى و يقولون سيغفر لنا و إن يأتهم عرض مثله يأخذوه]إن تفسيرهم للاستغفار ساذج و بعيد عن الحقيقة ، ذلك لأن الاستغفار هو في واقعه الندم و العزم على ترك المعصية ، و إصلاح آثار الذنب السابق ، أما هؤلاء فقدزعموا أن مجرد التمني بالمغفرة كاف في درء خطر العذاب ، علما بان ذلك كان نتيجة اتخاذ الدين وسيلة تبرير لأخطائهم ، و الدليل على ذلك أنهم يعودون الى الذنب كلما وجدوا عرضا زائلا من أعراض الدنيا ، و خطورة هذا النوع من التفكير أنه يكرس ضلالة البشر ، إذ أن وسيلة إصلاح البشر و هي الدين قد اتخذت عندهم وسيلة تبرير للفساد فكيف يمكن إصلاحهم ؟! لذلك فان القرآن شديد أبدا على أولئك الذين يحرفون الدين ويفسرون نصوصه و تعاليمه تفسيرا خاطئا و قد ا تخذ مسبقا العهود و الموثيق على من أرسل عليهم الكتاب بألا ينسبوا الى الله غير الحق المتمثل في توصية الناس بأن الآخرة أفضل من الدنيا ، و ذلك هو هدى العقل إذا انتفع الانسان بعقله .

[ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق و درسوا ما فيه]و كانت تعاليم السماء واضحة بالنسبة الى الدنيا و انها عرض زائل ..

[و الدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون]

[١٧٠] و بالرغم من أن أكثر هؤلاء قد انحرفوا و حرفوا الدين و نسبوا الى ربهم أفكارا باطلة ، إلا أن طائفة منهم تمسكت بالكتاب تمسكا شديدا ، و طبقت تعاليمه و منها : إقامة الصلاة ، و الاستلهام من الله في تصرفاتهم و مواقفهم عن طريق إقامة الصلاة ، و الله سبحانه لا يضيع أجر هؤلاء لأنهم مصلحون ، لا يكتفون بالصلاة بل باقامتها و تطبيق سننها في الحياة .

[و الذين يمسكون بالكتاب و أقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين]

الميثاق الإلهي لمواجهة أتباع المبطلين

هدى من الآيات

متى أخذ الله من بني إسرائيل ذلك الميثاق الذي كان من أبرز بنوده ألا يقولوا على الله الا الحق ؟

الجواب :مرتين ، مرة حيث قلع قسما من الجبل و جعله فوقهم كأنه ظلة أو سقف ، تصوروا أنه سيقع و يقضي عليهم ، و هنالك أخذ ميثاقهم و قال لهم : خذوا ما آتيناكم بقوة و اذكروا ما فيه ، وليكن هدف ذكر ما فيه التقوى و الالتزام بواجبات الله سبحانه.

هذه مرة ، و مرة اخرى حين أخرج الله ذرية آدم في صورة ذر و نشرهم في الفضاء ، و أشهدهم على أنفسهم و قال لهم " : الست بربكم قالوا بلى شهدنا " و آنئذ حذرهم الله من التبريرات التي قد يتخذونها وسيلة لعدم الالتزام بالحدود ، و منها : أن يقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين ، أو يقولوا : " إنما اشرك آباؤنا من قبل و كنا ذرية من بعدهم " كلا .. إن كل جيل مكلف و مسؤول عند ربه بما أتاه الله منفطرة و عقل ، و بما أتخذ عليه من شهادة في عالم الذر و لذلك لا يصح أن يقول احدهم " أفتهلكنا بما فعل المبطلون. "

ان هذه الآيات التي يفصلها ربنا سبحانه تهدف اعادة الانسان الى فطرته النقية ، الى حيث تعاليم الله.

بينات من الآيات

خذوا ما أتيناكم بقوة:

[171]في قصة سبق الحديث عنها في سورة البقرة ، أقتطع ربنا جانبا من الجبل و جعله فوق رأس بني اسرائيل ، و أمرهم بأن يتعهدوا بأخذ ما آتاهم أخذا قويا دون ان يتكاسلوا أو يتوانوا فيه..

]و إذ نتقنا الجبل فوقهم[

اي رفعنا جزء من الجبل فوقهم .

]كأنه ظلة[

اي كأنه شيء يظلهم كالسقف و السحاب.

]و ظنوا أنه واقع بهم[

أي واقع عليهم ، و فاتك بهم .

]خذوا ما آتيناكم بقوة[

اي اجمعوا عزيمتكم ، و سخروا همتكم ، و اثبتوا تصميمكم على اتباع الدين ، فالدين ليس متكأ لكل خاوي العزيمة ، ضعيف الهمة ، فاقد التصميم ، أو لكلكسول جبان متعاجز ، انما هو رسالة الله الى الانسان ، ورسالة المؤمن الى نظرائه من البشر ، انه يصقل شخصية البشر و يفجر طاقاته ، و يظهر مدى تحمله للصعوبات و تعهده بالمسؤولية ، انك لا تستطيع أن تطلب من الدين شيئا قبل أن تعطيه من نفسك و من قدراتك التضحية والايثار ، و أن تكون لديك العزيمة الكافية لاتباع مناهجه مهما كلف الأمر.

و حين تخونك عزيمتك ، و تخشى أن يداخلك الشيطان و يفسد عليك تصميمك ، عليك أن تعود الى الكتاب و تتدبر في آياته ، وتذكر تعاليمه حتى تخشى الله ، و تتعهد بالمسؤولية ، و تتسلح بالتالي

بالتقوى.

]و اذكروا ما فيه لعلكم تتقون[

و بقيت لنا كلمة في هذه الآية و هي : أن كل الناس و بالذات الرساليين منهم يمتحنهم الله كما امتحن بني إسرائيل ، فيأخذهم بالبأساء و الضراء حتى يتعهدوا بالمسؤولية و يأخذوا الدين بقوة ، و لا يجب دائما ان تكون الظلة قطعة جبل ، فقد تكون الظلة كابوس نظام ظالم ، أو فقرا مدقعا أو مرضا مزمنا ، و قد يكون الرسول الذي يبلغه ضرورة الالتزام بالدين و التعهد باتباعه بقوة ، قد يكون أحد المبلغين القادمين ، أو حتى آيات في الكتاب يتذكرها المؤمن في تلك اللحظات ، و منها هذه الآية التي تصدق في كل مكان و مع كل انسان ولكن بطرق شتى.

كيف نبلور جوهر الذات ؟

[172]كما حبة حية يدفنها التراب و الوحل و السماد و لكنها تنشط و تتحدى و تخرج الى النور و تبرز حيويتها ، و قدراتها ، و امكاناتها و تعطي ثمراتها ، كذلك كل واحد من ابناء البشر يدفنه ركام الخرافات ، و وحل الضغوط و الشهوات ، عليه أن ينشط و ان يتحدى و أن يبلور جوهرته الانسانية ، و أن ينبعث خلقا جديدا ، و هذهمسؤولية الانسان ، و ذلك ميثاق الله الذي تعهد به كل فرد من ابناء آدم و حواء.

و لكن كيف يبلور الواحد منا جوهر الانسانية في ذاته ، و يصبح ذلك الانسان الذي فضله الخالق و اكرمه و خلقه في احسن تقويم ؟

انما عن طريق الاتصال المباشر بالله ، و الانطلاق من الايمان به نحو بناء حياة جديدة لنفسه ، مستقلة عن تقليد الآباء ، و حرة بعيدة عن الغفلة و النسيان.

لقد كنا في صورة ذر كما جاء في أحاديث صحيحة ، و كنا في صلب آدم ، أو كان بعضنا في صلب البعض ، و أخرجنا الله سبحانه و اشهدنا على أنفسنا.

]و إذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم[

قد يكون معنى هذه العبارة أن ربنا اخرج كل ولد من ظهر والده.

]و أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين]الغفلة لا تكون تبريرا مقبولا للبشر عند الله ، بل يجب أن يتحدى البشر حجاب الغفلة بنور التذكر ، و بوهج العقل الذي يشع في ضمير البشر في بعض الاحيان ان لم يكن دائما.

] [173]أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل و كنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون [ان هذا التبرير ليس سليما و لا مقبولا عند الله ، إذ أن الله قد أخذ الميثاق من كل واحد منا و حمله مباشرة مسؤولية الايمان ، و إذا قصر جيل في إيمانه فأن الأجيال القادمة غير معذورة باتباع ذلك الجيل الأول ، و هذه الآية تحذر من التقليد ببلاغةكافية.

[174]و ربنا الحكيم يذكرنا بهذه الحقائق لكي نعود الى فطرتنا ، و نبلور جوهر الانسان في ذواتنا ، و نرفع عن أنفسنا غشاوة الغفلة ، و أغلال التقاليد.

]و كذلك نفصل الآيات و لعلهم يرجعون[

ردة العالم و مثل الكلب اللاهث

هدى من الآيات

حين يتخذ الدين اداة لشحذ العزيمة ، و وسيلة لتكامل البشر ، فان ذلك سيكون وفاءا لميثاق الانسان و عهده مع ربه ، و لكن حين يكذب البشر بآيات الله ، و لا يتمسك بها بقوة ، بل ينسلخ منها إذا تعرض

لضغوط ما ، فان الشيطان سيلحق به ليملأ قلبه الذي فرغ من آياتالله فيصبح خاويا ، و الله قادر على ان يرفع البشر بآياته ، و لكن بشرط ان ينبعث البشر بذاته عن جاذبية الارض ، و لا يتبع هواه ، أما إذا أخلد الى الأرض ، و ركن اليها ، و اعتمد على العرض الزائل من الدنيـــا ، فمثل هذا الشخص كمثل الكلب في خسته و دناءته ،و ارتباطه بالدنيا و اتباعه لأهلها بأقــل شيء ، و هناك صفة اخرى له هي أنه يلهج بآيات الله التي لم يستفد منها إلا ألفاظا و أسماءا ، فهو حين تجادله في آيات الله يلهث بها ، أو تتركه يلهث بها مراء و نفاقا.

و لقد ضرب الله هذه الامثلة لعل الناس يتفكرون ، و لا يتخذون الدين تقليدا أو اسماء بلا معاني.

ان الذين يكذبون بآيات الله هم المثل السيء الذي يعكس واقعا فاسدا لانهم يظلمون أنفسهم بتكذيبهم آيات الله.

ان الهدى من الله ، لا ما يتخيله البشر بفكره القاصر ، اما الضلالة فهي نتيجة طبيعية لفقدان هداية الله ، و من لم يهده الله فأن أساطير البشر و خيالاته هو لا تعطيه الهداية ، بل تزيده خسارة و ضلالا..

بينات من الآيات

ضرورة الالتزام:

[175]لابد للأنسان ان يتبع منهجا ، و يلتزم بميثاق ، فان اتبع منهج الله و ميثاقه فقد فاز ، و الا فسوف يملأ الشيطان فراغه ، فيتبع منهجه ، و يصبح من حزبه ، و حين يؤتي الله فردا نعمة الرسالة ، فينزل عليه آياته ، فعليه أن يتعهد بميثاق الله فيها ، و هوالالتزام المطلق بها دون ان يترك شيئا منها ، تحت ضغط الشهوات أو سبب الاهمال.

أما إذا ترك جانبا من آيات ربه بعد أن استوعبها ، فان الشيطان سوف يصبح قرينه و ساء قرينا ، و يكون مثله مثل الكلب كما علماء السوء ، و الاحبار و الرهبان ، و كل من أوتي علما فتركه.

]و أتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين][١٧٦] [و لو شئنا لرفعناه بها[

ان الله قادر على ان يجعل آياته سببا في رفعة البشر ، بشرط أن يسعى هو من أجــل ذلك ، أما اذا لازم الارض و ما فيها من ذلة و صغار ، و شهوات عاجلة زائلة ، فأن اللهيتركه لشأنه..

]و لكنه أخلد الى الأرض و اتبع هواه[

و اتباع الهوى هو نتيجة مباشرة للخلود الى الارض ، و الاكتفاء بها و شهواتها ، و عدم التطلع الى السماء ، و الى القيم الروحية و الى المستقبل الأفضل ، و الى مرضاة الله و الى الجنة.

ان العلم معراج البشر ، و لكن اذا ركن الفرد الى الارض و شهواتها و جاذبيتها ، فأن العلم سوف يترك مكانه للجهل ، و العقل للشهوات ، و تصبح كلمات العلم عند صاحبها كلهث الكلب.

]فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه تلهث أو تتركه يلهث]ان كل الحيوانات تلهث حين تتطلب الحاجة الى اللهث ، كما اذا حمل عليها فأنها تلهث دفاعا أو استعدادا للخطر ، أما الكلب فأنه يلهث بمناسبة و بدون مناسبة لان عادته اللهث كذلك العالم الذي يتبع هواه ، يلهج بالعلم لا من أجل العمل به ، أو توجيه الناس الى الخير به ، بل من أجل المباهاة و التعالي على الناس بأسمه ، فالعلم بدون هدف أو العلم الذي يستخدم لاغراض دنيئة ، كما لهث الكلب لا فائدة من ورائه و لا كرامة.

]ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون]الذين يكذبون بآيات الله لا يجدون

علما يهتدون به ، أو نورا يستضيؤون به ، و انما يتعلمون كلمات يلهجون بها ، كما يلهث الكلب بلا هدف.

انما يستفيد البشر بالعلم اذا تفكر ، و تحول العلم الى جزء من شخصيته ، و تعلمعلما يفيده ، و كان تعلمه لهدف مقدس ، اما وسيلة تعلمه فهي القصص الواقعية التي يستلهم منها رشدا و عبرا و دروسا.

حب الشهرة:

[177]ان اكثر ما يخدع رجال العلم فيدفعهم نحو المتاجرة بالعلم هو حب الشهرة ، بيد أنهم سوف يشتهرون بالسوء اكثر ما يشتهرون بالخير ، و هم يضربـــون بذلك أسوء الأمثلـة.

]ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا و أنفسهم كانوا يظلمون]إنهم أسوء مثل ، لأنهم وجدوا فرصة للفلاح فظلموا أنفسهم بترك الفرصة.

[178]من أسباب هلاك البشر هو اتكاله على نفسه ، و غروره الذي يستغني به عن هدى الله ، و عظمة رسل الله و العلماء بالله ، و خصوصا علماء السوء فانهم يهلكون بهذا الزعم كثيرا ، و لذلك يؤكد ربنا على ان الهدى من الله ، و على البشر ان يتمتع بالتسليم و القنوت له سبحانه حتى يهتدي ، أما اذا لبس رداء الغرور و الكبرياء فسيضل ، لأنه سوف لا يهديه ، وليس هناك مصدر آخر للهداية.

]من يهد الله فهو المهتدي و من يضلل فأولئك هم الخاسرون[

كيف ندعو الله بأسمائه الحسنى

هدى من الآيات

لقد خلق الله الانسان في احسن تقويم ، و زوده بكل وسائل الهدى ، و لكن حيث ترك الانتفاع بها اصبح حقيرا الى درجة لا ينفع الا لجهنم ، و كأنه قد خلق لها و من أجلها ، لقد زود الله البشر بالقلب و جعل التفقه به من مسؤولية البشر ، و زوده بالعين و لكن التبصربها من واجبه ، و كذلك الأذن جعلها من اجل السماع الاستماع لايمكن الا بارادة البشر و بقراره.

ان الانسان الذي لا يقرر الانتفاع بوسائل الفقه و المعرفة التي عنده يشبه الانعام ، بل اضل منها منهجا و طريقا ، لان الانعام لا تملك قدرة و البشر يملكها و لا ينتفع بها ، و هؤلاء غافلون عن قدراتهم العاملة ، و عن المستوى الذي بامكانهم بلوغه.

و لله سبحانه الاسماء الحسنى ، و كل اسم من أسمائه يشير الى قوة فاعلة في الحياة ، أو سنة جارية فيها ، فأذا عرفنا الله بآياته عرفنا تلك الاسماء ، و من خلالها استطعنا أن نكيف انفسنا مع الحق ، و دعاء الله باسمائه الحسنى يكرس روحالحقيقة في البشر ، أما من يغير اسماء الله فعلينا ان نتركهم للجزاء العادل.

و هناك من يحكم بالحق و يجعله مقياسا لتقييم الحياة ، أما الذين يكذبون بآيات الله فانهم سوف يتدرجون الى النار من حيث لا يعلمون ، و ان الله يملي لهم ويمهلهم الى حين. **كيف ندعو الله بأسمائه الحسنى**

هدى من الآيات

لقد خلق الله الانسان في احسن تقويم ، و زوده بكل وسائل الهدى ، و لكن حيث ترك الانتفاع بها اصبح حقيرا الى درجة لا ينفع الا لجهنم ، و كأنه قد خلق لها و من أجلها ، لقد زود الله البشر بالقلب و جعل التفقه به من مسؤولية البشر ، و زوده بالعين و لكن التبصربها من واجبه ، و كذلك الأذن جعلها من اجل السماع الاستماع لايمكن الا بارادة البشر و بقراره.

ان الانسان الذي لا يقرر الانتفاع بوسائل الفقه و المعرفة التي عنده يشبه الانعام ، بل اضل منها منهجا و طريقا ، لان الانعام لا تملك قدرة و البشر يملكها و لا ينتفع بها ، و هؤلاء غافلون عن قدراتهم العاملة ، و عن المستوى الذي بامكانهم بلوغه.

و لله سبحانه الاسماء الحسنى ، و كل اسم من أسمائه يشير الى قوة فاعلة في الحياة ، أو سنة جارية فيها ، فأذا عرفنا الله بآياته عرفنا تلك الاسماء ، و من خلالها استطعنا أن نكيف انفسنا مع الحق ، و دعاء الله باسمائه الحسنى يكرس روحالحقيقة في البشر ، أما من يغير اسماء الله فعلينا ان نتركهم للجزاء العادل.

و هناك من يحكم بالحق و يجعله مقياسا لتقييم الحياة ، أما الذين يكذبون بآيات الله فانهم سوف يتدرجون الى النار من حيث لا يعلمون ، و ان الله يملي لهم ويمهلهم الى حين. **كيف ندعو الله بأسمائه الحسنى**

هدى من الآيات

لقد خلق الله الانسان في احسن تقويم ، و زوده بكل وسائل الهدى ، و لكن حيث ترك الانتفاع بها اصبح حقيرا الى درجة لا ينفع الا لجهنم ، و كأنه قد خلق لها و من أجلها ، لقد زود الله البشر بالقلب و جعل التفقه به من مسؤولية البشر ، و زوده بالعين و لكن التبصربها من واجبه ، و كذلك الأذن جعلها من اجل السماع الاستماع لايمكن الا بارادة البشر و بقراره.

ان الانسان الذي لا يقرر الانتفاع بوسائل الفقه و المعرفة التي عنده يشبه الانعام ، بل اضل منها منهجا و طريقا ، لان الانعام لا تملك قدرة و البشر يملكها و لا ينتفع بها ، و هؤلاء غافلون عن قدراتهم العاملة ، و عن المستوى الذي بامكانهم بلوغه.

و لله سبحانه الاسماء الحسنى ، و كل اسم من أسمائه يشير الى قوة فاعلة في الحياة ، أو سنة جارية فيها ، فأذا عرفنا الله بآياته عرفنا تلك الاسماء ، و من خلالها استطعنا أن نكيف انفسنا مع الحق ، و دعاء الله باسمائه الحسنى يكرس روحالحقيقة في البشر ، أما من يغير اسماء الله فعلينا ان نتركهم للجزاء العادل.

و هناك من يحكم بالحق و يجعله مقياسا لتقييم الحياة ، أما الذين يكذبون بآيات الله فانهم سوف يتدرجون الى النار من حيث لا يعلمون ، و ان الله يملي لهم ويمهلهم الى حين.

بينات من الآيات

الحكمة الربانية:

[179]أن ربنا رحيم و رحمته واسعة ، و لكن رحمته سبحانه قد حددها بحكمته البالغة ، بأولئك الذين ينتفعون بالنعم و يقررون الاستفادة منها ، أما من لا يشتغل قلبه و سمعه و اذنه و بالتالي مداركه فان رحمة الله تتبدل بالنسبة اليه الى نقمة شديدة ، حيث يلقى بهفي جهنم و كأنهم قد خلقوا لها.

]و لقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن و الانس لهم قلوب لا يفقهون بها و لهم اعين لا يبصرون بها و لهم آذان لا يسمعون بها]من الآية يظهر بوضوح أن الهدى من الله ، و لكن الاهتداء بالهدى من البشر و من صنعه ، فهو الذي يقرر التفقه بالقلب ، و التبصر بالعين ، و السماع بالاذن ، و من دون هذا القرار فان الله لا يكره احدا على الهدى.

]اولئك كالانعام بل هم أضل [

لان الانعام تهتدي بفطرتها نحو منافعها ، و هؤلاء ينحرفون حتى انهم ليضرون بأنفسهم بوعي و من دون وعي ، كالذي يشرب الخمر و يضرر بنفسه ، و الذي يسلط الطاغوت ليستعبده ، و الذي يعاقر المخدرات و يمارس الفاحشة ليضر بنفسه ، مما لا يفعله الحيوان لانه يهتدي بفطرته الى مصالحه..

]أولئك هم الغافلون [

الغافـــل هو : الذي يملك ذخائر المعرفة و لكنه لا يستفيد منها فيقع في المهالك.

الكفر بالأسماء و الصفات:

[180]بسبب الالحاد و الانحراف في اسماء الله ، ينحرف كثير من الناس فيزعمون مثلا أن الله واسع الرحمة و انه لذلك لا يعذب احدا لان رحمته تأبى ذلك ، أو يزعمون بانه لو زل احد فانه قد سقط نهائيا و سوف يعاقبه الله لانه شديد العقاب ، و لا يرجى له الخير ابدا ، هذا التصور الخاطئ أو ذاك يكرس انحراف البشر ، بينما الاعتقاد السليم أن الله واسع الرحمة و أنه شديد العقاب كل في محله و حسب الحكمة ، و ان الرحمة و النقمة تأتيان بعد ارادة البشر و مشيئته ، فلو اراد الرحمة لنفسه لحصل عليها ، و لو شاء العذاب لأبتلى به، هذا الاعتقاد السليم يبعد البشر من انحرافاته ، و هذا الاعتقاد السليم انما يبلغه الانسان بفطرته النقية و عقله و بصيرته ، حيث ينسب بها الى ربه احسن الاسماء.

]و لله الاسماء الحسنى فادعوه بها[

إن دعاء الله باسمائه الحسنى يكرس الضمير الحسن عن الانسان ، فيهتدي الى السنن الحاكمة في الحياة و التي يجريها ربنا باسمائه الحسنى.

]و ذروا الذين يلحدون في اسمائه سيجزون ما كانوا يعملون]و الالحاد في اسماء الله يسبب إنحرافات عمليه، و على تلك الانحرافات يعاقب الله عباده ، لا على مجرد التصور الخاطئ ، بل نستطيع أن نؤكد ان الانحرافات العملية هي السبب المباشر في الالحاد في أسماء ربنا ، اذ من دون سبب و إذا ترك البشر فطرته النقية عرفالله باسمائه الحسنى ، و لذلك لا ينفع الجدل في أسماء اللهو المناقشة مع الملحدين فيها ، لان سبب الانحراف و الالحاد ليس سوء الفهم بل سوء النية ، و ربما لذلك أمرنا الله بترك هؤلاء الملحدين و شأنهم ، إذ المجادلة مع المنحرفين بوعي مسبق و إصرار عليه تشوش رؤية البشر الصافية ، و تشككه في حقه.

و تبقى كلمة في أسماء الله و هي:

يبدو أن الخليقة تقاد بقوى معينة مثلا بالعلم ، و الحكمة ، و القدرة ، فالشمس تجري لمستقر لها ، و لكن كيف ؟

الحكمة هي التي تجعل للشمس هدفا تتحرك نحوه من أجل تحقيقه ، و العلم هو الذي يحدد مسيرة الشمس بحيث تبلغ الهدف ، و القدرة هي التي تنفذ الحكمة و العلم و تقهر الشمس على إتباع تلك المسيرة المحددة ، هذه هي أسماء الله سبحانه ، و تجلياته ، فالعلم اسم من أسمائه الذي يتجلى في كل صغيرة و كبيرة في الكون ، و الحكمة كذلك ، و القدرة و هكذا..

و حين ندعو الله باسمائه و نقول يا عليم ، يا قدير ، يا حكيم ، أو نقول نسألك بعلمك ، و بقدرتك ، و بحكمتك ، فاننا في الوقت الذي نكرس في أنفسنا قيمة العلم ، و القدرة ، و الحكمة و نستخدمها في واقعنا ، فان هذه القيمة لا تكون منفصلة عن توحيد الله و عن عبادته ، و عن الايمان بأنه أعلى من أسمائه ، و أن علينا التوكل عليه لا الاعتماد فقط على أسمائه.

التوسل بالذات لا بالصفات:

ان من أكبر أخطاء البشر هو التوسل بأسماء الله سبحانه دونه ، لان ذلك يشكل جزءا من الحقيقة الكونية ، و هو يؤدي الى الايمان ببعض الحقيقة ، فمثلا ، الايمان بالعلم دون الحكمة يسبب جعل العلم معبودا وحيدا كما فعل الفرنسيون في منطلقثورتهم . و العبودية للعلم تجعل العلم بلا هدف ، بل بهدف استغلال البشر ، و سحق القيم المعنوية عنده . كذلك القدرة إذا أصبحت معبودة بذاتها لا بصفتها إسما من أسماء الله الحسنى ، فان القدرة المنطلقة بلا حكمة تستهوي الناس و تجعلهم يطلبونها بشتى الوسائل ، حتىبفداء القيم.

و من هنا تركز الادعية المأثورة على تذكر الاسماء الحسنى بانها منسوبة الى الله و جاء في بعض الادعية : -١- [اللهم إني أسألك بأسمك يا الله يا رحمن ، يا رحيم ، يا كريم ، يا مقيم ، يا عظيم ، يا قديم ، يا عليم ، يا حليم ، يا حكيم ، لا اله إلا أنت ، الغوث الغوث ، خلصنا من النار يا رب] . (١)٢] - اللهم إني أسألك بأسمك يا علي يا وفي ، يا غني يا ملي ، يا صفي يا رضي ، يا زكي يا أبدي ، يا قوي يا ولي] . (٢)٣- [اللهم إني أسألك من بهائك بأبهاه و كل بهائك بهي ، اللهم إني أسألك ببهائك كله ، اللهم إني أسألك من علمك بأنفذه و كل علمك نافذ ، اللهم إني أسألك بعلمك كله] . (٣)٤] -اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء ، و بقوتك التي قهرت بها كل شيء ، و خضع لها كل شيء ، و ذل لها كل شيء ، و بجبروتك التي غلبت بها كل شيء ، و بوجهك الباقي بعد فناء كل شيء ، و بأسمائك التي ملأت أركان كل(١) من دعاء الجوشن الكبير في مفاتيح الجنان.

(2)من دعاء البهاء في مفاتيح الجنان.

(3)دعاء كميل للامام علي (ع. (

شيء] . (١(

إن إسلوب الادعية يكرس قيمة الاسماء التي تذكر تارة بالعموم و تارة بالتحديد ، و لكن تبقى قيمة التوحيد فوق قيمة أسماء الله ، لان هذه الاسماء تتصل بالتالي بالله سبحانه.

موقف التصديق:

[181]و حين يدعو المؤمن ربه باسمائه الحسنى يجعل الحق مقياسا و قيمة ، لانه بمعرفة الله سبحانه و معرفة أسمائه الحسنى يستوعب البشر جوانب الحق.

]و ممن خلقنا أمة يهدون بالحق و به يعدلون[

و الملاحظ في الآية أن الله سبحانه عبر عن أولئك الذين يحكمون بالحق بـ) الأمة) بأعتبارهم طائفة منتظمة تحت قيادة إمام ، ثم يهدون الناس الى الحق ، و هم بدورهم يأخذون بالحق و يجعلونه مقياسا لتطبيق العدالة في المجتمع.

موقف التكذيب:

[182]و في مقابل هؤلاء جماعة يكذبون بآيات الله التي تهدي الى الحق ، و جزاء هؤلاء استدراجهم حتى يصلوا الى الدرك الأسفل من حيث لا يعلمون][و الذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون]و الاستدراج هو : إعطاء الطرف الآخر فرصة التقدم حتى يقع في الفخ مفاجئة ، لذلك لا يجوز للبشر أن يستريح على المهلة التي يعطيها الله له ، أو على النعم التي(١) دعاء السحر.

تترى عليه ، أو ما أشبه .. فان المهلة أو النعمة قد تكون مصيده له ، و فخا سرعان ما يقع فيه.

] [183]و املي لهم إن كيدي متين[

أي أعطيهم مهلة ، و ذلك خطة لأخذهم أخذا لا يقدرون على الفرار منه ، لان خطة الله متكاملة و محكمة.

عسى أن يكون قد اقترب الأجل
هدى من الآيات

زود الله البشر بأدوات التفكر ليكتشف الحقيقة بنفسه ، و اذا لم يفعل فـــان ضلالته مؤكدة ، و عن طريق التفكير يبلغ البشر الى طبيعة الأشياء و الظواهر ، فظاهرة الرسالة لو تفكر المرء فيها عرف انها حق ، و ان الرسول ليس به جنون ، بل ان ما يرى في هذه الظاهرة من مظاهر الانتفاضة و التغيير فانما هو شهادة على واقع جديد سيأتي وراءه ، و الرسالة انذار واضح بوقوع ذلك الواقع.

و كذلك لو تفكر المرء في ملكوت السماوات و الأرض و ما فيهما من عظمة و فخامة ، و لو تفكر في خلق اي شيء مخلوق و ما فيه من متانة و لطف و دقة و اتقان ، آنئذ يعرف أن هذا النظام المتكامل يعتمد على هيمنة قوة أعلى منه ، و أن هذا النظام يهدف أولا : إمتحان البشر ، و ثانيا : أن المدبر له لو شاء ترك النظام يتهاوى و هذه اللحظة محتملة في أي وقت . و إذا تفكر البشر في الرسالة ، ثم تفكر في الخليقة لآمن بها ، و اذا تولى جحودا فلا شيء آخر يمكن أن يؤمن به بعقله ، كيف و الهدى من اللهو قد تولى عنه ؟ و من يضلله الله يمنع هداه عنه ، فان طغيانه و استكباره سيجعله قابعا في ضلالته الى الابد.

و هم يسألون الرسول عن الساعة : متى ترسو عليها سفينة الكون ؟

تلك الساعة الثقيل وقعها في السماوات والأرض ، إنها لا تأتي إلا مفاجئة و علمها عند الله ، و أكثر الناس لا يعلمون.

بينات من الآيات

لا للتبرير :

[١٨٤] سبق الحديث في آية (١٧٣) على ان على البشر مسؤولية المعرفة و التصميم ، و انه لا يمكنه تبرير فساده بالغفلة و التقليد ، و ها هو القرآن يذكرنا مرة اخرى بمسؤولية التفكير الوسيلة الوحيدة لمقاومة الغفلة :

[أو لم يتفكروا]

و لأهمية التفكير و ضرورته الفطرية يتساءل الله : لماذا لم يتفكروا ؟

[ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين]

إن الرسول يخبرهم عن أشياء جديدة غير مألوفة و لذلك فيمكن أن يكون هذا في نظرهم جنونا عارضا أو إنذارا مبينا ، و بالتفكير نعرف المتانة في الكلام ، و القوة في الدليل ، و السلامة في النية ، و شواهد الوجدان و العقل مما يدل جميعا على ان كلام الرسول ليس جنونا بل هو إنذار حق و واضح .

[١٨٥] ذلك الانذار الذي يحذر من المصير الذي ينتهي اليه المجرمون ، يمكن أننسمعه من الرسول و من لسان الكون ايضا ، الذي ينطق بالنظام الدقيق و العظمـــة المتناهية .

[أو لم ينظروا في ملكوت السموات و الارض]

و ما فيهما من عظمة تدل على قدرة الخالق و هيمنته ..

[و ما خلق الله من شيء]

و ما في كل شيء ينظر اليه الانسان من خلق الله دلالة واضحة على دقة النظم ، و إتقان الخلق ، و حسن التدبير .

إن النظر في عظمة الكون ، و في أي شيء مخلوق ، يهدينا الى الله الذي يهيمن على تدبير الكون ، و الله في أي لحظة يمكن أن يسحب تدبيره عن الكون فيتهاوى ، و إنه لم يخلق الخلق عبثا و بلا هدف ، بل بحكمة بالغة هي : إبتلاء الانسان ، و اختبار تحمله لمسؤولية التفكر ، و ارادة التصميم ..

[و أن عسى أن يكون قد إقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون]إذا تركوا هذا الحديث

الذي هو إنذار مبين ، و يشهد عليه النظر في السماوات و الأرض و في أي مخلوق صغير أو كبير من خلق الله سبحانه ، هل هناك حديث أفضل منه يؤمنون به ؟

[١٨٦] الذي لايهتدي بهدى الله فان البديل الوحيد له هو الضلالة الدائمة . لماذا ؟

لان عدم ايمانه بهدى الله ناشئ من طغيانه على الله و الحق ، و هذا الطغيان باق معه و يسبب له العمه و الضلال .

[من يضلل الله فلا هادي له و يذرهم في طغيانهم يعمهون]متى تقوم الساعة ؟

[١٨٧] اذا كانت شواهد الكون تدل على أن النظام الذي يمسك السماوات و الارض سوف ينتهي في يوم ، و ان سفينة الكون سوف ترسو في نهاية المطاف على شاطئ ، فان هذا السؤال سوف يطرح أيان مرسى هذه الساعة ؟ متى ؟ و كيف ؟ :

[يسألونك عن الساعة أيان مرساها]

و متى تقف عند الشاطئ النهائي .

[قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات و الأرض لا تأتيكم إلا بغتة]يبدو لي : أن ساعة كل طائفة تنتهي في حين ، فماذا ينفعها حين ينتهون ؟ إن الحياة تستمر في غيرهم ، إن ساعة قوم لوط رست عندما نزل العذاب عليهم في صورة زلزال عظيم ، و ان الساعة فرعون و قومه قد حلت حينما أغرقوا في اليم ، و هذه الساعة تأتي مفاجئة و دون انذار .

و ربما يشير الى ذلك ضمير (كم) ، ذلك لان نهاية الكون لا تأتي الجميع ، بل فقط أولئك الذين يتواجدون آنئذ .

و يبقى السؤال : لماذا يطرح الناس هذا السؤال على الرسول ؟ أو ليسوا هم المسؤولون أولا و أخيرا عن أنفسهم ؟ أو لا يهمهم أمر نهايتهم و بلوغ ساعتهم ، أو ان الرسول حفي بها .. مطلع عنها ؟

[يسألونك كأنك حفي عنها]

يستقصي السؤال عنها ، و يطلع بجوانبها ، بينما هم المسؤولون و عليهم التقصي كما الرسول .

[قل إنما علمها عند الله]

فهو الذي يقرر متى ينتهي وقت الامتحان ، ويبلو واقع كل واحد منا ، فيقرر بمشيئته المطلقة ميعاد الجزاء ..

[و لكن أكثر الناس لا يعلمون]

هذه الحقيقة الواضحة وهي : أن مصير البشر بيد الله العزيز الحكيم ، لا بيدهم أو بيد الرسول (صلى الله عليه و آله) .

الانسان : قصة البداية
هدى من الآيات

لو تدبر الانسان في كتاب الحياة لعرف الحقيقة ، كذلك لو تدبر في نفسه و ما فيها من علائم النقص و آيات الخلقة.

من أنا ؟ و كيف خلقت ؟ و ما أملك ؟ و من يملك أمري ؟؟

أنني موجود لا أملك لنفسي نفعا و لا ضرا إلا في حدود الحرية و الامكانيات التي وفرها الله لي ، ولا أعلم الغيب بدليل اني اخسر كثيرا بسبب جهلي بالمستقبل و بالغائب عن نظري ، و كثيرا ما

تحمل الحوادث السوء لي و انا استقبلها جهلا ، و الانسان بحاجة الى الرسول الذي ينذره بالمستقبل و يجعله يتحذره ، ويعرفه كيف ينتفع بالمستقبل.

كيف خلقني الله ؟

لقد غرز الله شهوة الجنس في والدي ، حيث خلقهما من نفس واحدة و جعلاحدهما يسكن الى الآخر ، و يتكامل وجوده النفسي و الجسدي و المعيشي بالثاني ، و حين أتى الرجل زوجته حملت منه حملا سهلا لم تشعر بثقله حتى انها كانت تقوم باعمالها العادية ، حتى أثقلت بالحمل بعد فترة ، و هناك شعرا - هي و زوجها -بمسؤولية الطفل و دعوا اللهأن يرزقهما صالحا غير فاسد ، و تعهدا بشكر الله ، و لكن حين رزقهما الله ولدا صالحا نسيا الله و نسبا ولادة الطفل الى بعض الشركاء ، دون أن يفكرا في أن الشركاء لا يملكون لهما نصرا و لا يمكن الانتصار لهما ، كما أنهم عباد مخلوقون و لا يقدرون على خلق شيء ، كما انهما نسيا تلك الحالة السابقـــة حيث توسلا عندئذ فقط بالله دون الشركاء !! لأنه في حالة الشعور بالخطر ينسى المرء الشركاء.

بينات من الآيات

من هو الرسول ؟

[188]من الرسول ؟ هل هو شخصية متميزة جسديا ؟

كلا .. إنه فقط يتميز بالرسالة الموحى بها اليه ، و بالاتصال بينه و بين ربه ، فما لديه إنما هو من الله سبحانه و به.

]قل لا أملك لنفسي نفعا و لا ضرا إلا ما شاء الله و لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير و ما مسني السوء]فحين أصاب بالسوء كأي بشر آخر ، و حين لا استكثر الخير لعدم معرفتي بالمستقبل ، فاني بشر مثلهم . نعم أعلم الغيب في حدود تعليم الله لي و وحيه علي ، كما أني أملك النفع و ادفع الضر في تلك الحدود أيضا.

]إن أنا إلا نذير و بشير لقوم يؤمنون[

أما الذين لا يؤمنون فان الوحي لا ينفعهم اذ الوحي انما ينفع من يريد و يصمم على تطبيقه و تنفيذ مناهجه ، و اذا كان الرسول لا يملك نفعا و لا ضرا ، فكيف بسائر الناس ؟ و معرفة الانسان بنقاط ضعفه تجعله يعود الى واقعه و يعرف انه مربوب مخلوق.

قصة الخلق:

[189]الآن لا أملك شيئا إلا بقدر ما ملكني الله ، أما في الماضي فقد كنت نتيجة غريزة جنسية خلقها الله في والدي ، و ربما الوالدين لم يستهدفا من وراء الزواج ولادتي ، بل ربما أرادا قضاء شهوة جامحة!

]هو الذي خلقكم من نفس واحدة[

فلذلك يحن الواحد منا الى الآخر ، و يعطف عليه ويأنس اليه ، و لذلك أيضا لا فوارق بيـــن البشر و نظيره البشر ، و خصوصا لا فرق بين الذكر و الانثى فرقا حقيقيا..

]و جعل منها زوجها ليسكن اليها[

فالرجل خلق متكامل مع الانثى لذلك لا يسكن إلا اليها ، و من مظاهر السكن ، إن كل شخص يشعر بنقص حتى يكتمل بالزواج ، و آنئذ يكون بامكان الطرفين تكميل حياتهما معا ، فاذا وفر الذكر للحياة المتكاملة : القوة ، و العزيمة ، و خشونة التحدي ، فان الانثى توفر لها الرحمة ، و العاطفة ، و نعومة الرفق ، و كلما هو ضروري للتعاون..

]فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به[

أي مارست أعمالها العادية بسهولة و يسر ، دون ثقل عليها من قبل الجنين ، الذي يتكامل في رحمها بسرعة ، أو ليس ذلك يدل على إتقان الصنعة ، و لطفالتدبير ، من قبل الرب الحكيم العليم..

]فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين]إن الشعور بالثقل لا يلازم أبدا الشعور بالصعوبة ، اذ المرأة السليمة لا تشعر بصعوبة بالغة بسبب الحمل إلا قبيل الولادة ، و لكن هذا الشعور إنما هو بهدف إشعارها بالمسؤولية القادمة ، و ذلك للاستعداد لها و توفير وسائل الراحة و الامان للضيف الجديد ، و هكذا نرى كيف يتغير الوالدان و يشعران بمسؤولية بالغة تجاه الوليد ، و أول طلبهم هو : أن يكون خلاصة حياتهما و فلذة كبديهما سالما و صالحا ، جسديا و روحيا ، و لفرط الاحساس بالمسؤولية ينسيان الشركاء المزيفين و يتوجهان الى الله ربهما ، مثلما ينسى البشر كل الشركاء في أوقات العسر الشديد ، بل و يتعهدان بالشكر لله ، و القيام بواجبات الوليد الجديد مثل : التربية السليمة ، و الارتفاع الى مستوى الأب و الأم اذا آتاهما صالحا..

الانسان و النسيان:

[190]و لكن سرعان ما ينسيا هذه التعهدات حيث يعودان الى الشركاء ، و هي كل القوى المادية التي تضغط على البشر باتجاهات منحرفة ، مثل المجتمع الفاسد و رمزه السلطة ، و مثل الثقافة الفاسدة و رمزها الاحبار ، و الرهبان ، و الشعراء ، و مثل الاقتصاد الفاسد ورمزه أصحاب المال ، و الرأسمالية.

]فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون]و لذلك لم يطبقا مناهج الله في تربية الاولاد ، بل اتبعا الشركاء ، فافسداه اجتماعيا حينما أخضعاه للطاغوت ، و افسداه ثقافيا حيث سلماه بيد أدعياء العلم و الدين و هما يعرفان فسادهم ، و افسداه إقتصاديا حيث ربطاه بعجلة الرأسمالية.

بينما كان الواجب عليهما تربيته على أساس سليم ، و فصله عن سلبيات الشركاء أنى كانوا، و تحريره لله و جعله مرتبطا به و برسالاته ، ذلك الرب الذي اعطاهما اياه و جعله صالحا غير فاسد ، و لكنهما هما اللذان افسداه ، و كما قال الرسول (صلى الله عليه و آله: (

)كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون ابواه يهودانه او ينصرانه) (١)و الله أعلى من الشركاء ، و الحق الموصى من عنده سوف يجرف غثاء الشركاء و زبدهم ، و يحرر الناس من يد الفاسدين.

قابلية الانهزام و الاستعمار :

[191]و الناس لا يفكرون ما هي قوة الطاغوت ، أو قوة الرأسمالية ، أو علمـاء السوء ؟ إنهم ضعفاء لو لا تسليم الناس لهم ، و خضوعهم لسيطرتهم الظالمة ، إن هؤلاء الشركاء لا يخلقون شيئا بل هم الذين يخلقون ، يخلقهم الله ، فيسرقون إمكانات الناس ، و يفرزهمالوضع الفاسد.

]أيشركون ما لا يخلق شيئا و هم يخلقون[

إن الطاغوت مخلوق لله ، و لكنه في الوقت ذاته يستغل جهل الناس و غفلتهم ، و اطماع طائفة منهم و صغر نفوسهم ، يستغلها في خلق قوة ضاربة له يتسلط بها على المستضعفين ، فكيف يخضع البشر لبشر مثله مخلوق غير خالق ؟ خلقه الله و صنعه الوضع الفاسد ؟

[192]أنهدف من وراء إتباع السلطان ، أو التسليم للوضع الفاسد ، الركون الى(١) بحار الانوار / ج / 281 / 3ح ٢٢

قوته و نصرته في الوقت الذي لا يملك الشركاء قوة و نصرا ، بل إذا تدبرنا جيدا عرفنا : اننا نحن الذين ننصر الطاغوت و نعطيه السيطرة علينا ، بسبب سكوتنا عليه و خضوعنا له..

]و لا يستطيعون لهم نصرا[

إن الطغاة و الفاسدين المفسدين من جلاوزتهم يزعمون أبدا : أن وجودهم و استمرار سيطرتهم يضمن للمجتمع الأمن و الازدهار ، بينما لا يضمن الطغيان إلا الخراب و الدمار ، لانه يكبت طاقات الناس ، و يضعف ارادتهم ، فلا هم قادرون على عمارة بلدهم لان طاقاتهم مكبوتة ، و لا هم قادرون على المحافظة على بلدهم لانهم ضعفاء الارادة.

لقد ثبت علميا : أن أبرز الاسباب المباشرة للتخلف هو : الديكتاتورية كما ان جيوش البلاد التي يسودها الطاغوت لم تقدر على الدفاع بمثل الجيوش الحرة ، و ربما كان من أبرز أسباب هزيمة النازية ديكتاتوريتها ، بل أن الطاغوت أضعف من الناس العاديين لأنه يعتمد على قوة الناس في الدفاع عن شخصه ، بحيث لو تركه الناس تهاوى و سقط ، لذلك قال ربنا سبحانه:

]و لا أنفسهم ينصرون[

فحتى أنفسهم لا يستطيعون الدفاع عنها ، فكيف نعتمد عليها ؟

لماذا يدعون عبادا أمثالهم

هدى من الآيات

إن الشركاء الذين يدعون من دون الله لا يرجى هدايتهم ، لانهم فاسدو الضمير ، و لذلك يجب أن يتركوا ، ثم لابد أن يتحرر الناس من عقدة الذل تجاه الشركاء)الطاغوت و أعوانه من علماء السوء و الأغنياء و الجنود) لابد أن يعرفوا أنهم عباد كما هم ، لا فرق ، وأنهم لا يستجيبون للناس ، و أن أعضاءهم مشلولة ، و انهم ضعفاء ، دعهم يجتمعون فانهم لا يفعلون شيئا.

بينما الله ولي الصالحين من عباده ، قد نزل الكتاب يهدي الناس ، فكم هو الفرق بين من لا يهتدي و بين من يهدي الجميع ؟!

أما الذين يدعوهم الناس لا يقدرون على الانتصار لانفسهم ، فكيف

ينصرونهم ، و إن قلوبهم قد اسودت حتى انهم لا يسمعون دعوة الاصلاح و لا يبصرون ، بالرغم من استخدامهم لعيونهم ظاهرا.

بينات من الآيات

آخر الدواء الكي:

[193]إن أئمة الضلال الذين ينازعون الله سبحانه رداء الحاكمية إنهم قد هبطوا الى الفساد الى الحضيض ، و لذلك فان علينا قتلهم و هذا هو العلاج الوحيد لهم ، و حين يزعم بعض من البسطاء ان الطغاة يمكن ان يهتدوا ، فان هذا الزعم تبرير لتكاسلهم و تقاعسهم عن التمرد عليهم ، و لذلك فان القرآن الحكيم قد قضى على هذا التبرير السخيف بقوله سبحانه:

]و أن تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون]فلا يجب أن تدعوهم الى الهدى ، فاذا لم يستجيبوا تثورون ضدهم كما فعل موسى) عليه السلام) ، بل يمكن ان يسبب ذلك في فشل خطط الرساليين.

[194]إن أئمة الضلال هم في واقع أمرهم بشر مثل الآخرين بل هم أقل ، لان الناس العاديين يتقبلون الهدى ، بينما الطغاة لا يستجيبون للهدى.

]إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين]أي ان كنتم صادقين في نسبة العقل و القدرة الى هؤلاء الشركاء ، و يحتمل أن يكون المراد من الآية الاصنام الحجرية التي لا تعقل و كذلك الآية التالية.

[195]إن هؤلاء أضعف من الناس العاديين لأنهم لا يقدرون على الاستفادة من أعضائهم بسبب تعودهم على إستثمار الآخرين..

]ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهمآذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم[

من الأصنام البشرية كالطغاة ، أو الاصنام الحجرية..

]ثم كيدون فلا تنظرون[

اي ثم اعملوا جميعا ضدي و ضد خططي و لا تمهلوني ، و هذا تحد صارخ لها ، ليعرف الجميع أنها أضعف من المقاومة فيتركونها ، إن الناس يغترون بقوة الأصنام و بقدرتها على حمايتهم من مكاره الطبيعة ، و من مشكلات الحياة ، فيلتجئون الى الطغاة أو الأصنام ، و لا يعرفون انهم أضعف منهم في المقاومة لو لا الاعلام المزيف و الارهاب.

من هو ولي الصالحين ؟

[196]أما ولي الصالحين ، و معبودهم ، و ناصرهم ، و من هو أولى بهم ، فهو الله الذي أنزل الكتاب وضمنه رسالة مفصلة تبلور عقولهم ، و تربي أنفسهم ، و توضح مناهج الحياة ، و تنذرهم و تبشرهم رهبة و رغبة..

]إن وليي الله الذي نزل الكتاب و هو يتولى الصالحين]و لانه نزل الكتاب فمن عمل به و كان صالحا فقد فاز بولاية الله ، بهدايته و قيادته و نصرته.

[197]و أما غير الله من سائر الأولياء لا ينصرون أحدا و لا حتى أنفسهم ينصرونها ، بل هم بدورهم يحتاجون الى النصرة.

]و الذين تدعون من دونه[

و من دون اذنه..

]لا يستطيعون نصركم و لا أنفسكم ينصرون[

أما من أمر الله باتباعه كالرسل و الأئمة (عليهم السلام) فان المناهج التي يأخذون الناس عليها تنصر التابعين لها و هم الصالحون ، ذلك أن ما ينصر البشر ضد شرور نفسه و مكاره الطبيعة ليس قوة غيبية بعيدة عن ارادته ، بل هو عمله الصالح الذي يباركه الرب العزيز الحكيم.

[198]و هؤلاء ليسوا فقط لا يهدون أحدا بل لا يهتدون أيضا لان قلوبهم مغلقة و نفوسهم فاسدة.

]وان تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا و تراهم ينظرون إليك و هم لا يبصرون [فأدوات الادراك عندهم مشلولة ، فحتى نظرتهم ليست بقصد الاهتداء و التبصر و الفهم بل بقصد النظر ذاته ، ذلك لان الطغاة و المستكبرين لا يهدفون من وراء الحياة شيئا ، بل اتخذوها ذاتها هدفا مقدسا ، و نهاية لرغباتهم و تطلعاتهم ، و لذلك فليست نظرتهم للبصيرةولا آذانهم للسماع.

و قد سبق ان الطغيان سبب مباشر للكفر ، و هؤلاء قد بلغوا حضيض الطغيان فكيف يهتدون ؟!!

كيف تتكامل شخصية الانسان

هدى من الآيات

لكي تتكامل شخصية الانسان عليه أن يأخذ العفو ، و يأمر بالمعروف ، و ان يعرض عن الجاهلين ، و لكن السؤال : كيف يمكن للانسان أن يفعل ذلك و الشيطان يفسد قلبه ؟

الجواب : عليه أن يستعيذ بالله و يتوكل عليه في مقاومة نزعات الشيطان ، ان الله سميع عليم.

ذلك أن المتقين الذين ترسخ الايمان في أنفسهم ، إذا مسهم من الشيطان شيء طائف ، و خاطرة خاطفة فانهم يتذكرون ربهم ، و بعد التذكر يبصرون و يميزون خواطر الشيطان عن حقائق الايمان.

بينما اخوان الشياطين يمدون أصحابهم ليستمروا في الغي ، و هي لايقصرون ولا يبخلون في دعم أصحابهم بالضلالة. **كيف**

تتكامل شخصية الانسان

هدى من الآيات

لكي تتكامل شخصية الانسان عليه أن يأخذ العفو ، و يأمر بالمعروف ، و ان يعرض عن الجاهلين ، و لكن السؤال : كيف يمكن للانسان أن يفعل ذلك و الشيطان يفسد قلبه ؟

الجواب : عليه أن يستعيذ بالله و يتوكل عليه في مقاومة نزعات الشيطان ، ان الله سميع عليم.

ذلك أن المتقين الذين ترسخ الايمان في أنفسهم ، إذا مسهم من الشيطان شيء طائف ، و خاطرة خاطفة فانهم يتذكرون ربهم ، و

بعد التذكر يبصرون و يميزون خواطر الشيطان عن حقائق الايمان.

بينما اخوان الشياطين يمدون أصحابهم ليستمروا في الغي ، و هي لايقصرون ولا يبخلون في دعم أصحابهم بالضلالة. **كيف**

تتكامل شخصية الانسان

هدى من الآيات

لكي تتكامل شخصية الانسان عليه أن يأخذ العفو ، و يأمر بالمعروف ، و ان يعرض عن الجاهلين ، و لكن السؤال : كيف يمكن للانسان أن يفعل ذلك و الشيطان يفسد قلبه ؟

الجواب : عليه أن يستعيذ بالله و يتوكل عليه في مقاومة نزعات الشيطان ، ان الله سميع عليم.

ذلك أن المتقين الذين ترسخ الايمان في أنفسهم ، إذا مسهم من الشيطان شيء طائف ، و خاطرة خاطفة فانهم يتذكرون ربهم ، و بعد التذكر يبصرون و يميزون خواطر الشيطان عن حقائق الايمان.

بينما اخوان الشياطين يمدون أصحابهم ليستمروا في الغي ، و هي لايقصرون ولا يبخلون في دعم أصحابهم بالضلالة. **كيف**

تتكامل شخصية الانسان

هدى من الآيات

لكي تتكامل شخصية الانسان عليه أن يأخذ العفو ، و يأمر بالمعروف ، و ان يعرض عن الجاهلين ، و لكن السؤال : كيف يمكن للانسان أن يفعل ذلك و الشيطان يفسد قلبه ؟

الجواب : عليه أن يستعيذ بالله و يتوكل عليه في مقاومة نزعات الشيطان ، ان الله سميع عليم.

ذلك أن المتقين الذين ترسخ الايمان في أنفسهم ، إذا مسهم من الشيطان شيء طائف ، و خاطرة خاطفة فانهم يتذكرون ربهم ، و بعد التذكر يبصرون و يميزون خواطر الشيطان عن حقائق الايمان.

بينما اخوان الشياطين يمدون أصحابهم ليستمروا في الغي ، و هي لايقصرون ولا يبخلون في دعم أصحابهم بالضلالة. **كيف**

تتكامل شخصية الانسان

هدى من الآيات

لكي تتكامل شخصية الانسان عليه أن يأخذ العفو ، و يأمر بالمعروف ، و ان يعرض عن الجاهلين ، و لكن السؤال : كيف يمكن للانسان أن يفعل ذلك و الشيطان يفسد قلبه ؟

الجواب : عليه أن يستعيذ بالله و يتوكل عليه في مقاومة نزعات الشيطان ، ان الله سميع عليم.

ذلك أن المتقين الذين ترسخ الايمان في أنفسهم ، إذا مسهم من الشيطان شيء طائف ، و خاطرة خاطفة فانهم يتذكرون ربهم ، و بعد التذكر يبصرون و يميزون خواطر الشيطان عن حقائق الايمان.

بينما اخوان الشياطين يمدون أصحابهم ليستمروا في الغي ، و هي لايقصرون ولا يبخلون في دعم أصحابهم بالضلالة. **كيف**

تتكامل شخصية الانسان

هدى من الآيات

لكي تتكامل شخصية الانسان عليه أن يأخذ العفو ، و يأمر بالمعروف ، و ان يعرض عن الجاهلين ، و لكن السؤال : كيف يمكن للانسان أن يفعل ذلك و الشيطان يفسد قلبه ؟

الجواب : عليه أن يستعيذ بالله و يتوكل عليه في مقاومة نزعات

الشيطان ، ان الله سميع عليم.

ذلك أن المتقين الذين ترسخ الايمان في أنفسهم ، إذا مسهم من الشيطان شيء طائف ، و خاطرة خاطفة فانهم يتذكرون ربهم ، و بعد التذكر يبصرون و يميزون خواطر الشيطان عن حقائق الايمان.

بينما اخوان الشياطين يمدون أصحابهم ليستمروا في الغي ، و هي لايقصرون ولا يبخلون في دعم أصحابهم بالضلالة.

بينات من الآيات

فمثلا :كل الآيات لا يقبلونها ، و انما يطالبون الرسالة بآية معينة ، و يتساءلون لماذا لم يصطف الرسول هذه الآية ، بينما الرسول ليس هو الذي يختار الآيات ، و انما الله الذي أوحى بالكتاب ، بصائر و رؤى و هدى ، و رحمة للمؤمنين.

و لذلك على البشر أن يستمع الى القرآن ، و ينصت إجلالا له اذا تليت آياته ، و أن يذكر الله تضرعا و خيفة ، حتى يتأصل الايمان في أنفسهم ، و ألا يكون غافلا و لا مستكبرا عن عبادة الله ، بل يسبح له و يسجد له..

أبعاد الحياة الاجتماعية:

[199]ما هي رسالة الاسلام ، التي لو اتبعها المجتمع حقق أهدافه ، و أحرز المنعة التي يريد ؟

تلخص الآية الكريمة هذه الرسالة:

فأولا : أخذ العفو.

ثانيا :الأمر بالمعروف ، الذي تتقبله فطرة الانسان و تستسيغه ، لان الاسلام دين الوجدان النقي ، و العقل النير البعيد عن مؤثرات الهوى.

ثالثا : الاعراض عن الجاهلين ، و عدم إتباع بعضهم الفاسد ، و عدم الخوض معهم فيما يخوضون.

]خذ العفو وأمر بالعرف و أعرض عن الجاهلين[

إن الادوار الثلاث تلخص الحياة الاجتماعية في ثلاث أبعاد : البعد الاقتصادي -و البعد القانوني - و البعد الاخلاقي.

ففي البعد الاقتصادي يجب أخذ الانفال الاضافية التي لا يحتاج اليها الفرد ، لتجعل للخدمة الاجتماعية.

و في البعد القانوني يجب تنظيم الحياة الاجتماعية وفقا لافضل ما يراه العقل السليم ، في الظرف الخاص ، مما يعطي التشريع مرونة كافية لاحتواء تطورات الحياة.

أما في البعد الاخلاقي فيجب رفع الجهل و الجهالة ، وتكتل المؤمنين الصالحين لقيادة الحياة.

ماذا نحتاج للتطبيق ؟

[200]و لكن هذه التعاليم بحاجة الى قلب سليم ، و عقل نير ، و شخصية متكاملة ، و ذلك كله لا يمكن توفيره إلا بتخلص البشر من

نزغ الشيطان و فساده ، و علاج ذلك يكون بالتوكل على الله ، و الاستعاذة به من الشيطان الرجيم.

]و اما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم]يسمع نجواك ، و يعلم ما في ضميرك ، فاذا قلت ظاهرا و أضمرت واقعا فانه سوف ينصرك على الشيطان.

[201]الذين تكرست في أنفسهم ملكة الالتزام بالتعاليم الالهية ، و أصبح الدين بالنسبة اليهم عادة بسبب المزيد من العمل فانهم إذا انزلقوا بسبب ضغط الشهوات فانهم سرعان ما يتذكرون و يلتزمون بالواجبات مرة ثانية..

]إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون]حين يعودون الى الله ترتفع عن أنفسهم غشاوة الشهوات ، فيبصرون حقيقة الذنب فيجتنبونه.

[202]بينما الكفار و اخوان الشياطين الذين لا يملكون حصانة التقوى فانهم ، ليس فقط لا يعطيهم الشيطان حصانة ، بل يمدهم الشيطان في غيهم ، و يبرر لهم سيئاتهم غرورا..

من الفكر التبريري:

]و اخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون[

[203]من تلك الافكار التبريرية التي يمد بها الشيطان اخوانه ، و يكرس بها سلبياتهم هي : أن كل آية كانت تنزل عليهم كانوا يكفرون بها ، و يطالبون بآية أخرى ، و يزعمون أن الآيات تنزل عليهم بطلب الرسول.

]و اذا لم تأتهم بآية قالوا لو لا اجتبيتها قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي]و القرآن بصائر يرى المرء بسببها و من خلالها الحياة فمثلا : القرآن يميز للبشر بين العقل و الجهل ، الشهوات و الغضب ، حتى يلامس وجدان كل واحد حقيقة نفسه و ما بها من عقل و شهوة ، أو عقل و غضب ، و القرآن يذكر البشر بربه عن طريق إثارة الوجدان ، و بلورة عقله ، ثم يربط بين الايمان بالله و بين ما يرى في الكون من آثار عظمة و جمال ، و من نقاط ضعف و عجز ، و يربط بعدئذ بين كل ذلك و بين ضرورة التسليم لله و لرسالاته ، كل تلك بصيرة يرى المرء من خلالها الحياة رؤية واضحة.

و اذا تعذر على المرء رؤية الحياة بسبب أو بآخر ، فان الله هو الذي يعطيه الهدى بصورة مجملة أو مفصلة ، فيكشف له طبيعة الدنيا و الآخرة و ما فيهما من عوامل تقدم أو تخلف ، حضارة أو دمار.

و البصائر و الهدى تعطي البشر رفاها و سعادة هي : الرحمة التي ينزلها الله للمؤمنين باتباع البصائر و الهدى.

تعظيم القرآن:

]هذا بصائر من ربكم و هدى و رحمة لقوم يؤمنون[

[204]لان القرآن بصائر و هدى فعلى البشر ان يكبره و يعظمه ، فاذا قرئ القرآن فعلى الجميع أن يتركوا كلامهم و يستمعوا الى آيات الذكر.

]و إذا قرئ القرآن فاستمعوا له و أنصتوا لعلكم ترحمون]أي تنالون السعادة و الرفاه بالاستماع الى آيات الذكر الحكيم.

كيف نقاوم الانسلاخ عن القرآن:

[205]و لكي يقاوم البشر عوامل الانسلاخ من آيات الله ، و لكي لا يصبح مثل الذين لهم قلوب لا يفقهون بها ، و لهم آذان لايسمعون بها ، و لهم أعين لا يبصرون بها ، و بالتالي لكي لاينسلخ البشر من إنسانيته ، فان عليه أن يداوم قراءة القرآن ، و أن يتذكر آيات الله و أسمائه ، و لكن ذكر الله له شروط معينة هي:

أولا : أن يكون التذكر في نفس البشر ، لكي لا يكون الذكر رياءا أو نفاقا أو قشريا لا يغور في العمق.

ثانيا : أن يكون الذكر تضرعا و تذللا ، و معرفة من الفرد بأنه عبد ذليل لله ، لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا.

ثالثا : أن يخاف الفرد ربه و ما يترتب على معصيته له من عذاب شديد.

رابعا : ألا يكون ذكر الله جهرا بما يزيد احتمالات الرياء ، و لا يجعل الفرديتعمق فيما يقول.

خامسا : أن يكون الذكر بالغدو و الآصال ، صباحا و مساءا ، كل ذلك يرفع الغفلة عن الانسان.

]و اذكر ربك في نفسك تضرعا و خيفة و دون الجهر من القول بالغدو و الآصال و لا تكن من الغافلين]قاوم التكبر في نفسك:

[206]و على الانسان أن يقاوم روح الاستكبار في ذاته ، و يطيع الله إطاعة كاملة ، و أن يسبح الله و ينزهه من آثار النقص و العجز الموجود في خلقه ، و أن يسجد لله رمزا لتلك الطاعة و العبادة.

]إن الذين عند ربك[

من الملائكة المقربين ، و الأنبياء ، و الشهداء ، و الصالحين الذين يتحسسون حضورهم أمام الله و هيمنة الله عليهم ، و أنه سميع بصير ، و أنه أقرب إليهم من حبل الوريد ، إن هؤلاء الذين يعتبرون قدوة صالحة لكل واحد منا .. إنهم..

]لا يستكبرون عن عبادته و يسبحونه و له يسجدون[

و عندما يشعر الفرد أنه عند الله ، و ان ربه حاضر عنده ، آنئذ يشعر بجلالة الله و مدى عظمته ، فيخضع لله و ينزع عن نفسه الاستكبار الزائف ، وعندئذ يعرف الله و يزداد إيمانا بعظمته ، فيسبحه و ينزهه عن النقص ، و عندئذ تظهر علامات الخشوع عليه فيسجد لله ، وهذه قمة الانسانية التي كانت سورة الاعراف تهدف إيصال البشر اليها .. جعلنا الله سبحانه ممن يتطلع للوصول اليها بالتوكل عليه.